المسارات الوسطية في فكر الإمام علي عليه السلام

دراسة في نهج البلاغة

ISBN 978-9922-9468-2-5

9 789922 946825

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد ٣٦٨٤ لسنة ٢٠١٩

2022 J33 A2.BP193.1

جابر، حميد سراج - مؤلف.

المسارات الوسطية في فكر الامام علي عليه السلام دراسة في نهج البلاغة / أ.د. حميد سراج جابر، د. أروى عبد الواحد رحيم ؛ مراجعة وضبط اللجنة العلمية في مؤسسة علوم نهج البلاغة. - الطبعة الاولى. - كربلاء، العراق : العتبة الحسينية المقدسة، مؤسسة علوم نهج البلاغة، ٢٠٢٢ / ١٤٤٤ للهجرة.

٢٤٠ صفحة؛ ٢٤ سم. - (العتبة الحسينية المقدسة؛ ١١٢٨)، (مؤسسة علوم نهج البلاغة؛٢١٨)

يتضمن هوامش، لائحة المصادر (الصفحات ٢١٧-٢٣٨).

١. الشريف الرضي، محمد بن الحسين، ٣٥٩-٤٠٦ للهجرة -- نهج البلاغة. ٢. علي بن أبي طالب (عليه السلام) الامام الاول، ٢٣ قبل الهجرة-٤٠ للهجرة -- حديث. ٣. الاعتدال -- جوانب دينية الاسلام. أ. رحيم، أروى عبد الواحد -- مؤلف. ب. دراسة لـ(عمل): الشريف الرضي، محمد بن الحسين، ٣٥٩-٤٠٦ للهجرة -- نهج البلاغة. ج. العتبة الحسينية المقدسة (كربلاء، العراق). مؤسسة علوم نهج البلاغة -- جهة مصدرة. د. العنوان

تمت الفهرسة قبل النشر في شعبة نظم المعلومات التابعة لقسم الشؤون الفكرية والثقافية في العتبة الحسينية المقدسة.

سلسلة الرسائل والأطاريح الجامعية ٥٠
وحدة الدراسات التاريخية

المسارات الوسطية في فكر الإمام علي عليه السلام
دراسة في نهج البلاغة

د. اروى عبد الواحد رحيم

مراجعة وضبط
اللجنة العلمية في مؤسسة علوم نهج البلاغة

إصدار
مؤسسة علوم نهج البلاغة
العتبة الحسينية المقدسة

جميع الحقوق محفوظة
العتبة الحسينية المقدسة

الطبعة الأولى
١٤٤٤هـ - ٢٠٢٢م

العراق - كربلاء المقدسة -مجاور مقام علي الأكبر عليه السلام
مؤسسة علوم نهج البلاغة
هاتف: ٠٧٧٢٨٢٤٣٦٠٠ - ٠٧٨١٥٠١٦٦٣٣
الموقع الألكتروني: www.inahj.org
الإيميل: Info@Inahj.org

تنويه:
إن الأفكار والآراء المذكورة في هذا الكتاب تعبر عن وجهة نظر كاتبها، ولا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر العتبة الحسينية المقدسة
تخلي العتبة الحسينية المقدسة مسؤوليتها عن أي انتهاك لحقوق الملكية الفكرية

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المؤسسة

الحمد لله على ما أنعم وله الشكر بما ألهم والثناء بما قدم، من عموم نعم ابتدأها وسبوغ آلاء أسداها، وتمام منن والاها، والصلاة والسلام على خير الخلق أجمعين محمد وآله الطاهرين.

أما بعد:

فلم يزل كلام أمير المؤمنين (عليه السلام) منهلاً للعلوم من حيث التأسيس والتبيين ولم يقتصر الأمر على علوم اللغة العربية أو العلوم الإنسانية، بل وغيرها من العلوم التي تسير بها منظومة الحياة وإن تعددت المعطيات الفكرية، إلا أن التأصيل مثلما يجري في القرآن الكريم الذي ما فرط الله فيه من شيء كما جاء في قوله تعالى: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾، كذا نجده يجري مجراه في قوله تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾، غاية ما في الأمر أن أهل الاختصاصات في العلوم كافة حينما يوفقون للنظر في نصوص الثقلين يجدون ما تخصصوا فيه حاضراً وشاهداً فيهما، أي في القرآن الكريم وحديث العترة النبوية (عليهم السلام) فيسارعون وقد أخذهم الشوق لإرشاد العقول إلى تلك السنن والقوانين والقواعد والمفاهيم والدلالات في القرآن الكريم وحديث العترة النبوية.

من هنا ارتأت مؤسسة علوم نهج البلاغة أن تتناول تلك الدراسات الجامعية المختصة بعلوم نهج البلاغة وبسيرة أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب

(عليه السلام) وفكره ضمن سلسلة علمية وفكرية موسومة بـ(سلسلة الرسائل والأطاريح الجامعية) التي يتم عبرها طباعة هذه الرسائل وإصدارها ونشرها في داخل العراق وخارجه، بغية إيصال هذه العلوم الأكاديمية إلى الباحثين والدارسين وإعانتهم على تبين هذا العطاء الفكري والانتهال من علوم أمير المؤمنين علي (عليه السلام) والسير على هديه وتقديم رؤى علمية جديدة تسهم في إثراء المعرفة وحقولها المتعددة.

وما هذه الدراسة الجامعية التي بين أيدينا لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الإسلامي، إلا واحدة من تلك الدراسات التي وفقت مؤلفتها للغوص في بحر درر أمير المؤمنين (عليه السلام) لتنهل منه معينه العذب، فخرجت لنا بدراسة تتبعت فيها مسارت الوسطية والاعتدال في فكره (عليه السلام) وما كان لهذه المسارات من أثر في حياة الأمة الإسلامية، بعد ما مرَّ بها من أزمات، إذ وضعت هذه المسارات معالجات وحلول لتلك الأزمات، وصولا لبناء منظومة قيمية أخلاقية على وفق المنظور الإسلامي المحمدي الأصيل، فجزى الله الباحثة خير الجزاء وأوفره.

السيد نبيل الحسني الكربلائي

رئيس مؤسسة علوم نهج البلاغة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله ربِّ العالمين على إفضاله، والشكر على نواله، والصلاة والسلام على خير الأنبياء والمرسلين محمد بن عبد الله وعلى آله الطيبين الطاهرين.. أما بعد..

ففي خضم ما تمرُّ به الأمة الإسلامية في عالمنا المعاصر من تحديات جمّة ألقت بظلالها القاتمة على وجود المجتمعات ومستقبلها برزت الوسطية بوصفها منهجاً مهمّاً ينبغي الاستجابة له، مع أن ضمان النجاح والاستمرارية لأي علاج ومنهج فكري يعتمد على صفاء المنبع، وسلامة المصدر، فيدوم نفعه ويرتقي إلى منهج وعلاج لا يستغنى عنه ولا يُستعاض بغيره مهما تحولت المتغيرات الزمانية والمكانية، فمثّلت رؤى أمير المؤمنين عليه السلام والمسارات الوسطية ذلك العلاج الفاعل الذي يطور الواقع الحياتي، ويهدف إلى تقنين الوسطية بوصفها مرتكزاً ومنهجاً ومساراً لا يستقيم بناء المجتمعات من دونه، فضلاً عن اتخاذها منهجاً سلوكيّاً يمارسه المجتمع بما فيه من أفراد وجماعات بغض النظر عن توجهاتهم العقائدية، لتتطلعّ إلى مجتمع يعي متطلبات المرحلة ويسعى نحو الرقي والازدهار، فكان لا بد من انتهاج الوسطية لتلافي النقص والتقصير السائد في المجتمع، لهذا كان لا بد من وقفة تصحيحية تستمد جذورها من هذا البحر الزاخر والدر المنثور الذي لا يتوقف عن العطاء في كل الأفكار والمضامين الوسطية من حيث كونها مصطلحاً لم يتجاوز إلّا بضع عقود أخذ في التداول والانتشار وبرزت جهود المفكرين في معالجتها وعُقدت المؤتمرات من أجلها، ولكن كواقع عملي وممارسة وتأصيل معنى، فهي تمتد إلى مئات السنين، فالإضاءات القرآنية تكشف عن تجذر

الوسطية والاعتدال، ومن ثم دعا إليها الرسول محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ومارسها، ومن بعده الإمام علي (عليه السلام)، ومع أن المجتمعات في كل زمان ومكان كانت دائماً ما تأخذ جانبي الإفراط والتفريط، والغلو، والانحراف في مختلف مفاصل الحياة ومرافقها فكان ذلك يستدعي إعادة تغليب ثقافة التوسط والاعتدال على الغلو والانحراف بمفهومه الواسع الذي طغى على كل المحاور والمفاصل.

لذلك جاء هذا البحث لزاماً ليكون جزءًا من صيغ الحلول، لتوسيط واعتدال أفعال الأمة الإسلامية، ولتدارك ما تيسر من بنى تحتية أخلاقية بعد التصدع، ولإيجاد معالجات لتأصيل الحالة الوسطية للإسلام على أساس كونها حالة ينتمي إليها الجميع، وأتت الفرصة لتجذير التوسط في كل المسارات التي طالها الانحراف من ذلك الوقت حتى الآن بالرؤى العلوية التي تخفف عن الأمة عناءها وغلواءها، وتتوجه للبناء والنهوض، وتؤسس لمجتمع صالح يبتعد فيه الإنسان عن مختلف أنواع العدوان على الغير، سواء أ كان جسديًا أم ماليًا أي عدوان اعتباري آخر، ولعل دراسة هذا الموضوع في نهج البلاغة يوجه الفكرة ويزيد من وضوحها وتأثيرها، ذلك لأن هذا الكتاب الذي جمعه الشريف الرضي (رضي الله عنه) (ت٤٠٦هـ) والذي يضم بين دفتيه كلمات أبلغ الخطباء علي بن أبي طالب (عليه السلام)، قد أحدث ثورة تصاعدية في الفكر، لا تزال آخذة بالتصاعد، وكان الإبداع النصي حاضرًا في خطبه (عليه السلام)، فلا يسرد سرداً ولا يجتر اجتراراً بل يجسد ويبدع، وكذا التسلسل المنطقي المتين وتولد الأفكار التي تمسك بالقارئ لها للتأمل فيها.

انتظم هذا البحث بعد مقدمته في تمهيد وثلاثة فصول وخاتمة في محاولة لاستجماع عنوانه: (**المسارات الوسطية في فكر الإمام علي (عليه السلام) دراسة في نهج البلاغة**)، جاء التمهيد بعنوان: (**مفهوم الوسطية ومدلولاتها الفكرية**) الذي عني

ببيان معنى الوسطية ودلالاتها اللغوية والاصطلاحية، وكذلك بيان التوظيف والتكييف الفكري لمفهوم الوسطية، ومن ثم دراسة المفهوم النامي للوسطية في المنظور الإسلامي وبيان إصالته وإطاره الفكري الذي يعتمد بالأساس على القرآن الكريم والسنة النبوية وترجمته عند أئمة أهل البيت عليهم السلام.

أما الفصل الأول فخُصّص لدراسة (المسارات التكاملية في الاعتقاد والفكر) بما فيه من صفة التكامل في الفكر العقائدي الذي اشتمل على معلومات في غاية الأهمية عن الوسطية في الثوابت الإسلامية العلمية والعملية التي يؤمن بها المؤمن، ومن ثَمَّ الحديث عن أثر الوسطية في العقائد، والاعتقاد المعرفي أو التشريع أو القواعد التثقيفية التي يبنيها الإمام عليه السلام في المسارات العبادية؛ لكي تتجه إلى طريق التكامل والكمال عن طريق الوسطية، وقد خُصّص المبحث الثاني لدراسة أهمية الوسطية في الاعتقاد بمقام الإمامة وأبعادها الولائية، ولم يعدم هذا الفصل بيان نتيجة الوسطية وفلسفتها في مسار الفكر الحضاري والعلوم التطبيقية الذي تناوله المبحث الثالث.

وتضمن الفصل الثاني الذي كان بعنوان (**المسارات التنظيمية والتوجيه الاستراتيجي**) والذي عد بمنزلة المسار الذي تسترشد به المؤسسات سواء السياسية أم الاقتصادية أم المؤسسة الاجتماعية ثلاثة مباحث، كان المبحث الأول عن المسار التنظيمي للإطار الاجتماعي وفلسفته النوعية، والمبحث الثاني الذي تناول المسار الاقتصادي وما يحققه من تنظيم تنموي كسبي، وجاء المبحث الثالث لتناول تنظيم الإطار السياسي، فحققت الوسطية رؤى ونتائج تنظيمية وتوجيهاً استراتيجياً ينظم الحياة الاجتماعية والعلاقات مع الآخرين وتوجه الاقتصاد وتحقق التوازن الاقتصادي، فضلاً عن تنظيم أداء المؤسسة السياسية بما

فيها متعلقاتها العسكرية وتوجيهها وتطويرها.

في حين استعرض الفصل الثالث (**المسارات التثقيفية وطابعها الشمولي**)، إذ يضع الإمام علي عليه السلام قواعد وقائية، وهو ما تضمنه المبحث الأول، وقواعد إرشاديه تضمنها المبحث الثاني، وكذلك الغاية الفلسفية التي تؤكد مفهوم التثقيف الشامل ليأخذ مساحته المناسبة في المجتمع ويُعتمد إطاراً ومنهجاً يترسخان في الذهنية الفردية في المبحث الثالث.

ثم خاتمة الأطروحة التي تضمنت أهم النتائج التي خرجت بها الدراسة.

واعتمدت الدراسة العديد من المصادر أغنتها بالمعلومات الكافية والمفيدة في جوانبها المختلفة، وكان كتاب نهج البلاغة هو الأساس والمصدر الرئيس، وتم اعتماد النسخة التي ضبطها صبحي الصالح.

ويلحقه **شروحات نهج البلاغة**:- منها شروحات القدماء، جاء في مقدمتها حسب الأهمية للبحث شرح نهج البلاغة (الكبير) واختيار كتاب أعلام نهج البلاغة للسرخسي (ت ٤٨٣هـ)، ومعارج نهج البلاغة لمؤلفه بيهقي فريد خراساني (ت ٥٢٢هـ/ ١١٢٨م)، وكتاب منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة للراوندي (ت ٥٧٣هـ / ١١٧٧م) وشرح حدائق الحقائق لقطب الدين الكندري البيهقي (ت القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي)، وشرح ابن أبي الحديد المعتزلي (ت٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م)، مصباح السالكين أو الشرح المتوسط لابن ميثم البحراني(ت٦٩٩هـ/ ١٢٩٩م)، فضلاً عن شروحات أخرى.

واعتمدنا أيضًا على **شروح المتأخرين**، وأهمها، كتاب شرح نهج البلاغة للموسوي وكتاب توضيح نهج البلاغة للسيد محمد الحسيني الشيرازي، فقد كانت شروحهما

مميزة وغنية اعتمدنا عليها كثيراً، وكتاب منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة للخوئي، وكذلك كتاب في ظلال نهج البلاغة، لمحمد جواد مغنية، وشرح نهج البلاغة لعلي محمد علي دخيل، ونهج البلاغة لمحمد عبده، وشرح نهج البلاغة المقتطف من بحار الأنوار لعلي أنصاريان، وبهج الصباغة في شرح نهج البلاغة للتستري.

هذا فضلاً عن **شروحات نهج البلاغة باللغة الفارسية** التي تم الاعتماد عليها كثيراً في الدراسة سواء القديمة منها أم المتأخرة وحسب الأهمية، ومنها تنبيه الغافلين وتذكرة العارفين لفتح الله الكاشاني (ت٩٨٨هـ/ ١٥٨٠م)، وترجمة وشرح نهج البلاغة لعز الدين الآملي (ت بعد٩٤٤هـ-١٥٣٧م)، وكتاب منهاج الولاية في شرح نهج البلاغة لمولى عبد الباقي التبريزي (ت١٠٣٩ه-١٦٢٩م)، أما شروحات المتأخرين، فيأتي في مقدمتها شرح نهج البلاغة للأردبيلي، وشرح نهج البلاغة للقمي، وفرهنگ معارف نهج البلاغة للدشتي، وكتاب شرح نهج البلاغة لمحمد علي الشرقي.

ولا يُغفَل دور **التفاسير** بوصفها مصدراً مهمًّا للدراسة، لما حوته من تفسير آيات كثيرة جاءت في الوسطية، فضلاً عن الإفادة منها في تمهيد البحث، ومنها حسب الأهمية للبحث، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل للشيرازي، وجامع البيان عن تأويل آي القرآن لابن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ/ ٩٢٢م)، وتفسير الرازي لفخر الدين الرازي(ت ٦٠٦هـ/ ١٢١٠م)، وتفسير القمي للقمي (ت نحو ٣٢٩هـ/ ٩٤٠م) وكتاب تفسير الميزان للطباطبائي، والعديد من التفاسير الأخرى التي تم الاعتماد عليها.

واعتمدت الدراسة على **كتب الحديث**، ويأتي في مقدمتها مسند أحمد بن حنبل (ت٢٤١هـ/ ٨٥٥م)، وكتاب الصحيح للبخاري (ت ٢٥٦هـ/ ٨٧٠م).

وكان **للمعاجم اللغوية** دور في توضيح كلام الإمام عليه السلام الذي ورد في طيات الدراسة، ومنها حسب الأهمية للبحث لسان العرب لابن منظور (ت٧١١هـ/ ١٣١١م)، والعين للفراهيدي (ت١٧٥هـ/ ٧٩١م)، ومختار الصحاح لأبي بكر الرازي (ت٧٢١هـ/ ١٣٦٩م).

وقد أفاد البحث من الدراسات الحديثة العامة كبحث الوسطية في التصور الإسلامي لإبراهيم النعمة، والوسطية في ضوء السنة إلشريفة لمحمود خلف جراد العيساوي، وبحث الوسطية من منظور إسلامي للأستاذ المساعد الدكتور حسين علي احمد فضلاً عن الوسطية في القرآن وعلومه كمفهوم الوسطية ومضمونها في القرآن الكريم لوضاح كافي حلومي وتفسير آيه الوسطية لاحتراس شاد فندي، والوسطية القرآنية بين الإفراط والتفريط لعلاء صالح القيسي.

ختاماً لا أدعي لهذه الأطروحة الكمال، ولا لمباحثها الإحاطة التامة، ولا لمفرداتها الشمول، لكنها ألق من أضواء الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام من ناحية، ومحاولة لوضع المسارات الوسطية حيز التطبيق بما يهيئ للبحث العلمي أن يأخذ مداه في الاصطلاح من ناحية أخرى. وما توفيقي إلّا بالله العلي العظيم عليه توكلت واليه أنيب.

التمهيـــد

مفهـــوم الوســطية
ومدلولاتهـا الفـكرية

أولاً: معنى الوسطية ودلالاتها اللغوية والاصطلاحية:

الوسطية هي مفهوم شمولي عام لا يتحدد بجانب معين وإنما ينسحب على الجوانب كافة؛ وذلك لتطابق معناه اللغوي والاصطلاحي، فعن المعنى اللغوي يرى الفراهيدي (ت١٧٥هـ) أن الوسط: موضعٍ للشيء، فإذا نصبت السين صار اسماً لما بين طرفي كل شيء، و وسط فلان جماعة من الناس، وهو يسطهم، إذا صار في وسطهم، و الوسط من الناس وكل شيء: أعدله، وأفضله، ليس بالغالي ولا المقصر[١]، ولم يختلف الجوهري (ت٣٩٣هـ) كثيراً عنه؛ إذ قال: إن الوسط يعني العدل، وشيء وسط أي بين الجيد والرديء[٢]، أما ابن فارس(٣٩٥هـ)، فيرى في تعريف كلمة (وسط) أن الواو والسين والطاء هي بناء صحيح يدل على العدل والنصف وأعدل الشيء أوسطه ووسطه[٣].

وتوسع ابن منظور(ت٧١١هـ) في الإحاطة بكل معاني الكلمة ومفرداتها حينما قال: إن الوسَط، بالتحريك اسم لما بين طرفي الشيء، وقد يأتي الوسط صفة، وإن أَصله أن يكون اسماً من جهة أن أَوسط الشيء أَفضله وخياره، كوسَط المرعى خيرٌ من طرفيه، وكوسَط الدابة للركوب خير من طرفيها لتمكن الراكب، وأَما الوسْط، بسكون السين، فهو ظَرْف[٤].

وأَوسَط قومِه أَي خيارِهم، ووسِيطاً أَي حَسِيباً في قومه، ووَسَطَ في حَسَبِه وَساطة وسِطةً ووسط؛ ووَسَطَه حَلَّ وَسَطَه أَي أَكرمه، والتوْسِيط أن تجعل الشيء

(١) الفراهيدي، العين، ٧/ ٢٧٩.

(٢) الجوهري، الصحاح، ٣/ ١١٦٧.

(٣) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ٦/ ١٠٨.

(٤) ابن منظور، لسان العرب، ٧/ ٤٢٧-٤٢٨.

في الوَسَط، والتوسِيط قَطع الشيء نصفين، والتوَسط من الناس من الوَساطةِ، ومَرْعىً وسَطٌ أَي خِيار؛ ووسط الشيءِ وأَوسطه: أَعدله، ورجل وسط ووسيط: حسن من ذلك.، وصار الماء وَسِيطة إِذا غلَب الطين على الماء؛ ويقال أَيضاً: شيء وسط أَي بين الجيدِ والردِيء[1]. ومن كل ما مر من تعاريف اللغويين يمكن أن نخرج بما يلي:

إن المعنى اللغوي للكلمة وسط وما يتصرف منها يؤدي إلى معانٍ متقاربة تدور جميعها حول الأفضلية، والعدل، والتمييز والمثالية.

ومن تعاريف اللغويين يمكن أن نخرج بنتيجة مفادها أن الوسطية هي وسيلة الوصول إلى الغاية المحمودة.

كذلك تؤدي إلى منع انحدار الاختيار بين ذات اليمين وذات الشمال.

وقد تأتي الوسطية بمعنى القصد فالقاف والصاد والدال في اللغة تعني استقامة الطريقة، و القصد في المعيشة لا إسراف ولا تقتير[2]، فهي عكس الإسراف الذي يعني مجاوزة القصد، وعجل في ماله أسرف من غير قصد[3]، إي من غير توسط واعتدال.

وأيضاً من المدلولات الأخرى للوسطية: الرفق الذي هو ضد العنف، والرفق لين الجانب ولطافة الفعل[4].

(١) ابن منظور، لسان العرب، ٧/ ٤٣٠.

(٢) الفراهيدي، العين، ٥/ ٥٤- ٥٥.

(٣) ابن منظور، لسان العرب، ٩/ ١٤٨.

(٤) ابن منظور، لسان العرب، ١٠/ ١١٨.

والحال ينطبق على المعنى الاصطلاحي، فالوسطية هي واحدة من سمات الأمة المحمدية وخصائصها، لذلك فهي ليست مصطلحاً أو مفهومًا حديثًا؛ إذ ورد المصطلح في القرآن الكريم أكثر من مرة بألفاظ متعددة كوسطٍ[١] والوسطى[٢] وأوسطهم[٣]، ووسطن[٤]، وتناولها العلماء القدامى والمحدثون بالتعريفات التي تقود غالبيتها إلى مضامين متقاربة لا تبتعد كثيراً عن المعنى اللغوي، بل تدور في فلكه، فالوسطية لدى **ابن جرير الطبري (ت٣١٠هـ)** وسطية عقدية بين طرفي التقصير والغلو، وقد اقتبسها من القرآن الكريم، فيرى أن الوسطية أو الوسط في الآية القرآنية: ﴿**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا**﴾[٥] هو الوسط الذي بمعنى الجزء الذي بين الطرفين، مثل وسط الدار، وأن الله تعالى وصفهم بأنهم وسط لتوسطهم في الدين، فلا هم أهل غلو فيه، غلو النصارى الذين غلوا بالترهب، وقولهم في عيسى ما قالوا فيه، ولا هم أهل تقصير فيه، تقصير اليهود الذين بدلوا كتاب الله، وقتلوا أنبياءهم، وكذبوا على ربهم، وكفروا به، ولكنهم أهل توسط واعتدال فيه، فوصفهم الله بذلك، إذ كان أحب الأمور إلى الله أوسطها[٦].

فيما يرى **الراغب الأصفهاني** (ت٥٠٢هـ) أن الوسطية تأتي، من وسط الشيء، وهو ما له طرفان متساويا القدر، ويقال ذلك في الكمية المتصلة كالجسم الواحد إذا قلت وسطه صلب، وضربت وسط رأسه بفتح السين. ووسط بالسكون،

(١) ينظر قولة تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾، البقرة / ١٤٣.

(٢) ينظر قوله تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاَةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا للهِ قَانِتِينَ﴾، البقرة / ٢٣٨.

(٣) نظر قولة تعالى: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلاَ تُسَبِّحُونَ﴾، القلم/ ٢٨.

(٤) ينظر قولة تعالى: ﴿فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا﴾، العاديات/ ٥.

(٥) البقرة / ١٤٣.

(٦) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ٢/ ١١.

ويقال في الكمية المنفصلة كشيء يفصل بين جسمين نحو وسط القوم كذا، ويقال تارة فيما له طرفان مذمومان، يقال: هذا أوسطهم حسبًا إذا كان في واسطة قومه، وأرفعهم محلًّا كالجود الذي هو بين البخل والسرف، فيُستعمل استعمال القصد المصون عن الإفراط والتفريط، فيمدح به نحو السواء والعدل والنصفة، نحو ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾، وعلى ذلك ((قال أوسطهم))، وتارة يقال فيما له طرف محمود وطرف مذموم كالخير والشر، ويكنى به عن الرذل نحو قولهم: فلان وسط من الرجال تنبيها أنّه قد خرج من حد الخير[1].

وقد استخلص **الزمخشري (ت٥٣٨هـ)** من هذا المفهوم معنى (الخيار الحسن) معللاً ذلك بأن الوسط هو الجزء المحمي قياساً بالأجزاء الأخرى فقال عن معنى الوسط ((الخيار وهي صفة بالاسم الذي هو وسط الشيء، ولذلك استوى فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث، ونحوه قوله عليه الصلاة والسلام: «وأنطوا الثبجة»[2] يريد الوسيطة بين السمينة والعجفاء وصفا بالثبج وهو وسط الظهر،إلا أنه ألحق تاء التأنيث مراعاة لحق الوصف، وقيل للخيار وسط؛ لأن الأطراف يتسارع إليها الخلل والأعوار، والأوساط محمية محوطة))[3].

في حين استوعب **الرازي (ت٦٠٦هـ)** آراء سابقية القائلة بالعدل أو الخيرية أو الوسطية العقدية بين طرفي التقصير والغلو.

وقد مثل بعض العلماء لهذا المفهوم العادل ببعض المصاديق، فقد اقترب **القرطبي(ت٦٧١هـ)** من سابقية حينما رأى أن الوسط يعني العدل، وأصل هذا أن

(١) الراغب الاصفهاني، المفردات في غريب القرآن،ص ٥٣٣.

(٢) الزيلعي، تخريج الأحاديث والآثار، ١/ ٩١.

(٣) الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوة التأويل، ص٣١٧.

أحمد الأشياء أوسطها[١]، في حين ذكر **ابن كثير** أن الوسط هو الخيار والأجود، ومثل لذلك بمصاديق من أرض الواقع الإسلامي، كالقول أن قريش أوسط العرب نسبا وداراً أي خيرها، وكان رسول الله ﷺ وسطا في قومه أي أشرفهم نسبا، ومنه الصلاة الوسطى[٢] التي هي أفضل الصلوات، ولما جعل الله هذه الأمة وسطا خصها بأكمل الشرائع، وأقوم المناهج، وأوضح المذاهب [٣].

ويستعرض **المناوي(ت١٠٣١هـ)** أمثال الوسط كالسخاء الذي هو وسط بين البخل والتبذير، والشجاعة بين الجبن والتهور، لأنه يرى أن الوسط يكون بين طرفين مذمومين، إذ كل خصلة حسنة لها طرفان مذمومان، وأبعد الجهات والمقادير من كل طرفين وسطهما، فإذا كان في الوسط فقد ابتعد عن المذموم بقدر الإمكان[٤].

في حين نجد أن من العلماء من ربط بين الجانب المادي والمعنوي وبشكل هادف لبيان الخصوصية والمركزية، فقد قيل: إن ((الوسط في الأصل هو اسم للمكان الذي يستوي إليه المساحة من الجوانب في المدور ومن الطرفين في المطول كمركز الدائرة ولسان الميزان من العمود، ثم استعير للخصال المحمودة لوقوعها بين طرفي إفراط وتفريط))[٥]، ولعلنا حينما نخصص هذا الجزء المادي الوسطي في المكان نجده يمثل المركزية القيادية والمحور المنتج من المادة.

في نهاية المطاف نخلص إلى أن الوسطية في التعريف الاصطلاحي جاءت بمعان عدة: مرة بمعنى الاعتدال والتوسط، ومرة بمعنى الخيرية والأفضلية، وثالثة تعبر

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ٢/ ١٥٣.

(٢) قوله تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاَةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا للهِ قَانِتِينَ﴾، البقرة / ٢٣٨.

(٣) تفسير ابن كثير، ١/ ١٩٦.

(٤) المناوي، فيض القدير شرح الجامع الصغير، ٤/ ٥٠٧.

(٥) الكفوي، الكليات، ص٩٣٨

عن حالة التوازن بين التطرف والمحمودية، وأخرى عن الجزء الذي بين طرفي الإفراط والتفريط، ومن هذه المعاني كلها يمكن أن نخرج بتعريف أو نتيجة جامعة ومفسرة لمعنى الوسطية وهي أن الوسطية قد تأتي بالمعنى المادي الصرف كون الشيء في الوسط وله طرفان، أو تأتي بالمعنى المادي كون الشيء أفضل شيء وأعدله وأجوده أو تأتي بمعنى الحالة المثالية في الشيء أو التي عليها الشيء.

ثانياً: التوظيف والتكييف الفكري لمفهوم الوسطية.

لقد وظفت الوسطية لتتلائم مع بعض النظريات والطروحات، وكان هذا التوظيف يمثل استثمارًا للمفهوم بما يحقق ويوافق الطرح الفئوي أو المذهبي أو الديني على وجه العموم بحسب التفسيرات التي يراها أصحابها موافقة للمبدأ فابن تيمية(ت٧٢٨هـ) مثلاً يقرر قاعدة للوسطية تتناغم مع اعتقاده، إذ يرى أن ((الانحراف عن الوسط كثير في أكثر الأمور في أغلب الناس. مثل تقابلهم في بعض الأفعال يتخذها بعضهم ديناً واجباً أو مستحباً أو مأمورا به في الجملة. وبعضهم يعتقدها حراماً مكروهاً أو محرماً أو منهياً عنه في الجملة))[1].

ثم يخلص إلى نتيجة مفادها أن أهل السنة والجماعة هم أهل الوسط، كما أن الأمة وسط بين الأمم فيقول ((إن الفرقة الناجية –أهل السنة والجماعة – يؤمنون بذلك كما يؤمنون بما أخبر الله به في كتابه العزيز من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل؛ بل هم الوسط في فرق الأمة كما أن الأمة هي الوسط في الأمم. فهم وسط في باب صفات الله سبحانه وتعالى بين أهل التعطيل الجهمية[2]؛

(١) ابن تيمية، مجموعة الفتاوى، ٣/ ٣٥٧.

(٢) هم أتباع جهم بن صفوان، وهو من الجبرية الخالصة ظهرت بدعته بترمذ، وقتله مسلم بن أحوز المازني بمرو في أخر ملك بني أمية، وافق المعتزلة في نفي الصفات الأزلية وزاد عليهم بأشياء؛ إذ قال بالإجبار

وأهل التمثيل المشبهة[١]. وهم وسط في باب أفعال الله تعالى بين القدرية[٢]

والاضطرار إلى الأعمال، وأنكر الاستطاعات كلها وأن الجنة والنار تبيدان وتفنيان، وان الإيمان هو المعرفة بالله تعالى فقط، والكفر هو الجهل به فقط، كما أن لا فعل ولا عمل لأحد غير الله تعالى وإنما تنسب الأعمال إلى المخلوقين، وزعم أيضا أن علم الله تعالى حادث، وامتنع من وصف الله تعالى بأنه شيء أو حي أو عالم أو مريد، وقال: لا أصفه يجوز إطلاقه على غيره كشيء وموجود وحي وعالم ومريد ونحو ذلك، البغدادي، الفرق بين الفرق،ص ١٩٥-١٩٦؛ الشهرستاني، الملل والنحل، ١/ ٨٦.

(١) هم صنفان، صنف شبهوا ذات الباري بذات غيره، وصنف آخرون شبهوا صفاته بصفات غيره، وكل صنف من هذين الصنفين مفترقون على أصناف، منهم السبئية الذين سموا عليًّا إلها وشبهوه بذات الإله، ولما أحرق قوما منهم قالوا له الآن علمنا أنك إله؛ لأن النار لا يعذب بها إلّا الله، والبيانية أتباع بيان بن سمعان الذي زعم أن معبوده إنسان من ثور على صورة الإنسان في أعضائه وأنه يفنى كله إلّا وجهه، و المغيرية أتباع المغيرة بن سعيد العجلي الذي زعم أن معبوده ذو أعضاء، وأن أعضاءه على صور حروف الهجاء، ومنهم المنصورية أتباع أبي منصور العجلي الذي شبه نفسه بربه، وزعم أنه صعد إلى السماء، وزعم أيضا أن الله مسح يده على رأسه، وقال له يا نبي بلغ عني، و الخطابية الذين قالوا بإلهية الأئمة وبإلهية أبي الخطاب الأسدي، ومنهم الذين قالوا بإلهية عبد الله بن معاوية ابن عبد الله بن جعفر، و الحلولية الذين قالوا بحلول الله في أشخاص الأئمة، وعبدوا الأئمة لأجل ذلك، ومنهم الحلولية الحلمانية المنسوبة إلى أبي حكمان الدمشقي الذي زعم أن الإله يحل في كل صورة حسنة وكان يسجد لكل صورة حسنة، و المقنعية المبيضة بما وراء نهر جيحون في دعواهم أن المقنع كان إلها وأنه مصور في كل زمان بصورة مخصوصة، و العذاقرة الذين قالوا بإلهية ابن أبي العذاقر المقتول ببغداد.، البغدادي، الفرق بين الفرق، ص٢٠٦.

(٢) وهم الذين يقابلون المجبرة مقابلة النقيض لنقيضه، ويقولون بأن أفعال العباد مخلوقة لهم، من دون أن يكون لله أية دخالة في خلقها من قريب أو بعيد. أن القدرية هؤلاء، قد شنوا – ممثلين في شخصي مؤسسي فكرتهم غيلان الدمشقي، ومعبد الجهني – حربا لا هوادة فيها على الأمويين بالخصوص، حتى إن معبدا المذكور، قد اشترك مع عبد الرحمن بن الأشعث، عندما ثار على الأمويين، فقتله الحجاج. في حين أقذع غيلان الدمشقي، في سب الأمويين وشتمهم، شمس الدين، دراسات في العقيدة الإسلامية، ص٣٦.

والجبرية[١]، وفي باب وعيد الله بين المرجئة[٢] والوعيدية: من القدرية، وغيرهم وفي باب أسماء الإيمان والدين بين الحرورية[٣] والمعتزلة، وبين المرجئة والجهمية وفي أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بين الروافض والخوارج))[٤]، ولعل الملاحظ أن ابن تيمية قد كيف ووظف هذا المفهوم الاعتدالي المتوازن ليحوله إلى مفهوم تطرف وتكفير، حتى أصبح أداة عزل وتمييز سلبي تعكس النظرة القاصرة المتطرفة التي أحرزت الآثار الكارثية على المجتمعات الإسلامية، إذ وظف مفهوم الوسط توظيفًا فكرياً وتطوعياً لأيدلوجية الشخص دون التركيز على حقيقية الطرح القرآني في هذا المجال، فهو يركز على وصف كل مخالفيه بحالة التطرف ويجعل نفسه وما يعتقد هو الوسط، والغرض منه تحقيق المكاسب وإرساء ركائز المقبولية لما يعتقد، وهو في الوقت نفسه ينم عن حالة تطرفية لا تنتمي للوسطية.

في حين حاول بعضهم تحقيق مكاسب إثباتية لمبادئه العقائدية عن طريق

---

(١) الجبر هو نفي الفعل حقيقة عن العبد وإضافته إلى الرب تعالى، والجبرية أصناف فالجبرية الخالصة هي التي تثبت للعبد فعلا ولا قدرة على الفعل أصلا، والجبرية المتوسطة هي التي تثبت للعبد قدرة غير مؤثرة أصلا فأما من أثبت للقدرة الحادثة أثرا ما في الفعل وسمي ذلك كسبا فليس بجبري، الشهرستاني، الملل والنحل، ١/ ٨٥.

(٢) الأرجاء على معنيين أحدهما بمعنى التأخير كما في قوله تعالى: (قالوا أرجه وأخاه)، الأعراف/ ١١١. أي أمهله وأخره، والثاني إعطاء الرجاء. أما إطلاق اسم المرجئة على الجماعة بالمعنى الأول فصحيح لأنهم كانوا يؤخرون العمل عن النية والعقد، وأما بالمعنى الثاني فظاهر، فإنهم كانوا يقولون لا تضر مع الإيمان معصية كما لا تنفع مع الكفر الطاعة، الشهرستاني، الملل والنحل، ١/ ١٩٣.

(٣) وهم الخوارج سموا حرورية؛ لأنهم انحازوا إلى حرور بعد أن رجع الإمام علي عليه السلام من صفين إلى الكوفة، وكان عددهم اثنا عشر ألفاً، وكان قائدهم وقتئذ عبد الله بن الكواء وشبث بن ربعي، البغدادي، الفرق بين الفرق، ص٨٠.

(٤) ابن تيمية، مجموعة الفتاوى، ٣/ ١٤١.

تكييف وتوظيف الوسطية، وهم الأشاعرة والمعتزلة، إذ جعلوا من آية الوسطية دليلاً أخر على حجية الإجماع، فشرح الرازي هذه الآية، وبغض النظر عن صوابه فإنه يلفت الانتباه إلى الاستثمار المذهبي الواسع لمفهوم الوسطية ووظيفتها التاريخية[1] وفي هذا الإطار يقول: ((احتج جمهور الأصحاب وجمهور المعتزلة بهذه الآية على أن إجماع الأمة حجة فقالوا: أخبر الله تعالى عن عدالة هذه الأمة، وعن خيريتهم فلو أقاموا على شيء من المحظورات لما اتصفوا بالخيرية، وإذا ثبت أنهم لا يقدمون على شيء من المحظورات وجب أن يكون قولهم حجة، فإن قيل: الآية متروكة الظاهر، لأن وصف الأمة بالعدالة يقتضي اتصاف كل واحد منهم بها وخلاف ذلك معلوم بالضرورة، فلا بد من حملها على البعض فنحن نحملها على الأئمة المعصومين، سلمنا أنها ليست متروكة الظاهرة لكن لا نسلم أن الوسط من كل شيء خياره، والوجوه التي ذكرتموها معارضة بوجهين. الأول: أن عدالة الرجل عبارة عن أداء الواجبات واجتناب المحرمات وهذا من فعل العبد، وقد أخبر الله تعالى أن جعلهم وسطاً فاقتضى ذلك أنّ كونهم وسطاً من فعل الله تعالى، وذلك يقتضي أن يكون كونهم وسطاً غير كونهم عدولاً وإلّا لزم وقوع مقدور واحد بقادرين وهو محال. الثاني: أن الوسط اسم لما يكون متوسطاً بين شيئين، فجعله حقيقة في العدالة والخيرية يقتضي الاشتراك وهو خلاف الأصل، سلمنا اتصافهم بالخيرية ولكن لِمَ لا يكفي في حصول هذا الوصف الاجتناب عن الكبائر فقط، وإذا كان كذلك احتمل أن الذي اجمعوا عليه وإن كان خطأ لكنه من الصغائر فلا يقدح ذلك في خيريتهم))[2].

(١) محمد جبرون، نحو فقه جديد لمفهوم الوسطية.

http//:tawary.com/article_ar_impr.php?id_article2095=.

(٢) تفسير الرازي، ٤/ ١١٠.

إن الصراع الفكري انسحب حتى على مفهوم الوسطية ذلك المفهوم الشفاف الذي لا يحتمل تلك التأويلات المذهبية التي أخرجته عن محتواه، فمسألة العدالة هي ترجمة للوسطية من حيث التناغم والدلالة، وينبغي الانطلاق من هذا التناغم في طرح المسائل العقائدية وليس الانطلاق من التصورات المذهبية وقياس العدالة والوسطية عليها.

ونجد هناك من عّد الوسطية درجات ومراتب، وأعلى هذه المراتب مرتبة الأولياء العارفين بالله التي تخول لهم الشهادة على علماء الظاهر، فيقول ابن عجيبة وهو أحد رجالات التصوف المغاربة (فكما أن الأمة المحمدية تشهد على الناس، والرسول يشهد عليهم ويزكيهم، فكذلك العلماء يشهدون على الناس، والأولياء يشهدون على العلماء، فيزكون من يستحق التزكية، ويردون مَن لا يستحقها؛ لأن العارفين بالله عالمون بمقامات العلماء أهل الظاهر، لا يخفى عليهم شيء من أحوالهم ومقاماتهم، بخلاف العلماء، لا يعرفون مقامات الأولياء، ولا يشمون لها رائحة))[1]. وقد انطلق المتصوفة في هذا التفسير من منطلق التوجيه الفكري الذي يتبنى مقياس الزهد والتصوف والذي ربما ينطبق على العلماء شأنهم شأن الأولياء مما يدل على التكييف والتوظيف المقصود.

وخصص بعضهم الأمة الوسط بأئمة أهل البيت (عليهم السلام)؛ لأن الوسط الوارد في الآية: ﴿**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً**﴾[2] يعني عدلًا وواسطة بين الرسول والناس[3]، حتى قيل ((إن الوسط هو العدل والخيار، والعدل والخيار لا يصدر

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، ١/ ١٧٥.

(٢) البقرة/ ١٤٣.

(٣) الكاشاني، التفسير الصافي، ١/ ١٩٦-١٩٧.

عنه إلّا الحق، والإجماع صادر عن هذه الأمة، العدول الخيار فليكن حقا، وهذه الدلالة لو تمت للآية، فهي لا تزيد على أكثر من إثبات العدالة لهم لا العصمة، والذي ينفع في المقام إنما هو إثبات العصمة لهم لا العدالة، ليتم حكايتها عن الحكم الواقعي. إذ العدل لا يمتنع صدور غير الحق منه ولو فرض فإنما يلزم صدور الحق منه بطريق الظاهر فيما طريقه الصدق والكذب، وهو نقل الأخبار وأداء الشهادات، أما فيما طريقه الخطأ والصواب في استخراج الأحكام والاجتهاد فيها فلا))[1].

وربما يتناغم هذا الطرح مع المفهوم المعنوي الذي يخرج عن اطار الجانب العبادي فقط، ويدخل في المفهوم والمعنى الذي ذكرناه، والذي يميز الوسطية كمفهوم للعدالة الذي انسجم هنا مع مقام العصمة كدلاله تعبيرية حاسمة لمقام الوسطية.

وقد نجد أن الترجمة الفعلية لهذا المنطق هو ما طرح من أن الوسطية هي وضع كل شيء في محله في قول الغزالي: ((قيل الجود عطاء على رؤية أن المال لله تعالى، والعبد لله عز وجل، فيعطى عبد الله مال الله ؟... فالإمساك حيث يجب البذل بخل، والبذل حيث يجب الإمساك تبذير،وبينهما وسط وهو المحمود، وينبغي أن يكون السخاء والجود عبارة عنه، إذ لم يؤمر رسول الله صلَّى الله عليه [وآله]وسلم إلّا بالسخاء. وقد قيل له: ﴿**ولا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إلى عُنُقِكَ ولا تَبْسُطْها كُلَّ الْبَسْطِ**﴾[2]، وقال تعالى ﴿**والَّذِينَ إِذا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا ولَمْ يَقْتُرُوا وكانَ بَيْنَ ذلِكَ قَواماً**﴾[3]. فالجود وسط بين

(١)الحكيم، الأصول العامة للفقه المقارن، ص٢٦٠.

(٢) الإسراء / ٢٩.

(٣) الفرقان / ٦٧.

الإسراف والإقتار، وبين البسط والقبض. وهو أن يقدر بذله وإمساكه بقدر الواجب، ولا يكفي أن يفعل ذلك بجوارحه، ما لم يكن قلبه طيبا به، غير منازع له فيه. فإن بذل في محل وجوب البذل، ونفسه تنازعه، وهو يصابرها فهو متسخ. وليس بسخي. بل ينبغي أن لا يكون لقلبه علاقة مع المال، إلّا من حيث يراد المال له، وهو صرفه إلى ما يجب صرفه إليه))[1].

ما طرحة الغزالي هو الجانب الذي يعنينا من المفهوم؛ لأنه خرج عن الإطار العقائدي البحت ليرسم صورة الوسطية الشمولية التي تتحكم فيها المعاني من الموازنة بين الإمساك والتبذير وبين البسط والقبض، والجود والبخل وغير ذلك.

و نجد أن الوسطية أُضِيفت لها مصطلحات ومعاني حديثة، فقد توسع سيد قطب في دلالة الوسط بإضافة المفردات والمعاني الحديثة حينما أشار إلى الشمولية الوسطية، فالوسطية عنده بمعنى الحسن والفضل، أم من الوسط بمعنى الاعتدال والقصد، أم من الوسط بمعناه المادي الحسي[2] ويرى أيضا ضرورة فهم الوسطية على أنها الوسط في المفاهيم المعنوية كافة والتي يمكن أن نجملها بما يأتي:

أولاً: الوسطية هي الموازنة بين التصور والاعتقاد، فلا تغلو في التجرد الروحي ولا في الارتكاس المادي وإنما تتبع الفطرة[3].

ثانيا: التوازن والوسطية في التفكير والشعور، وعدم التعصب وغلق منافذ التجربة والمعرفة[4].

(١) الغزالي، إحياء علوم الدين، ١٠/ ٥١-٥٢.

(٢) سيد قطب، في ظلال القرآن، ٢/ ١٣١.

(٣) في ظلال القرآن، ٢/ ١٣١.

(٤) المصدر نفسه.

ثالثاً: التوازن في التنظيم والتنسيق والوسطية في المشاعر والضمائر [١].

رابعاً: تحقيق الوسطية في الارتباطات والعلاقات التي لا تلغي شخصية الفرد ومقوماته، ولا تلاشي شخصيته في شخصية الجماعة أو الدولة؛ ولا تطلقه كذلك فرداً أثراً جشعاً لا همَّ له إلّا ذاته، وإنما تطلق من الدوافع والطاقات ما يؤدي إلى الحركة والنماء، وتطلق من النوازع والخصائص ما يحقق شخصية الفرد وكيانه. ثم تضع من الكوابح ما يقف دون الغلو[٢].

خامساً: الوسطية المكانية والزمانية والتي مثلتها الأمة الإسلامية، فهي أمة وسط في المكان في سرة الأرض، وفي أوسط بقاعها، وما تزال هذه الأمة إلى الآن هي الأمة التي تتوسط أقطار الأرض بين شرق وغرب، وجنوب وشمال وأمة وسط في الزمان [٣].

وقد عدت الوسطية مثالاً للتقابل والتضاد في بعض المفاهيم كالربانية والإنسانية، الروحية والمادية، الأخروية والدنيوية، الوحي والعقل، الماضوية والمستقبلية، الفردية والجماعية، الواقعية والمثالية، الثبات والتغير[٤]، غير أن هذه المفاهيم لا تتقابل وتتضاد في كل الأحوال، وإنما هي أمر نسبي، فمثلاً الفردية والجماعية قد تخضع للقلة المؤمنة على حساب الكثرة المنحرفة، والأمر ينطبق على الماضوية والمستقبلية ومستوى الإنجاز وتوافر المقومات.

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) في ظلال القرآن، ٢/ ١٣١ – ١٣٢.

(٣)المصدر نفسه.

(٤) القرضاوي، كلمات في الوسطية، ص١٣.

ثالثاً: المفهوم النامي للوسطية في المنظور الإسلامي.

إن دراسة المفهوم النامي للوسطية في المنظور الإسلامي هو لبيان الحاكمية على ما ذكرناه من رؤى وتصورات سابقة، ومن ثم جعل هذا المنظور المقياس التفاضلي الحقيقي أمام كل الدعوات والنظريات التي تبنت الوسطية واتخذت لديها تعريفات متعددة؛ إذ نجد أن القرآن الكريم قد رسم المنهج ووضع أسسه وجميع جوانبه سواء عقيدة كان أم عملاً وسلوكاً، فليس هناك اختلاف في أن القرآن الكريم جامع ذاكر لكل شيء، ومنها الوسطية؛ إذ ذُكرت كلمة وسط ومشتقاتها في القرآن الكريم في العديد من الآيات التي نستطيع عن طريقها التعرف على معاني ومدلولات الوسطية.

ومن هذا المنطلق حين يصف القرآن الكريم الأمة بالوسط فهو في الحقيقة يبين غاية الوسط وإرجاعه إلى معناه ودلالاته وهو العدل، فيقول سبحانه وتعالى: ﴿**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً**﴾[١] وبغض النظر من هي الأمة المقصودة بالوسط، فهي ليست موضوع بحثنا إلّا أن معنى الوسط هنا هو العدل كما جاء عن لسان الرسول محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) في تفسير الآية قال: الوسط العدل[٢].

إنَّ أحد معايير أو معاني الوسطية أو معانيها في الفهم القرآني هو الاعتدال من دون إفراط وتفريط، ويمكن القول إن ما جاء من معنى للوسطية هنا الاعتدال يقابل المعنى المادي لها أي الوسط بعينه الذي تشير إليه الآية ﴿**حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ**﴾[٣].

---

(١) البقرة/ ١٤٣.

(٢) ابن حنبل، مسند أحمد، ٣/ ٣٢؛ البخاري، صحيح البخاري، ٢/ ١٥١؛ المتقي الهندي، كنز العمال، ٢/ ٤.

(٣) البقرة/ ٢٣٨.

كما أن الأفضلية مدلول ومعنى آخر للوسطية في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾[١]، الذي اتفق فيه المفسرون على أن المقصود بأوسطهم أعدلهم وأفضلهم[٢]، وعلى هذا فإن الوسط هنا حمل معنى العدل والأفضلية والخيرية وهو المدلول والمفهوم الآخر الذي يمكن أن نخرج به لمعنى الوسطية في التصور القرآني.

كذلك قوله تعالى:﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾[٣] الذي يحمل ذات الدلالة، فالصلاة الوسطى أي المتوسط سواء المقصود بها صلاة الظهر لتوسطها بين صلاة الغداة أم العصر[٤] أم صلاة العصر المتوسطة بين صلاتين من النهار وصلاتين من الليل[٥]، أو الرأي الثالث القائل إنها صلاة الفجر المتوسطة بين صلاتي الليل والنهار التي تؤدى قبل طلوع الصبح وقبل طلوع الشمس، فلا تكون الظلمة تامة ولا الضوء تام[٦].

ومن ثم فإن جميع الآراء تؤدي إلى نتيجة ومعنى أن الوسطى هنا هي المتوسطة بين طرفين، وهذا الوسط أفضل بدليل أن الآية القرآنية ذكرت تعميماً بالمحافظة على الصلوات، وتخصيصاً بالصلاة الوسطى.

---

(١) القلم / ٢٨.

(٢) القمي، تفسير القمي، ٢/ ٣١٨؛ الرازي، تفسير الرازي، ٣٠/ ٩٠؛ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ٤/ ٤٣٣؛ الكاشاني، التفسير الصافي، ٥/ ٢١٢؛ الطباطبائي، تفسير الميزان، ١٩/ ٣٧٥.

(٣) البقرة / ٢٣٨.

(٤) ينظر: العياشي، تفسير العياشي، ١/ ١٢٧؛ الطباطبائي، تفسير الميزان، ٢/ ٢٥٨-٢٥٩.

(٥) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ٢/ ٧٥٤.

(٦) الرازي، تفسير الرازي، ٦/ ١٥٨.

في حين كان المفهوم المكاني الدلالة والمعنى الآخر للوسطية قوله تعالى: ﴿**فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا**﴾[١] التي ذكر المفسرون أن معناها التوسط في المكان[٢]، وسطن بركبانهم العدو أو جمع القوم، وهذا المدلول أو المفهوم المادي للوسطية التوسط أو الوسط المكاني بين طرفين.

ثم ينقلنا القرآن الكريم إلى مرحلة أخرى من الوسطية، وهي مرحلة تطبيقاتها في مختلف المجالات، ومنها المجال العبادي في الاعتقاد والتشريع؛ إذ قال تعالى: ﴿**اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ**﴾[٣]، فالصراط المستقيم وسط بين الطرفين اليمين والشمال المضلين، وهم المغضوب عليهم والضالين، وهما منهجان دائران بين الغلو والجفاء؛ لأن المغضوب عليهم تفريط، والضالين إفراط[٤]، ومن ثم فإن الانحراف عن طريق الوسط والاعتدال تكون النتيجة أحد هذين السبيلين، وكما يقول تعالى مصداقاً لذلك: ﴿**وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾[٥].

كما يؤكد القرآن الكريم على التزام الوسط بين الإفراط والتفريط في فهم العبادة، فينقض الفهم السلبي الأحادي ويؤكد على المفهوم الوسطي في قوله تعالى: ﴿**وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا**

(١) العاديات / ٥.

(٢) الصنعاني، تفسير القرآن، ٣/ ٣٩٠؛ الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ٣٠/ ٣٥٢؛ القمي، تفسير القمي، ٢/ ٤٣٩؛ البغوي، معالم التنزيل في تفسير القرآن، ٤/ ٥١٨.

(٣) الفاتحة / ٦-٧.

(٤) الصلابي، الوسطية في القرآن الكريم، ص١٦٣.

(٥) الأنعام / ١٥٣.

﴿أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ﴾[١]، فهذه الآية توضح أسس المنهج الوسطي لا ترك الدنيا واتباع الرهبنة والتزهد، ولا استغراق في طلب ملذات الدنيا إنما التوسط بينهما، كما أن هذه الآية دليل على أن ترك التوسط والاعتدال يؤدي إلى فساد في الأرض[٢].

ويقدم القرآن الكريم تطبيقاً آخر للوسطية في العبادة في قوله: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾[٣]، إذ إن الأساس هو الابتعاد بين ذلك سبيلا، من غير زيادة ولا نقصان في القراءة في الصلاة، أي الموازنة وعدم الميل على الطرف اليمين أو الشمال، وإنما جادة الوسط وبها تتحقق النتائج الإيجابية المرجوة.

ولم يكتف القرآن الكريم ببيان الوسطية في العبادة، بل أشار إلى نواحي الحياة الأخرى للفرد، بما في ذلك التزام منهج التوسط والاعتدال في الطعام وعدم تجاوز الحد إلى الإفراط والإسراف في الأكل والشرب، قال تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾[٤]، وكذلك التوسط في المشي بين الطرفين المذمومين الإسراع والدبيب[٥] في قوله تعالى: ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ أَنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾[٦]، فالقصد في اللغة بين الإسراف والتقتير[٧].

والأمر ينطبق على أمور المعاملات التي لم يغفلها القرآن الكريم، بل أشار إلى

---

(١) القصص / ٧٧.

(٢) بازمول، أدلة الوسطية من القرآن العظيم والسنة النبوية، ص٨.

(٣) الإسراء / ١١٠.

(٤) الأعراف / ٣١.

(٥) ينظر: الرازي، تفسير الرازي، ٢٥/ ١٥٠؛ الكاشاني، التفسير الصافي، ٤/ ١٤٦.

(٦) لقمان / ١٩.

(٧) ينظر: الرازي، مختار الصحاح، ص٢٧٧.

المعاملات المادية الاقتصادية، فمنه قوله تعالى في كتابه: ﴿**الَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا**﴾[١]، وقوله تعالى ﴿**وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا**﴾[٢]، بالنتيجة أن المفهوم القرآني يقدم مجالاً أخر من مجالات تطبيق الوسطية وهو الجانب الاقتصادي، مع العلم أن شمول الوسطية لكل المجالات بما فيها الاقتصادية ليس اعتباطاً وإنما قائمٌ على فلسفة يذكرها القرآن في قوله المتقدم: ﴿**فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا**﴾، فالمقتصد قد أخذ بالوسط وعدل عن طرفيه الإسراف والتقتير[٣] المذمومين ﴿**وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾[٤]، ﴿**وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ**﴾[٥]، وكلها ملامح قرآنية تأسيسية الهدف منها خلق نوع من الموازنة في مجالات الحياة كافة.

والسنة النبوية شأنها شأن القرآن الكريم وضحت في البداية معنى الوسطية سواء المعنى المعنوي عندما سُئل الرسول محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) عن معنى كلمة (وسطا) قال تعني العدل[٦]، أم المعنى المادي للكلمة في قوله (صلى الله عليه وآله وسلم): ((**فإذا سألتم الله عز وجل فسلوه الفردوس، فإنها أوسط الجنة، وأعلى الجنة وفوق عرش الرحمن عز وجل، ومنه تفجر أنهار الجنة**))[٧].

(١) الفرقان / ٦٧.

(٢) الإسراء / ٢٩.

(٣) بازمول، أدلة الوسطية من القرآن العظيم والسنة النبوية، ص٨.

(٤) الحشر / ٩.

(٥) الإسراء / ٢٦-٢٧.

(٦) ابن حنبل، مسند أحمد،٣/ ٣٢؛ البخاري، صحيح البخاري، ٢/ ١٥١؛ المتقي الهندي، كنز العمال، ٢/ ٤.

(٧) ابن حنبل، مسند أحمد، ٢/ ٣٣٩؛ البخاري، صحيح البخاري، ٣/ ٢٠٢؛ البيهقي، السنن الكبرى، ٩/ ١٦-١٧.

أما فيما يتعلق بتطبيقات الوسطية، فإننا نجد النصوص الشرعية تؤطر معنى الوسطية، وتؤكد أهميتها ودورها في كل ما يتعلق بالفرد؛ لأن الوسطية كما عرفنا هي البوصلة التي تحدد اتجاه الفعل الإنساني، وتسدد الفكر والسلوك، كما يقول الرسول محمد ﷺ ((**فسددوا وقاربوا واغدوا وروحوا وشيء من الدلجة**[١] **والقصد القصد تبلغوا**))[٢]، والقصد العدل، وهو الوسط في الأمور[٣]، ويوضح الرسول محمد ﷺ الفلسفة من التأكيد على سلك مسلك القصد في كل الأمور سواء كان قولا أم فعلاً؛ لأنها تؤدي إلى النتيجة المحمودة الوصول إلى المقصود، والانتهاء إلى المطلوب بالابتعاد عن طرفي الإفراط والجفاء، ويقول ﷺ أيضا في ذات المعنى: ((**إذا أراد الله تبارك وتعالى بأهل بيت خيرا، فقههم في الدين، ورزقهم الرفق في معائشهم، والقصد في شأنهم**))[٤].

ولأهمية المسألة وهي القصد بالاعتدال والتوسط في كل الأمور دون إفراط أو تفريط؛ نجد أن الرسول محمد ﷺ يكرر التأكيد على القصد ثلاث مرات عندما رأى رجلاً يكثر الركوع والسجود[٥]، فقال له: عليكم هديا قاصدا (ثلاث

(١) الدلجة: سير السحر، ابن منظور، لسان العرب، ٢/ ٢٧٢.

(٢) ابن حنبل، مسند أحمد، ٢/ ٥١٤؛ البخاري، صحيح البخاري، ٧/ ١٨٢؛ الهيثمي، مجمع الزوائد، ١٠/ ٣٥٦.

(٣) ابن منظور، لسان العرب، ٣/ ٣٥٣.

(٤) القاضي النعمان، دعائم الإسلام، ٢/ ٢٥٥؛ وينظر: الراوندي، النوادر، ص٢٧٦؛ النوري الطبرسي، مستدرك الوسائل، ٨/ ٣٩٢.

(٥) ربما يسأل سائل أن أهل البيت عليهم السلام على وفق هذا الحديث قد عارضوا قول الرسول محمد ﷺ لأنهم وكما عُرف عنهم كانوا كثيري السجود والركوع حتى أطلق على الإمام موسى الكاظم عليه السلام صاحب السجدة الطويلة، لكن يمكن القول إن ما عرف عنهم من كثرة الركوع والسجود صحيحة لكن من دون إفراط أو تفريط أي بالمعنى أن مع كثرة صلاتهم وركوعهم وسجودهم

مرات) فإنه من يشاد الدين يغلبه[١]، ونظير ذلك قوله صلى الله عليه وآله وسلم: (ثلاث منجيات، فذكر الثالث القصد في الغنى والفقر)، في مقابل الأمر المعاكس وهو الإسراف؛ إذ ذكر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أن المسرف لا يستجيب الله له دعاءه بالرزق؛ لأنه لم يقتصد[٢].

أما فيما يخص الأئمة عليهم السلام، فنجد أن أهل البيت عليهم السلام، ولا سيما الإمام علي عليه السلام، والإمام الصادق عليه السلام كان لهم دور في توعية المجتمع وتثقيفه للوسطية وفوائدها، والإفراط والتفريط كالبخل مثلاً أو الإسراف ومضارهما من ناحية وبيان حد كل منهما من ناحية أخرى، فنجد مثلاً أن أبا عبد الله عليه السلام بَيَّن ذلك في إحدى المناسبات عندما سأله أحدهم: ((إنا نكون في طريق مكة فنريد الإحرام فنطلي ولا تكون معنا نخالة نتدلك بها من النورة، فنتدلك بالدقيق وقد دخلني من ذلك ما الله أعلم به، فقال: أمخافة الإسراف ؟ قلت: نعم، فقال: ليس فيما أصلح البدن إسراف، إني ربما أمرت بالنقي فيلت بالزيت فأتدلك به، إنما الإسراف فيما أفسد المال وأضر بالبدن قلت: فما الاقتار ؟ قال: أكل الخبز والملح، وأنت تقدر على غيره، قلت: فما القصد ؟ قال: الخبز واللحم واللبن والخل والسمن مرة هذا ومرة هذا))[٣]. وهنا حدد الإمام عليه السلام حدود الإسراف وحدود الإقتار ومتى يكون التوسط؟ قصد لا إسراف ولا إقتار، لذا نجده في مناسبة أخرى يقول عليه السلام: ((**أدنى ما يجيئ من حد الإسراف ؟ فقال: إبذالك ثوب صونك، وإهراقك فضل إنائك**

مارسوا الحياة اليومية من زواج، وتربية الأولاد، وغيرها من الأمور التي تتطلبها الحياة الدنيوية من غير أن يطغى جانب لديهم على الآخر فيوسموا بالأفراط والتفريط.

(١) ابن حنبل، مسند أحمد، ٤/ ٤٢٢؛ ابن خزيمة، صحيح بن خزيمة، ٢/ ١٩٩؛ الحاكم النيسابوري، المستدرك، ١/ ٣١٢؛ البيهقي، السنن الكبرى، ٣/ ١٨.

(٢) ينظر: الكافي، الكليني، ٥/ ٦٧.

(٣) الكليني، الكافي، ٤/ ٤٥-٥٥؛ الطبرسي، مكارم الأخلاق، ص٥٨.

وأكلك التمر ورميك النوى ههنا وههنا))[١]، وهذا المنطلق هو رسم للضوابط والمحددات التي يمكن أن يكون الفرد متفاعل معها وفق ثقافته التي أراد الإمام عليه السلام تنميتها.

وكان لأهل البيت عليهم السلام دور في توعية المجتمع للفوائد المترتبة على الوسطية والاقتصاد، فعن علي بن الحسين عليه السلام أنه قال: ((**لينفق الرجل بالقصد وبلغة الكفاف ويقدم منه فضلا لآخرته، فإن ذلك أبقى للنعمة وأقرب إلى المزيد من الله عز وجل وأنفع في العافية**))[٢]، فالاقتصاد، والتوسط، والاعتدال في النفقة تؤدي إلى تحقيق ثلاثة أبعاد كما في قول الإمام عليه السلام وهي:

بُعدٌ مادي: الاقتصاد في الإنفاق من دون إسراف أو إقتار يؤدي إلى تحقيق تنمية مستدامة للأموال.

بُعدٌ عبادي: أن الاقتصاد يؤدي إلى القرب من الله عز وجل، فهو يؤدي به واجبه في الدين والدنيا من ناحيتين: الأولى أن الله سبحانه وتعالى أمر بالاقتصاد وبذلك، فإن المقتصد طبق المنهج الإسلامي والأوامر الإلهية، و الثانية أن المقتصد أعطى حق الله في أمواله لم يسرف، ولم يقتر حتى يمنع الحقوق المترتبة على الأموال.

بُعدٌ صحي: يبينه الإمام عليه السلام في قولة أن الاقتصاد والكفاف أنفع في العافية.

الفائدة الأخرى التي يمكن أن تتحقق من الاقتصاد في الإنفاق تجنب الافتقار

(١) الكليني، الكافي، ٤/ ٦٥؛ المجلسي، مرآة العقول في شرح أخبار آل الرسول، ١٦/ ١٨٧.

(٢) الكليني، الكافي، ٤/ ٥٢؛ الكاشاني، الوافي، ١٠/ ٤٩٥؛ المجلسي، مرآة العقول في شرح أخبار آل الرسول، ١٦/ ١٨٣.

كما يقول أبو عبد الله عليه السلام: ((**ضمنت لمن اقتصد أن لا يفتقر**))[١]، وعن الإمام أبي الحسن موسى الكاظم عليه السلام: ((**الرفق نصف العيش وما عال امرؤ في اقتصاده**))[٢]، وفي العكس من ذلك فإن الإمام أبا عبد الله عليه السلام يوضح أن الإفراط والتفريط في الأموال وإسرافها يؤديان إلى الفقر يقول عليه السلام: إن السرف يورث الفقر، وإن القصد يورث الغنى)[٣].

وبذلك فإن الرفق والاقتصاد يحققان مفهوم الوسطية؛ لأنهما لا إفراط ولا تفريط فيمنعان الفقر، وبهذا فإن أهل البيت عليهم السلام قدموا نتائج وضمانات للمجتمع بأن من يطبق مفهوم الاقتصاد لا تتوقف عنده عجلة تنمية الأموال واستدامتها، مع العلم أن زيادة الأموال واستدامتها هي ليست بقضايا الاعتباطية، وإنما نتائج إلهية حتمية إن صح القول، دليل ذلك القول الذي ينقله أبو عبد الله عليه السلام عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: ((**من اقتصد في معيشته رزقه الله، ومن بذر حرمه الله**))[٤]، وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: أربعة لا يُستجاب لهم، أحدهم كان له مال فأفسده، فيقول: يا رب ارزقني، فيقول الله عز وجل: ألم آمرك بالاقتصاد[٥]، فعدم استجابة الدعاء بالرزق هو نتيجة حتمية للتقصير والإفراط.

---

(١) الكليني، الكافي، ٤/ ٥٣؛ الصدوق، الخصال، ص١٠.

(٢) الكليني، الكافي، ٢/ ١٢٠؛ المجلسي، مرآة العقول في شرح أخبار آل الرسول، ٨/ ٢٤١.

(٣) الكليني، الكافي، ٤/ ٥٣؛ الكاشاني، الوافي، ١٠/ ٤٩٧؛ المجلسي، مرآة العقول في شرح أخبار آل الرسول، ١٦/ ١٨٤.

(٤) الكليني، الكافي، ٤/ ٥٤.

(٥) الكليني، الكافي، ٤/ ٥٦؛ المجلسي، مرآة العقول في شرح أخبار آل الرسول، ١٦/ ١٨٨؛ البروجردي، جامع أحاديث الشيعة، ١٧/ ١١٣.

لقد ترجم الإمام علي عليه السلام مفهوم الوسطية بمعناها الإسلامي النامي الهادف وقدمها بصورتها الشفافة التي تتناغم مع الطرح القرآني والنبوي والتي تترتب عليها أثار تثقيفية وإصلاحية تمثل الفلسفة الواعية للدين كما سنرى في الفصول اللاحقة.

الفصل الأول

المسارات التكاملية
في الاعتقاد والفكر

توطئة

تمثل المسارات الاعتقادية في فكر الإمام علي عليه السلام مصداقاً مميزاً للوسطية التكاملية التي تتبلور في العديد من الجوانب المتعقلة بهذا الإطار، فمن الجلي والمسلم به أن العقيدة الإسلامية تمثل قمة المسار الوسطي، فهي وسط بين الغلو والجفاء، والإفراط والتفريط، والزيادة والنقصان، وإذا ما عرفنا أن الوسطية في الإسلام ليست مجرد طرح نظري أو نظرية قابلة للتطبيق أو عدمه خاضعة للأهواء، بل هي قانون ومنهج ونظام إسلامي متكامل لابد من العمل به قال تعالى: ﴿**وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ أن اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِين**﴾[1] وقال: ﴿**قُلْ يَا أهل الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ**﴾[2] أدركنا أن التطرف والتعصب أمران يعارضهما الدين الإسلامي بأي شكل من الأشكال ولأي سبب كان.

ومن خلال نهج البلاغة يمكن فهم الوسطية الاعتقادية في فكر الإمام علي عليه السلام، فالإمام عليه السلام أظهر فهماً سلياً شاملاً تكاملياً لمسارات الوسطية الاعتقادية من أجل إعادة صياغة الفكر الإسلامي التوحيدي، بسبب تسرب الأفكار الدخيلة والصراع الفكري، ولكونها منطلقاً لبناء الإنسان، فركز على الوسطية الاعتقادية بل أبرزها بشكل جلي؛ لأن كل ما يصون الإنسان من الانحراف والشطط ويدفع به إلى ملكوت الله تتخذ عند الإمام نسقا فلسفياً متكاملاً منظماً لبناء الإنسان

(١) القصص/ ٧٧.

(٢) المائدة / ٧٧.

القريب من الكمال، وإذا ما درسنا جزئياتها وجدنا أنها تكاملية ولها آثار ونتائج هذا من ناحية، وليست مرحلية محدودة الزمان والمكان، لأنه كما قلنا أن الوسطية منهج، من ناحية أخرى، وهي ذاتها في النظام الإسلامي أي بمعنى أن فكر الإمام علي عليه السلام لا يعارض أو يخالف الثابت الإسلامي بل هو ذاته من ناحية ثالثة.

المبحث الأول

الفكر العقائدي ومساراته الوسطية

الفكر العقائدي عند الإمام علي عليه السلام لا يقل منزلة وأهمية عن الجانب الاعتقادي، بل نال حيزاً كبيراً في نهج البلاغة؛ لارتباطه بالانحراف الذي حصل في فكر الأمة، ولشموليته لجميع مباني العقيدة التي بُني عليها الإسلام، لأن الناحية التشريعية المرتبطة بحياة الإنسان هي التي جعلته ذا مكانة مهمة، واهتمام الإمام علي عليه السلام بها، لأن الانحراف عنها له نتائجه الخطيرة جداً، والتمسك فيها أيضا له نتائجه الإيجابية، وهذا مصداقه في قولة تعالى في خطابه إلى الجن، ويستفاد من سياق الآية أنه للجن والإنس لاسيما أنّه خاطب به النبي صلى الله عليه وآله وسلم[1] قال: ﴿**وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا**﴾[2]. فالاستقامة على الإيمان والتقوى اللذين هما أساس العقيدة الإسلامية من غير انحراف لهما نتائجهما الإيجابية في الثواب الدنيوي الذي يمثل الطريقة المثلى لذلك، فوجود الماء يعني وجود كل شيء[3]، في مقابل الذين انحرفوا عن الطريق المستقيم؛ لكونهم حطباً لجهنم نتيجة انحرافهم عن الطريق المستقيم أو الطريق الأمثل من بين الطرق المنحرفة، فالإمام علي عليه السلام ينطلق ويثقف المجتمع البشري على هذا الأساس، أساس الطريق الأمثل الطريق المستقيم المتوسط بين الطرق المضلة، ليس في الجانب العقائدي فحسب وإنما في كل الجوانب، ويتمحور الفكر العقائدي ومساراته الوسطية في فكر الإمام علي عليه السلام بمحاور عدة:

---

(١) ينظر: الطباطبائي، تفسير الميزان، ٢٠/ ٣٧-٣٨.

(٢) الجن/ ١٤-١٦.

(٣) الشيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ١٩/ ٩٣.

١ـ الاعتقاد المعرفي في سياقة التكاملي.

إن الله سبحانه وتعالى أودع في كل البشرية عن طريق فطرتهم معرفة الله[١]، فالمعرفة بالله قرينة وجود الإنسان، بدليل قول الرسول ﷺ: ((**كل مولود يولد على الفطرة، يعني المعرفة بأن الله عز وجل خالقه**))[٢]، ثم تأتي المرحلة الثانية من المعرفة بالله سبحانه وتعالى عن طريق الفكر والتفكر إلّا أن مقدار هذه المعرفة يختلف من شخص لآخر، فتظهر عليه أثارها العملية.

فثم مسار مفتوح بين الله سبحانه والإنسان، يمثل رحلة معرفية وتعبدية تجمع الله والعبد في علاقة ترتفع خلالها ذات الإنسان من بشريته إلى حيث الذات الإلهية اللامتناهية المقدسة، وهذا مرة بهدي وفعل وتأثير مرتبة إيمانه ومعرفته، وأخرى بدرجة إذعانه وتسليمه، مقدمة هذه الذات لما يرد عليها من الله سبحانه وتعالى في كل مرحلة من مراحل رحلتها، وقد يبلغ الإنسان مرحلة العبودية بعد التسليم والإذعان والانقياد إلى الله سبحانه وتعالى فتبلغ درجة الإيمان أقصاها، فتتحقق كامل عبودية الإنسان ومرتبة إذعانه لربه، فلم يعد مملوكاً إليه بل مملوكاً لربه[٣].

وقد وصل الملائكة إلى هذه المرحلة التكاملية وهي المعرفة بالله والإذعان والانقياد له سبحانه عن طريق البراهين الموجبة فكانت تلك الحقائق الإيمانية وسطاً تكاملياً أو وسيلة أوصلت الملائكة إلى معرفته سبحانه وتعالى، يقول الإمام علي عليه السلام في هذا المعنى:((**وَ مِنْهُمْ مَنْ قَدْ خَرَقَتْ أَقْدَامُهُمْ تُخُومَ الْأَرْضِ السُّفْلَى، فَهِيَ كَرَايَاتٍ بِيضٍ قَدْ نَفَذَتْ فِي مَخَارِقِ الْهَوَاءِ، وَ تَحْتَهَا رِيحٌ هَفَّافَةٌ تَحْبِسُهَا عَلَى حَيْثُ**

(١) قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾، الروم / ٣٠.

(٢) الكليني، الكافي، ٢/ ١٣؛ الصدوق، التوحيد، ص٣٣١.

(٣) مجيلس، الله والإمام (بحوث فكرية في الأسلوب الإلهي لإقامة الدين في الأرض)، ص١٩-٢٠.

انْتَهَتْ مِنَ الْحُدُودِ الْمُتَنَاهِيَةِ، قَدِ اسْتَفْرَغَتْهُمْ أَشْغَالُ عِبَادَتِهِ، وَ وَصَلَتْ[وسلتّ- مثّلت] حَقَائِقُ الإيمان بَيْنَهُمْ وَ بَيْنَ مَعْرِفَتِهِ، وَ قَطَعَهُمُ الْإِيقَانُ بِهِ إلى الْوَلَهِ إِلَيْهِ، وَ لَمْ تُجَاوِزْ رَغَبَاتُهُمْ مَا عِنْدَهُ إلى مَا عِنْدَ غَيْرِهِ. قَدْ ذَاقُوا حَلَاوَةَ مَعْرِفَتِهِ، وَ شَرِبُوا بِالْكَأْسِ الرَّوِيَّةِ مِنْ مَحَبَّتِهِ، وَ تَمَكَّنَتْ مِنْ سُوَيْدَاءِ قُلُوبِهِمْ وَشِيجَةُ خِيفَتِه...))[1].

وبذلك اتضح أن حقائق الإيمان أعطت نتيجة عملية؛ إذ أصبحت معرفتهم في سياقها التكاملي، فهي الوسط بين الملائكة وبين الله سبحانه وتعالى ومعرفة الملائكة بها أو العمل بها هي ما أوصلهم إلى معرفة الله تعالى الكاملة، ومن المعلوم أن حقائق الإيمان تحتاج إلى فكرٍ ومعرفة، ومن ثم فإن الملائكة امتلكوا هذا الفكر الذي هو الوسط بينهم وبين الله سبحانه وتعالى، ومن ثم حصلت الاستقامة؛ لأنهم اتبعوا الوسط وعملوا به.

إن حقائق الإيمان هي العقائد اليقينية أو البراهين الموجبة له وكونها، وصلة بينهم وبين معرفته من حيث أن التصديق بوجود الشي الواجب تحصيله أقوى الأسباب الباعثة على طلبه، فصار الإيمان والتصديق الحق بوجوده جامع بينهم وبين معرفته[2].

ومما مرَّ يمكن القول: إن حقائق الإيمان كانت هي الوسيلة بين الملائكة والله سبحانه وتعالى، أو بمعنى آخر هي وسط إجرائي أو غائي أو وسيلة تكاملية وإذا صح التعبير قد ينطبق عليه معنى عمليًّا، فحقائق الإيمان كانت هنا وسطية أو وسطاً هدفيّاً بحيث أوصلت الملائكة إلى معرفة الله سبحانه وتعالى المعرفة الكاملة، فمُلِئ قلبهم بحب الله تعالى، ومن ثم فإن حقائق الإيمان هي الوسط بين الملائكة

(١) نهج البلاغة، ص١٧٨-١٧٩.

(٢) الخوئي، منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، ٦/ ٣٨٩.

وبين الله سبحانه وتعالى، وأوصلتهم إلى معرفته كذلك البشر؛ لأن أمير المؤمنين عليه السلام لا يهدف من كلامه لبيان الملائكة وصفاتهم فحسب، وإنما هو أيضاً لترغيب الناس وتعليمهم ليس على الوصول إلى الكمال وإنما أقرب للكمال، ولاسيما أن معرفة الله سبحانه وتعالى تقوم على التصديق بوحدانية واعتبارات أسمائه وصفاته التي هي أساس حقائق الإيمان، فعن أبي عبد الله عليه السلام يقول: جاء حبر من اليهود إلى أمير المؤمنين عليه السلام فقال: ((**يا أمير المؤمنين هل رأيت ربك حين عبدته ؟ فقال: ويلك ما كنت أعبد ربا لم أره، قال: وكيف رأيته ؟ قال: ويلك لا تدركه العيون في مشاهدة الأبصار ولكن رأته القلوب بحقائق الإيمان**))[1].

مع العلم أن الملائكة مؤهلون للوصول إلى مرتبة معينة وهي حقائق الإيمان؛ لأنهم ملائكة مصطفون، أي الوسطية هي عدم الخوض في المسألة حتى تكون معرفتهم معرفة متكاملة لا إفراط فيها، وهذا ما ينطبق على البشر، مع الأخذ بنظر الاعتبار الخوض في الجزء الثاني من معرفة الله هو الخوض في الغيب[2]، لذلك هو

(١) الكليني، الكافي، ١/ ٩٨.

(٢) هناك وسائط بيننا وبين الله سبحانه توصل إلى معرفته، ولابد من القول إن كل مخلوقات الله سبحانه وتعالى توصل إلى معرفته وتضعنا أمام قدرة عظيمة، ولا سبيل لتفسير ذلك وفلسفته إلّا لقدرة الله المطلقة لهذا النظام، لكن مع ذلك فإن معلومات البشر ناقصة، لأن الأمور المستحيلة عقلاً خارجة عن القدرة البشرية، فما لا يعلمه الإنسان أكثر مما يعلمه وهو الذي يصطلح عليه الغيب الذي لا يعلمه إلّا الله سبحانه وتعالى، ولا طريق لمعرفته إلّا بواسطته، وإن علمه أحد إنما هو بوحي من الله تعالى، وهذا ما يستشف من العديد من الآيات القرآنية منها قوله: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾، آل عمران / ٤٤ وقوله: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾، آل عمران / ١٧٩ وقوله: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا

إفراط وخروج عن التكامل، وهذا ما يفسر لنا قول الإمام علي عليه السلام في مناسبة أخرى عليه السلام: ((...**فَلَسْنَا نَعْلَمُ كُنْهَ عَظَمَتِكَ إِلَّا أَنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ «حَيٌّ قَيُّومٌ، لَا تَأْخُذُكَ سِنَةٌ وَ لَا نَوْم»**[1]. **لَمْ يَنْتَهِ إِلَيْكَ نَظَرٌ، وَ لَمْ يُدْرِكْكَ بَصَرٌ. أَدْرَكْتَ الْأَبْصَارَ، وَ أَحْصَيْتَ الْأَعْمَالَ**[الأعمار]، **وَ أَخَذْتَ ﴿بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ﴾**[2]. **وَ مَا الَّذِي نَرَى مِنْ خَلْقِكَ، وَ نَعْجَبُ لَهُ مِنْ قُدْرَتِكَ، وَ نَصِفُهُ مِنْ عَظِيمِ سُلْطَانِكَ**[شأنك]، **وَ مَا تَغَيَّبَ عَنَّا مِنْهُ، وَ قَصُرَتْ أَبْصَارُنَا عَنْهُ، وَ انْتَهَتْ عُقُولُنَا دُونَهُ، وَ حَالَتْ سُتُورُ الْغُيُوبِ بَيْنَنَا وَ بَيْنَهُ أَعْظَمُ. فَمَنْ فَرَّغَ قَلْبَهُ، وَ أَعْمَلَ فِكْرَهُ، لِيَعْلَمَ كَيْفَ أَقَمْتَ عَرْشَكَ، وَ كَيْفَ ذَرَأْتَ خَلْقَكَ، وَ كَيْفَ عَلَّقْتَ فِي الْهَوَاءِ سَمَاوَاتِكَ، وَ كَيْفَ مَدَدْتَ عَلَى مَوْرِ الْمَاءِ أَرْضَكَ، رَجَعَ طَرْفُهُ حَسِيراً، وَ عَقْلُهُ مَبْهُوراً، وَ سَمْعُهُ وَالِهاً، وَ فِكْرُهُ حَائِراً**))[3].

إن سواتر الغيب هي الوسط بيننا وبين الله سبحانه وتعالى وحاجبة لنا من الوصول إليه، فسواتر الغيب مثلت الوسطية، وهذا المسار الوسطي تظهر الفلسفة الهادفة لإدراك البشر عجزهم فإن عقولنا محدودة، وأبصارنا محدودة، وطاقاتنا محدودة، وهذه المحدودية لا تطيق كل قدرة الله وسلطانه، وإن الإنسان مهما صفا نفسه دقق وحقق في بعض جزئيات خلق الله سوف يعجز ويرجع مبهوراً فما لا يدركه العقل من أسرار خلقه، هذا من ناحية، ولمعرفة قدرة الله سبحانه وعظيم سلطانه من ناحية أخرى[4].

وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ الأنعام / ٥٩. وقوله: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ النمل / ٦٥.

(١) إشارة إلى آية الكرسي ﴿ اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ﴾، البقرة / ٢٥٥.

(٢) الرحمن / ٤١.

(٣) نهج البلاغة، ص٣٢٩.

(٤) ينظر: الموسوي، شرح نهج البلاغة، ٣/ ٣٨-٣٩؛ الخوئي، منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة،

ولاريب في أن هذه المسارات الوسطية لها حيثيات وأبعاد وهي عدم التوغل؛ لأنه كما قلنا أن التوغل يؤدي إلى التفريط والخروج عن المسار التكاملي، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن هذه المسارات الوسطية بمفهومها العام تؤدي إلى تغيرات في الشخصية عن طريق تكوين أو خلق التقوى والإيمان والطاعة لدى الإنسان، من المفهوم الذي تكون لديه أو الحد الوسط في الوصول إلى معرفة الله سبحانه وتعالى في مقابل الإفراط والتفريط وعدم الخوض في تفاصيل وجزئيات خلق الله سبحانه وتعالى: ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ**﴾[1] وهذا ما أشار إليه الإمام علي عليه السلام أيضاً في نهج البلاغة: ((**وَ اعْلَمْ أَنَّ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ هُمُ الَّذِينَ أَغْنَاهُمْ عَنِ اقْتِحَامِ السُّدَدِ الْمَضْرُوبَةِ دُونَ الْغُيُوبِ، الْإِقْرَارُ بِجُمْلَةِ مَا جَهِلُوا تَفْسِيرَهُ مِنَ الْغَيْبِ الْمَحْجُوبِ، فَمَدَحَ اللَّهُ - تَعَالَى - اعْتِرَافَهُمْ بِالْعَجْزِ عَنْ تَنَاوُلِ مَا لَمْ يُحِيطُوا بِهِ عِلْماً، وَ سَمَّى تَرْكَهُمُ التَّعَمُّقَ فِيمَا لَمْ يُكَلِّفْهُمُ الْبَحْثَ عَنْ كُنْهِهِ رُسُوخاً، فَاقْتَصِرْ عَلَى ذَلِكَ، وَ لَا تُقَدِّرْ عَظَمَةَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ عَلَى قَدْرِ عَقْلِكَ فَتَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ**))[2].

وبما أن الإقرار بالعجز، وعدم التعمق في الغيب يدلان على الوصول إلى الحد المطلوب من معرفة الله سبحانه وتعالى ويدلان على الإيمان والطاعة إذن هو تحقق للمسار التكاملي في الاعتقاد، ولما كانت هذه المسألة (العجز يؤدي إلى مسار الكمال)؛ لأنها غيبية، فكل ما هو على درجتها يؤدي إلى النتيجة ذاتها.

هذا مع التسليم بأن المعرفة البشرية تبقى ناقصة، لذلك فهم بحاجة إلى وسيلة

٩/ ٣٥٣؛ الشيرازي، توضيح نهج البلاغة، ٢/ ٤٢٥؛ دخيل، شرح نهج البلاغة، ١٥-١٦ / ١٠.

(١) الأنعام / ٨٢.

(٢) نهج البلاغة، ص١٦٩-١٧٠.

وأدوات معرفية حتى تتكامل المعرفة لدى البشرية ولا تبقى لديهم حجة أو عذر، لانعدام وجود ما يدل على تلك المعرفة، وأحد مصاديق هذه المعرفة الحجج على العباد الناطق المعرفي الموكل بنقل المعارف الإلهية الذين يوصلون إلى معرفة الله سبحانه من غير إفراط أو تفريط، فهم الوسائط بين البشر وبين الله جلَّ وعلا، ويتجسد ذلك في قول الإمام عليه السلام: ((**فَلَمَّا مَهَدَ أَرْضَهُ، وَ أَنْفَذَ أَمْرَهُ، اخْتَارَ آدَمَ، عليه السَّلامُ، خِيرَةً مِنْ خَلْقِهِ، وَ جَعَلَهُ أولَ جِبِلَّتِهِ وَ أَسْكَنَه جَنَّتَهُ، وَ أَرْغَدَ فِيهَا أُكُلَهُ، وَ أو عَزَ إِلَيْهِ فِيمَا نَهَاهُ عَنْهُ وَ أَعْلَمَهُ أن فِي الْإِقْدَامِ عَلَيْهِ التَّعَرُّضَ لِمَعْصِيَتِهِ، وَ الْمُخَاطَرَةَ بِمَنْزِلَتِهِ؛ فَأَقْدَمَ عَلَى مَا نَهَاهُ عَنْهُ- مُوَافَاةً[موافقة] لِسَابِقِ عِلْمِهِ-فَأَهْبَطَهُ بَعْدَ التَّوْبَةِ لِيَعْمُرَ أَرْضَهُ بِنَسْلِهِ، وَ لِيُقِيمَ الْحُجَّةَ بِهِ عَلَى عِبَادِهِ، وَ لَمْ يُخْلِهِمْ بَعْدَ أن قَبَضَهُ، مِمَّا يُؤَكِّدُ عَلَيْهِمْ حُجَّةَ رُبُوبِيَّتِهِ، وَ يَصِلُ بَيْنَهُمْ وَ بَيْنَ مَعْرِفَتِهِ، بَلْ تَعَاهَدَهُمْ بِالْحُجَجِ عَلَى أَلْسُنِ الْخِيرَةِ مِنْ أَنْبِيَائِهِ، وَ مُتَحَمِّلِي وَدَائِعِ رِسَالَاتِهِ، قَرْناً فَقَرْناً؛ حَتَّى تَمَّتْ بِنَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ- صلى الله عليه واله –حُجَّتُهُ، وَ بَلَغَ الْمُقْطَعَ عُذْرُهُ وَ نُذُرُه**))[1].

فالرسل والأنبياء هم الوسط والوسيلة بين البشر وبين الله جل وعلا، فهم على صلة دائمة بالله وشريعته ومنذرين ومبشرين للخلق، ولم يخلُ زمان من الحجج المؤكدة لأدلة ربوبيته والموصلة الخلق إلى معرفته بما يحملونه من الحجج والبينات ومما زودوهم به من التعاليم والأحكام[2]. ولعلنا حينما نتعمق بهذه الأجزاء من الطرح العلوي نجد الفلسفة والغاية من الوسطية فيها واضحة؛ إذ إن الحجج أو حقائق الإيمان في النص المتقدم هي مسارات وسطية، وتبرز من خلال

(١) نهج البلاغة، ص١٨٧ – ١٨٨.

(٢) ينظر: البحراني، شرح نهج البلاغة (الكبير)، ٢/ ٣٨٠؛ مغنية، في ظلال نهج البلاغة، ٢/ ٤٠؛ الموسوي، شرح نهج البلاغة، ٢/ ١٠٨؛ الخوئي، منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، ٧/ ٤٢؛ الشيرازي، توضيح نهج البلاغة، ٢/ ٨٠.

فكر الإمام علي عليه السلام أهمية هذه المسارات وأدوارها في أنها توصل إلى معرفة الله سبحانه وتعالى، و أن هذه المسارات هي التي تؤدي إلى الاستقامة والعدل كونها مصدراً للناحية التشريعية والتكوينية، وهذه هي فلسفة الوسطية.

ومن الجدير بالإشارة أن الحجج على العبادة الموصلة إلى معرفة الله سبحانه وتعالى والمدلة على الأصول والفروع والمرشدة إليها لا تتمثل فقط في الرسل والأنبياء، فحسب كما يشير إليها الإمام علي عليه السلام حينما قال: ((**وَ أَرَانَا مِنْ مَلَكُوتِ قُدْرَتِهِ، وَ عَجَائِبِ مَا نَطَقَتْ بِهِ آثَارُ حِكْمَتِهِ، وَ اعْتِرَافِ الْحَاجَةِ مِنَ الْخَلْقِ إِلَى أَنْ يُقِيمَهَا بِمِسَاكِ قُوَّتِهِ، مَا دَلَّنَا بِاضْطِرَارِ قِيَامِ الْحُجَّةِ لَهُ عَلَى مَعْرِفَتِهِ، فَظَهَرَتِ الْبَدَائِعُ الَّتِي أَحْدَثَتْهَا آثَارُ صَنْعَتِهِ، وَ أَعْلَامُ حِكْمَتِهِ، فَصَارَ كُلُّ مَا خَلَقَ حُجَّةً لَهُ وَ دَلِيلًا عَلَيْهِ؛ وَ أَن كَانَ خَلْقاً صَامِتاً، فَحُجَّتُهُ بِالتَّدْبِيرِ نَاطِقَةٌ، وَ دَلَالَتُهُ عَلَى الْمُبْدِعِ قَائِمَة**))[1].

فكل ما في هذا العالم من آثار وما أرانا سبحانه وتعالى من ملكة العظيم يدل ويوصل إلى معرفته، مع الأخذ بنظر الاعتبار أن هناك حدوداً للمعرفة لا يمكن اجتيازها، وهو ما يصطلح عليه بالغيب.

إن حدوث خلل أو نقص في المعرفة البشرية أو الانحراف هو سبب بعث الأنبياء، وهذا ما أكده الإمام علي عليه السلام حينما قال: ((**وَاصْطَفَى سُبْحَانَهُ مِنْ وَلَدِهِ أَنْبِيَاءَ أَخَذَ عَلَى الْوَحْيِ مِيثَاقَهُمْ، وَ عَلَى تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ أَمَانَتَهُمْ[إيمانهم]، لَمَّا بَدَّلَ أَكْثَرُ خَلْقِهِ عَهْدَ اللهِ إِلَيْهِمْ فَجَهِلُوا حَقَّهُ، وَ اتَّخَذُوا الْأَنْدَادَ مَعَهُ، وَ اجْتَالَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ عَنْ مَعْرِفَتِهِ، وَ اقْتَطَعَتْهُمْ عَنْ عِبَادَتِهِ، فَبَعَثَ فِيهِمْ رُسُلَهُ، وَ وَاتَرَ إِلَيْهِمْ أَنْبِيَاءَهُ، لِيَسْتَأْدُوهُمْ مِيثَاقَ فِطْرَتِهِ...**))[2].

(١) نهج البلاغة، ص١٧٠-١٧١.

(٢) نهج البلاغة، ص٢٦.

ويشير الإمام علي عليه السلام إلى أن تكامل المعرفة والاعتقاد، ومن ثم حصول التقوى يقوم على قاعدة، وهي أن طاعة الله لا تكون في المظاهر، أي لا تأخذ جانباً مادياً أي حركات وأقوال، بل أن يكون مكانها في السرائر لكي تتحقق نتائجها وأبعادها الإيجابية فيقول عليه السلام في هذا المضمون: ((**أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي أوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللهِ الَّذِي ابْتَدَأَ خَلْقَكُمْ، وَ إِلَيْهِ يَكُونُ مَعَادُكُمْ، وَ بِهِ نَجَاحُ طَلِبَتِكُمْ، وَ إِلَيْهِ مُنْتَهَى رَغْبَتِكُمْ، وَ نَحْوَهُ قَصْدُ سَبِيلِكُمْ، وَ إِلَيْهِ مَرَامِي مَفْزَعِكُمْ. فَإِنَّ تَقْوَى اللهِ دَوَاءُ دَاءِ قُلُوبِكُمْ، وَ بَصَرُ عَمَى أَفْئِدَتِكُمْ، وَ شِفَاءُ مَرَضِ أَجْسَادِكُمْ[أجسادكم]، وَ صَلَاحُ فَسَادِ صُدُورِكُمْ، وَ طُهُورُ دَنَسِ أَنْفُسِكُمْ، وَ جِلَاءُ عَشَا[غشا] أَبْصَارِكُمْ، وَ أَمْنُ فَزَعِ جَأْشِكُمْ، وَ ضِيَاءُ سَوَادِ ظُلْمَتِكُمْ. فَاجْعَلُوا طَاعَةَ اللهِ شِعَاراً دُونَ دِثَارِكُم، وَ دَخِيلًا دُونَ شِعَارِكُمْ، وَ لَطِيفاً بَيْنَ أَضْلَاعِكُمْ وَ أَمِيراً[أمراً] فَوْقَ أُمُورِكُمْ، وَ مَنْهَلًا لِحِينِ وُرُودِكُمْ، وَ شَفِيعاً لِدَرَكِ طَلِبَتِكُمْ وَ جُنَّةً لِيَوْمِ فَزَعِكُمْ، وَ مَصَابِيحَ لِبُطُونِ قُبُورِكُمْ، وَ سَكَناً لِطُولِ وَحْشَتِكُمْ، وَ نَفَساً لِكَرْبِ مَوَاطِنِكُم. فَإِنَّ طَاعَةَ اللهِ حِرْزٌ مِنْ مَتَالِفَ مُكْتَنِفَةٍ، وَ مَخَاوِفَ مُتَوَقَّعَةٍ وَ أوارِ نِيرَانٍ مُوقَدَةٍ. فَمَنْ أَخَذَ بِالتَّقْوَى عَزَبَتْ عَنْهُ الشَّدَائِدُ بَعْدَ دُنُوِّهَا، وَ احْلَوْلَتْ لَهُ الْأُمُورُ بَعْدَ مَرَارَتِهَا، وَ انْفَرَجَتْ عَنْهُ الْأَمْوَاجُ بَعْدَ تَرَاكُمِهَا، وَ أَسْهَلَتْ لَهُ الصِّعَابُ بَعْدَ إِنْصَابِهَا، وَ هَطَلَتْ عَلَيْهِ الْكَرَامَةُ بَعْدَ قُحُوطِهَا، وَ تَحَدَّبَتْ عَلَيْهِ الرَّحْمَةُ بَعْدَ نُفُورِهَا، وَ تَفَجَّرَتْ عَلَيْهِ النِّعَمُ بَعْدَ نُضُوبِهَا، وَ وَبَلَتْ عَلَيْهِ الْبَرَكَةُ بَعْدَ إِرْذَاذِهَا. فَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي نَفَعَكُمْ بِمَوْعِظَتِهِ، وَ وَعَظَكُمْ بِرِسَالَتِهِ، وَ امْتَنَّ عَلَيْكُمْ بِنِعْمَتِهِ. فَعَبِّدُوا أَنْفُسَكُمْ لِعِبَادَتِهِ، وَ اخْرُجُوا إِلَيْهِ مِنْ حَقِّ طَاعَتِهِ**))[1].

فجعل التقوى شعاراً وهو وسط بين الدثار والجسد، أو دخيلاً وهو أقرب من الشعار ملاصقة للبدن، أو لطيفاً بين الأضلاع أي في القلب الذي هو وسط

(١) نهج البلاغة، ص٤٧٠- ٤٧١.

الأضلاع، وذلك أمس بالإنسان من الدخيل، فقد يكون الدخيل في الجسد وإن لم يخامر القلب، فهذه الوسطية ليست اعتباطية إنما تدخل في إطار الفلسفة السببية، وهو أن تكون طاعة الله في السرائر لا في المظاهر كي تكون كاملة في القلب خشوعاً وخضوعاً لا في الحركات والأقوال[1]. وأن كلام الإمام علي عليه السلام في النص السابق يتضمن عدة محاور يمكن إدراجها بما يلي:

المحور الترغيبي: الذي يتمثل ببحث الإمام عليه السلام وترغيبه المجتمع في التقوى من خلال ذكر منافعها وثمارها.

المحور المادي: ويتمحور حول المنافع المادية للتقوى، وكونها سببا للرزق بمفهومها المادي والمعنوي وفي الدنيا والآخرة لقوله عليه السلام: ((**وبه نجاح طلبتكم وإليه منتهى رغبتكم... تفجرت عليه النعم بعد نضوبها، ووبلت عليه البركة بعد إرذاذها**)).

المحور الطبي النفسي: الذي يتمثل بقول الإمام عليه السلام: ((**فإن تقوى الله دواء داء قلوبكم... وشفاء مرض أجسادكم، وصلاح فساد صدوركم، وطهور دنس أنفسكم**))، فالتقوى تؤدي إلى الوقاية من الأمراض القلبية والرذائل النفسية من حسد وبغض ونميمة.

---

(١) ينظر: ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٠/ ١٩٠؛ البحراني، شرح نهج البلاغة (الصغير)، ص٣٨٨؛ شرح نهج البلاغة (الكبير)، ٣/ ٤٤٨؛ الأردبيلي، شرح نهج البلاغة، ص١٩٨ (فارسي)؛ الموسوي، شرح نهج البلاغة، ٣/ ٤٠٥؛ مغنية، في ظلال نهج البلاغة، ٣/ ١٩٤؛ دخيل، شرح نهج البلاغة، ٢١-٢٢/ ١٤؛ التستري، بهج الصباغة في شرح نهج البلاغة، ١٢/ ٥٢٦؛ الخوئي، منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، ١٢/ ٢٧٧؛ الشيرازي، توضيح نهج البلاغة، ٣/ ٢٦٥؛ الدشتي، فرهنگ معارف نهج البلاغة، ١/ ٥٢٨ (فارسي)؛ الشرقي، شرح نهج البلاغة، ص٧٨ (فارسي).

المحور العلمي والفكري: بَيَّنَ الإمام علي عليه السلام آثار التقوى العلمية والفكرية ووظيفتها الإنسانية التكاملية (وبصر عمى أفئدتكم... وجلاء عشا أبصاركم)، فعندما يمتلك الإنسان التقوى فإنه يمتلك الرؤية العلمية الصحيحة والنظرة العميقة والسليمة للأمور.

محور الأمن والسكينة: إن من ثمار التقوى على الإنسان أنها تكون حاجزاً وحصناً يبعثان في نفسه الطمأنينة من مخاوف متوقعة في قوله عليه السلام: (فإن طاعة الله حرز من متالف مكتنفة ومخاوف متوقعة وأوار نيران موقدة)، فلا يمكن الخلاص من تلك المخاوف المتوقعة إلاّ بالتقوى، و أن من ثمارها الدنيوية أنها تزيح الهموم التي تتراكم على الإنسان (وانفرجت عنه الأمواج بعد تراكمها).

وأخيراً فإن الإمام عليه السلام يضع أبعاداً إيمانية وترسيخ مبادئ في الاعتقاد للوصول إلى مرحلة أقرب للكمال، ويتمحور ذلك في منهج وطريقة التعاطي مع الحياة الدنيا دون الإفراط فيها، فيقول عليه السلام: ((**فَاتَّقُوا اللهَّ عِبَادَ اللهَّ، وَ بَادِرُوا آجَالَكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ، وَ ابْتَاعُوا مَا يَبْقَى لَكُمْ بِمَا يَزُولُ عَنْكُمْ، وَ تَرَحَّلُوا فَقَدْ جُدَّ بِكُمْ، وَ اسْتَعِدُّوا لِلْمَوْتِ فَقَدْ أَظَلَّكُمْ، وَ كُونُوا قَوْماً صِيحَ بِهِمْ فَانْتَبَهُوا، وَ عَلِمُوا أن الدُّنْيَا لَيْسَتْ لَهُمْ بِدَارٍ فَاسْتَبْدَلُوا؛ فَإِنَّ اللهَّ سُبْحَانَهُ لَمْ يَخْلُقْكُمْ عَبَثاً، وَ لَمْ يَتْرُكْكُمْ سُدًى وَ مَا بَيْنَ أَحَدِكُمْ وَ بَيْنَ الْجَنَّةِ أو النَّارِ، إِلَّا الْمَوْتُ أن يَنْزِلَ بِهِ. وَ أن غَايَةً تَنْقُصُهَا اللَّحْظَةُ، وَ تَهْدِمُهَا السَّاعَةُ، لَجَدِيرَةٌ بِقِصَرِ الْمُدَّةِ. وَ أن غَائِباً يَحْدُوهُ الْجَدِيدَانِ: اللَّيْلُ وَ النَّهَارُ، لَحَرِيٌّ بِسُرْعَةِ الْأَوْبَةِ. وَ أن قَادِماً يَقْدُمُ بِالْفَوْزِ أو الشِّقْوَةِ لَمُسْتَحِقٌّ لِأَفْضَلِ الْعُدَّةِ. فَتَزَوَّدُوا فِي الدُّنْيَا، مِنَ الدُّنْيَا، مَا تَحْرُزُونَ[تجوزون] بِهِ أَنْفُسَكُمْ غَدا...**))[1]، فالموت هنا هو الوسط بيننا وبين الجنة أو النار، إذ إن غرض الإمام عليه السلام هو التأسيس لفهم وثقافة

(١) نهج البلاغة، ص١١٢.

التعاطي مع الحياة الدنيا، كمعبر للآخرة، فالنتيجة هي الآخرة وهي المستقر إما جنة أو نار، ومن ثم الالتفات إلى الابتعاد عن جانب الإفراط والتفريط في الدنيا من لهو ولعب؛ لأن الموت هو مجرد وسط يترتب عليه إما شقاء أو نعيم[١].

٢ـ الوسطية التشريعية في التوظيف العقائدي.

من البديهي القول إن حدوث تغير في سلوك الإنسان سواء أكان سلبياً أم إيجابياً لابد من أن يحدث تغيراً في أفكاره واتجاهاته، لذلك جاء الدين الإسلامي ونزل القرآن الكريم لتغير أفكار المجتمع السلبية وتغيير ما هم فيه من ضلال وانحراف، وتوجيهه إلى الاتجاه الوسطي الإصلاحي ومدّهم بأفكار وأساليب جديدة، ولما كانت الخلافة مكملة للنبوة فإنها أكملت هذا الطريق في وضع أسس لنظام حياة الإنسان أو إعادة تذكير بالأسس التشريعية التي جاء بها الرسول ﷺ ونزل بها القرآن الكريم من اجل تكوين الشخصية الإسلامية المتكاملة.

وكما قلنا أن أهداف الدين هو إحداث التغير، فشرائع الدين الإسلامي مستقيمة في جوانبها ومقاصدها لا إفراط فيها ولا تفريط، واضحة تختصر الطريق إلى الغاية المنشودة قال تعالى:﴿**أَنَّ هَـذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾[٢]، وفي ثمارها ونتائجها قال: ﴿**أَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا**﴾[٣]، فالشريعة الإسلامية تمثل قمة الاستقامة والاعتدال، ولو استقام عليها بنو البشر لأصبحوا في المسار

(١) ينظر: البحراني، شرح نهج البلاغة،(الكبير) ٢/ ١٦٤؛ الموسوي، شرح نهج البلاغة، ١/ ٣٨٨؛ الخوئي، منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، ٤/ ٤-٢.

(٢) الانعام / ١٥٣.

(٣) الجن / ١٦.

التكاملي، ونالوا ثماره ونتائجه، لكن الخلل يكمن في كيفيه تعاطي الإنسان معها ومصادر أخذها حتى تكون في الجانب الإصلاحي التكاملي المنشود والمتجول عبر سبر التاريخ الذي سيدرك لا محالة هذه الحقيقة.

فمن استسقاها من مصادرها الموثوقة فقد سلك الطريقة الوسطى لا وكس فيها ولا شطط، ومن تخلف عنها ضل وانحرف، وخير مصداق على ذلك قول الإمام علي عليه السلام في هذا السياق: ((**تَاللهِ لَقَدْ عُلِّمْتُ تَبْلِيغَ الرِّسَالَاتِ، وَ إِتْمَامَ الْعِدَاتِ، وَ تَمَامَ الْكَلِمَاتِ، وَ عِنْدَنَا- أهل الْبَيْتِ- أَبْوَابُ الْحُكْمِ وَ ضِيَاءُ الْأَمْرِ. أَلَا وَ أن شَرَائِعَ الدِّينِ وَاحِدَةٌ، وَ سُبُلَهُ قَاصِدَةٌ. مَنْ أَخَذَ بِهَا لَحِقَ وَ غَنِمَ، وَ مَنْ وَقَفَ عَنْهَا ضَلَّ وَ نَدِم**))[1]، فشرائع الدين الإسلامي بما فيها من قواعد وقوانين قاصدة أي متوسطة معتدلة لا إفراط فيها ولا تفريط، ومن ثم فإن من أخذ بهذه القواعد والقوانين ومن مصدرها الموثوق، وهم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وأهل بيته عليهم السلام كان على الطريق المستقيم المؤدي إلى الفوز والسعادة والنجاة، ومن انحرف عنها كان على طريق الضلال والانحراف والندم. أما فيما يخص آراء الشارحين، فقد انقسموا إلى رأيين:

الرأي الأول: الذي يرى أن هدف الإمام عليه السلام من قوله شرائع الدين واحدة وسبله قاصدة، بمعنى قريبة وسهلة واستعانوا بقول بيننا وبين الماء ليلة قاصدة أي هينة المسيرة لا تعب فيها ولا بطء؛ لأنها قريبة [2]، وهذا الرأي بعيد بعض الشيء عن مقصد الإمام عليه السلام والفلسفة من قوله؛ لأن النص يقصد الوسطية بجل مفهوما في كلمة قاصدة أي متوسطة معتدلة[3] بين طرفي الإفراط والتفريط.

(١) نهج البلاغة، ص٢٥٧.

(٢)ينظر: ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ٧/ ٢٨٩؛ عبدة، شرح نهج البلاغة، ١/ ٢٣٢؛ عبد الزهراء الخطيب، مصادر نهج البلاغة وأسانيده، ٢/ ٢٦٠.

(٣) ينظر: الفراهيدي، العين، ٥/ ٥٤-٥٥؛ ابن منظور لسان العرب، ٩/ ١٤٨.

في حين أن **الرأي الثاني** هو الرأي الأصوب الذي يرى أن الإمام عليه السلام يهدف من قوله، مستقيمة أي متوسطة لا إفراط فيها ولا تفريط، وهي ما دل عليها أهل البيت عليهم السلام، فمن أخذ هذه الشرائع من المصدر الموثوق وهم أهل البيت (عليهم السلام) فقد ربح وغنم المثوبة، لأنه لحق بالإسلام وبأهل الإيمان والسابقة وربح الدنيا والآخرة، ومن وقف عنها ولم يأخذ بها ضل وندم لما يلحقه من الإثم والعقاب، لأنه انحرف عن العدل والحق[١].

بالنتيجة فإن قول الإمام عليه السلام يتضمن أبعاداً مهمة وخطيرة لها آثارها على الأمة، وهي سلامة الطريق المؤدي إلى الأهداف، والذي يؤمن للأمة الخير والكمال، لأن الشرائع لا تؤخذ إلّا من أهل البيت عليهم السلام وإذا أخذت من غيرهم حدث الخلل والانحراف إلى أقصى اليمين والشمال، ومصداق هذا قول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: (حب أهل بيتي وذريتي استكمال الدين)[٢]، وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: ((**من أحب أن يتمسك بالعروة الوثقى، فليتمسك بحب علي وأهل بيتي**))[٣]، كذلك أراد أن يبين أن فكر واعتقاد وكلام وتشريع أهل البيت عليهم السلام هو الحالة الوسطية في كل شيء لا المتطرفة، وإنما الحالة المثالية المقدور عليها من قبل الإنسان، والتي يمكن لأي فرد أن يسير عليها إذا ما أراد ذلك دون أن يكون أمام سلوكه أي حواجز وموانع.

---

(١) ينظر: الراوندي، منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، ٢/ ٢٥؛ البحراني، شرح نهج البلاغة (الكبير)، ٣/ ١١٣؛ الشيرازي، توضيح نهج البلاغة، ٢/ ٢٤٠؛ الموسوي، شرح نهج البلاغة، ٢/ ٣٢٤؛ الخوئي، منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، ٨/ ١٢٦؛ دخيل، شرح نهج البلاغة، ١١-١٢ / ٣٤؛ التستري، بهج الصباغة في شرح نهج البلاغة، ٤/ ٣٢٨-٣٢٩؛ مغنية، في ظلال نهج البلاغة، ٢/ ٢١٣-٢١٤.

(٢) الصدوق، الأمالي، ص٢٥٩.

(٣) الصدوق، عيون أخبار الرضا عليه السلام، ٢/ ٦٣.

ومثل القرآن الكريم مصداقاً آخر في فكر الإمام علي عليه السلام، فلا يخفى على أحد أن القرآن الكريم يتسم بالوسطية والمرحلية، فلا يختص بمرحلة معينة من الزمن وإنما يصلح لكل زمان ومكان، كما أن أتباع القرآن الكريم والالتزام بما جاء فيه يؤدي أيضاً إلى تغير وبناء المجتمع: ﴿**إِنَّ هَذَا القرآن يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أن لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا**﴾(١) ﴿**ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ**﴾(٢).

فلا يوجد شيء سواء دينيًّا كان أم اجتماعيًّا أم غيرهما من الجوانب والمجالات إلّا وهناك آية أو سورة في القرآن الكريم تدل عليه، فهو جامع لكل شيء(٣)، لذلك نجد أن طرح الإمام علي عليه السلام واختياره للوسطية دقيق جداً؛ إذ إن ميزان التغير والاستقامة والاعتدال يكمن في الاستدلال واستنباط الحلول لجميع المشاكل من القرآن الكريم، ويمكن أن نطلق عليها نظم الحياة، هذه النظم هي الوسط أو الوسطية بين علم المستقبل الذي يتضمنه القرآن الكريم وعلم الماضي، يقول عليه السلام: ((**أَرْسَلَهُ عَلَى حِينِ فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ، وَ طُولِ هَجْعَةٍ مِنَ الْأُمَمِ، وَ انْتِقَاضٍ مِنَ الْمُبْرَمِ؛ فَجَاءَهُمْ بِتَصْدِيقِ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ، وَ النُّورِ الْمُقْتَدَى بِهِ. ذَلِكَ القرآن فَاسْتَنْطِقُوهُ، وَ لَنْ يَنْطِقَ، وَ لَكِنْ أُخْبِرُكُمْ عَنْهُ: أَلَا أن فِيهِ عِلْمَ مَا يَأْتِي، وَ الْحَدِيثَ عَنِ الْمَاضِي، وَ دَوَاءَ دَائِكُمْ، وَ نَظْمَ مَا بَيْنَكُمْ.**))(٤).

(١) الإسراء / ٩.

(٢) البقرة/ ٢.

(٣) ومصداق ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾،الانعام / ٣٨، وقوله: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ النحل/ ٨٩، وقوله: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ القرآن مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ الإسراء/ ٨٢

(٤) نهج البلاغة، ص٣٢٥-٣٢٦.

فالقرآن الكريم يتضمن ثلاثة محاور: المحور الأول، المحور العلمي المستقبلي من أخبار الغيب،قيام الساعة، والحساب، والعذاب، والجنة، والنار وغير ذلك مما يحدث في المستقبل، ومحور الماضي، ويشمل: المبدأ، وأحوال الأنبياء وقصصهم، والأمم الماضية كالفراعنة والقياصرة، والقرون الخالية، وأخبار العباد، وكل حركة الحياة من خلق السماء والأرض والشجر والحجر والنبات والإنسان والحيوان. أما المحور الثالث فهو المحور الوسطي المتضمن القوانين الشرعية، والحكمة السياسية التي بها نظام العالم، واستقامة أموره، فهذه القوانين هي الوسطية التشريعية بين علم المستقبل، والحديث عن الماضي وهي التي تؤدي إلى الاستقامة والاعتدال بحيث لا إفراط ولا تفريط بضبط حقوق الناس وأحكامها، وجعل لكل فرد حقه بالعدل والإنصاف لا زيادة ولا نقصان لا يظلم ولا يُظلَم[1]، ولا يخفى أن الإمام عليه السلام أراد من هذا الطرح ترغيب المجتمع من ناحية، وتثقيفهم من ناحية أخرى وحثهم على الالتزام بتعاليم القرآن الكريم وقيمه وأحكامه وجعله دستوراً للحياة لشمولية المعرفة القرآنية[2].

إن قول الإمام عليه السلام ذلك القرآن فاستنطقوه لا يقصد النطق المادي (اللفظي)، فهو مخالف للعقل والنقل ومنتفٍ إلى القرآن، وربما يعترض معترض في القول إن

(١) ينظر: الكندري البيهقي، حدائق الحقائق في شرح نهج البلاغة، ١/ ٦٩٨؛ البحراني، شرح نهج البلاغة (الكبير)، ٣/ ٢٧٣-٢٧٤؛ الموسوي، شرح نهج البلاغة، ٣/ ٢٦-٢٧؛ الخوئي، منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، ٩/ ٣٣٦-٣٣٧؛ الشيرازي، توضيح نهج البلاغة، ٢/ ٤١٨؛ مغنية، في ظلال نهج البلاغة، ٢/ ٤٢٠؛ دخيل، شرح نهج البلاغة، ١٥-١٦/ ٤.

(٢) في هذه المناسبة يقول الإمام الصادق عليه السلام: (ما من أمر يختلف فيه اثنان إلاّ وله أصل في كتاب الله عز وجل، ولكن لا تبلغه عقول الرجال)، البرقي، المحاسن، ١/ ٢٦٨؛ الكليني، الكافي، ١/ ٦٠؛ الطوسي، تهذيب الأحكام، ٩/ ٣٥٧؛ المجلسي، بحار الأنوار، ٨٩/ ١٠٠.

الإمام علي عليه السلام قال في موضع آخر من نهج البلاغة إن القرآن ناطق :((**وَ كِتَابُ اللهِ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ نَاطِقٌ لَا يَعْيَا لِسَانُهُ**))[1]؟، ويمكن الرد على ذلك بالقول إنه حتى هذا القول يقصد به الإمام عليه السلام النطق المعنوي المجازي، وهذه هي الفلسفة من قول الإمام عليه السلام والتي تتوضح في قوله الآخر: ((**فَالْقُرْآنُ آمِرٌ زَاجِرٌ، وَ صَامِتٌ نَاطِقٌ**))[2] فهو صامت مادياً ناطق معنوياً ببيان الأحكام، ويظهر أن الإمام عليه السلام أراد كذلك بيان العلاقة بين القرآن والإمام عليه السلام نفسه، فالقرآن صامت والإمام ناطق عن القرآن: ((**هذا القرآن إِنَّمَا هُوَ خَطٌّ مَسْتُورٌ بَيْنَ الدَّفَّتَيْنِ، لَا يَنْطِقُ بِلِسَانٍ، وَ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ تَرْجُمَانٍ. وَ إِنَّمَا يَنْطِقُ عَنْهُ الرِّجَالُ**))[3]، هذا فضلًا عن إخباره عليه السلام باختصاصه بالمعرفة القرآنية وإلمامه بها، وهو جزء من فلسفة الإمام عليه السلام في الإعداد للخلافة أو مؤهلات خليفة الله.

ويجب أن نأخذ بنظر الاعتبار أن الأخذ واتباع غير مصدرية القرآن الكريم يعني انحرافاً وتفريطاً؛ لأن القرآن الكريم مستقيم معتدل[4] ليس كغيره من القوانين الوضعية التي تحتاج إلى تعديل، وبدليل قول الإمام علي عليه السلام في مناسبة أخرى مخاطباً أهل البصرة: ((**وَ أن الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ، وَ النَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ، لَخُلُقَانِ مِنْ خُلُقِ اللهِ سُبْحَانَهُ؛ وَ إِنَّهُمَا لَا يُقَرِّبَانِ مِنْ أَجَلٍ، وَ لَا يَنْقُصَانِ مِنْ رِزْقٍ. وَ عَلَيْكُمْ بِكِتَابِ اللهِ. «فَإِنَّهُ الْحَبْلُ الْمَتِينُ، وَ النُّورُ الْمُبِينُ»، وَ الشِّفَاءُ النَّافِعُ، وَ الرِّيُّ النَّاقِعُ، وَ الْعِصْمَةُ لِلْمُتَمَسِّكِ، وَ النَّجَاةُ لِلْمُتَعَلِّقِ. لَا يَعْوَجُّ فَيُقَامَ، وَ لَا يَزِيغُ فَيُسْتَعْتَبَ، وَ لَا**

(١) نهج البلاغة، ص٢٧٩.

(٢) نهج البلاغة، ص٣٩٦.

(٣) نهج البلاغة، ص٢٦٦.

(٤) ينظر قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا﴾، الكهف/ ١.

تُخْلِقُهُ كَثْرَةُ الرَّدِّ وَ وُلُوجُ السَّمْعِ. «مَنْ قَالَ بِهِ صَدَقَ، وَ مَنْ عَمِلَ بِهِ سَبَقَ»))[1]، فالقرآن لا يعوج فيحتاج إلى من يعدله ويصححه ويجعله مستقيما، ولا يميل فيطلب منه الانصراف عن زيغه والرجوع إلى الجادة والصواب وإنما معتدل لا انحراف فيه ولا خلل[2].

بالنتيجة فالقرآن الكريم منهج متكامل يتفوق على كل المناهج ووسطيته التشريعية لا إفراط فيها ولا تفريط ولا تؤدي إلى الضلال والانحراف، وفي المناسبة نفسها من كلام الإمام عليه السلام الهادف لبلورة مقاييس ومميزات المصدر الموثوق المتمثل بالقرآن الكريم وتحكيمه في كل الشؤون الثقافية والفكرية...؛ لأنه كتاب مستقيم يقول عليه السلام: ((**ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْهِ الْكِتَابَ نُوراً لَا تُطْفَأُ مَصَابِيحُهُ، وَ سِرَاجاً لَا يَخْبُو تَوَقُّدُهُ، وَ بَحْراً لَا يُدْرَكُ قَعْرُهُ، وَ مِنْهَاجاً لَا يُضِلُّ نَهْجُهُ، وَ شُعَاعاً لَا يُظْلِمُ ضَوْءُهُ، وَ فُرْقَاناً لَا يُخْمَدُ بُرْهَانُهُ، وَ تِبْيَاناً لَا تُهْدَمُ[تنهدم] أَرْكَانُه وَ شِفَاءً لَا تُخْشَى أَسْقَامُهُ، وَ عِزّاً لَا تُهْزَمُ أَنْصَارُهُ، وَ حَقّاً لَا تُخْذَلُ أَعْوَانُهُ. فَهُوَ مَعْدِنُ الإيمان وَ بُحْبُوحَتُهُ، وَ يَنَابِيعُ الْعِلْمِ وَ بُحُورُهُ،...**))[3]، فالمنهاج هنا كما اتفق الشارحون هو الطريق الواضح المستقيم والنهج والسلوك، ومن ثم فإن من أخذ بالقرآن الكريم فإنه سلك

(١) نهج البلاغة، ص٣٢٠-٣٢١.

(٢) ينظر: ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ٩/ ٢٠٤؛ البحراني، شرح نهج البلاغة (الكبير)، ٣/ ٢٦٤؛ التستري، بهج الصباغة في شرح نهج البلاغة، ١٣/ ٥١-٥٢؛ الكاشاني، تنبيه الغافلين وتذكرة العارفين، ١/ ٧٢١ (فارسي)؛ الشيرازي، توضيح نهج البلاغة، ٢/ ٤٠٤-٤٠٥؛ الموسوي، شرح نهج البلاغة، ٣/ ١٢؛ الخوئي، منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، ٩/ ٢٩٠؛ عبد الزهراء الخطيب، مصادر نهج البلاغة وأسانيده، ٢/ ٣٥٢؛ دخيل، شرح نهج البلاغة، ١٣-١٤/ ٨٤؛ عبدة، شرح نهج البلاغة، ٢/ ٦٤؛ مغنية، في ظلال نهج البلاغة، ٢/ ٤٠٤؛ المحمودي، نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة، ١/ ٤٢١.

(٣) نهج البلاغة، ص٤٧٥.

المسار المستقيم المتكامل الذي لا تيه فيه ولا انحراف، فلا يضل السائر عليه[1]، ومما تقدَّم يستفاد ما يأتي:

الوسطية التشريعية في القرآن الكريم تؤدي إلى الاستقامة وتبُعد عن الانحراف.

إن الإمام علي عليه السلام استعمل مميزات ومقاييس معنوية اتصف بها القرآن للإشارة إلى مسألة مادية، وهي أن القرآن مدون كامل من جانب ولا زيادة فيه ولا نقصان من جانب آخر.

كما يستفاد أيضاً من كلام الإمام عليه السلام أن القرآن الكريم ليس شأنه شأن بعض الكتب والمؤلفات التي تؤدي إلى الانحراف والغزو الفكري وإنما عكس ذلك يؤدي إلى بناء الفكر.

إن القرآن الكريم السهل الممتنع يخاطب الناس على قدر عقولهم كلاً يستفاد منه من موقعه واختصاصه، فضلاً عن الجانب المهم والأهم وهو الارتباط روحياً بالله سبحانه.

ومن كل ما مر يمكن القول إن الإمام علي عليه السلام حاول أن يجلي ويظهر حالة الوسطية في كتاب الله والتعريف بحقيقتها، فالذي يبد وأن هذه النقطة حساسة ومهمة للغاية عند الإمام عليه السلام لمجموعة أمور: إن الانحراف قد وصل إلى مرحلة مريبة في فهم القرآن والابتعاد عن حقيقة مضامينه وتعاليمه.

---

(١) ينظر: البحراني، شرح نهج البلاغة (الكبير)، ٣/ ٤٥٨؛ التبريزي، منهاج الولاية في شرح نهج البلاغة، ١/ ٥١٥ (فارسي)؛ الأنصاري، شرح نهج البلاغة منظوم، ٥/ ١١٨ (فارسي)؛ الشيرازي، توضيح نهج البلاغة، ٣/ ٢٧٣؛ الموسوي شرح نهج البلاغة، ٣/ ٤١٣؛ عبدة، شرح نهج البلاغة، ٢/ ٢٠٢؛ الخوئي، منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، ١٢/ ٢٩٩؛ دخيل، شرح نهج البلاغة، ٢١-٢٢/ ٢٥؛ عبد الزهراء الخطيب، مصادر نهج البلاغة وأسانيده، ٣/ ٧٠؛ الوحيد، شرح نهج البلاغة، ١٢/ ٢٢٤ (فارسي).

إن قصور الفهم قد أنتج حالة من التقييم اللا حقيقي لما جاء في القرآن من مضامين. إن تركيز الإمام عليه السلام جاء لمعالجة الأمر الواقعي الذي عاصره؛ إذ إن الإمام عليه السلام قد عاصر من الأفكار التطرفية العجيبة والغريبة وحالة من اللا وسطية في أفعال الأمة وأفكارها.

إن الإمام عليه السلام أراد أن يدرك الجميع إن لا أحد يستطيع أن يضع القرآن في مكانته الصحيحة إلا هو.

٣ـ بناء قواعد تثقيفية في المسارات العبادية.

إن المجتمعات وعلى مر الزمان لا يستوي أناسها في فهم العبادات، بل إن بعضهم يتجه فيها إلى طرفي الإفراط والتفريط، سواء في الأداء أم في الفهم المعنوي، وهذا ما يمكن ملاحظته وفي جميع المراحل التاريخية، إذ يرى بعضهم أن العبادة هي بمنزلة عمل يؤجر عليه الإنسان بالمقابل، والآخر يرى أن العبادات مجرد حركات بدنية، وذهب ثالث إلى طريق التصوف والانقطاع عن العالم[1] في حين أن الإسلام ينافي ذلك ويرفض الغلو أو الجفاء قال تعالى: ﴿**وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ**﴾[2].

---

(١) جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) يسألون عن عبادة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فلما أخبروا كأنهم تقالُّوها فقالوا وأين نحن من النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، قال أحدهم أما أنا فإني أصلي الليل أبدا، وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدا، فجاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقال: أنتم الذين قلتم كذا وكذا، أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له لكني أصوم وأفطر وأصلي وأرقد وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني، البخاري، صحيح البخاري، ٦/ ١١٦؛ ابن حبان، صحيح ابن حبان، ٢/ ٢٠.

(٢) القصص/ ٧٧.

وهذا التصور الجاهل والخاطئ عن العبادة ناشئ في بعض الأحيان عن الجهل في العبادات والمسار الوسطي فيها من دون زيادة أو نقصان[١]، لذلك نجد أن الإمام عليًّا عليه السلام قد أخذ على عاتقه مهمة تثقيف المجتمع على الوسطية والاعتدال في العبادة حتى تأخذ طريقها إلى الكمال اللانهائي، فقال عليه السلام في إحدى حكمه: **((إِنَّ قَوْماً عَبَدُوا اللهَّ رَغْبَةً فَتِلْكَ عِبَادَةُ التُّجَّارِ، وَ أن قَوْماً عَبَدُوا اللهَّ رَهْبَةً فَتِلْكَ عِبَادَةُ الْعَبِيدِ، وَ أن قَوْماً عَبَدُوا اللهَّ شُكْراً فَتِلْكَ عِبَادَةُ الْأَحْرَار))**[٢] فعبادة الراغبين والمستربحين التجار الذي يعطون الشيء بقصد العوض والثواب وطمعاً في جنته، وعبادة الراهبين خوفاً من النار وفراراً من العذاب، تذهب بهم إلى طرفي المغالاة أو التقصير، لكن الاستقامة والاعتدال والحصول على أعلى درجات العبادة هي عبادة الشكر والمعرفة عبادة الأحرار التي هي الوسط لا زيادة فيها ولا نقصان[٣].

ومن ثمَّ فإن النتيجة المستفادة أن عبادة الأحرار هي المسار الوسطي بين

(١) ثقف الرسول محمد صلى الله عليه وآله وسلم لهذا الأمر وهو التوسط في العبادات وعدم الإفراط أو التفريط فيها أو الزيادة أو النقصان بحيث تؤدي إلى أن ينفر الناس منها، فيقول صلى الله عليه وآله وسلم كما نقله الإمام الصادق عليه السلام: (إن هذا الدين متين فأوغلوا فيه برفق ولا تكرهوا عبادة الله إلى عباد الله، فتكونوا كالراكب المنبت الذي لا سفرا قطع ولا ظهرا أبقى)، الكليني، الكافي، ٢/ ٨٦؛ وبألفاظ أخرى لكن في ذات المعنى ينظر: ابن حنبل، مسند أحمد، ٣/ ١٩٩؛ الهيثمي، مجمع الزوائد، ١/ ٦٢؛ السيوطي، الجامع الصغير، ١/ ٣٨٤.

(٢) نهج البلاغة، ص ٧٧٥-٧٧٦.

(٣)ينظر: ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٩/ ٦٨؛البحراني، شرح نهج البلاغة (الصغير)، ص٦٣٣؛ شرح نهج البلاغة (الكبير)،٥/ ٣٦٠-٣٦١؛ الخوئي، الدرة النجفية، ص٣٧٣؛ الشيرازي، توضيح نهج البلاغة، ٤/ ٣٧١؛ الموسوي، شرح نهج البلاغة، ٥/ ٣٨٩؛ مغنية، في ظلال نهج البلاغة، ٤/ ٣٥٨؛ الخوئي، منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، ٢١/ ٣٠٦-٣٠٧؛ دخيل، شرح نهج البلاغة، ٣٥-٣٦/ ٢٩؛ عبدة، شرح نهج البلاغة، ٣/ ٢٠٥-٢٠٦؛ أنصاريان، شرح نهج البلاغة المقتطف من بحار الأنوار، ٣/ ٤١٥.

جانبي أقصى اليمين والشمال، والفلسفة من ذلك الشكر التحرر دون التقيد بقيد مادي أو معنوي.

وضمن منهجية التكامل في العبادة باتباع المسار الوسطي فيها حتى تتقدم في مدارج الكمال يثقف الإمام علي عليه السلام أيضاً للرفق في العبادة دون المبالغة فيها أو الجفاء[١] حتى تأخذ نتائجها ومردوداتها الإيجابية على الشخصية، ومصداق ذلك في قوله إلى الحارث الهمداني[٢]: ((**وَأَطِعِ اللهَ فِي جَمِيعِ أُمُورِكَ، فَإِنَّ طَاعَةَ اللهِ فَاضِلَةٌ عَلَى مَا سِوَاهَا. وَ خَادِعْ نَفْسَكَ فِي الْعِبَادَةِ، وَ ارْفُقْ بِهَا وَ لَا تَقْهَرْهَا، وَ خُذْ عَفْوَهَا وَ نَشَاطَهَا، إِلَّا مَا كَانَ مَكْتُوباً عَلَيْكَ مِنَ الْفَرِيضَةِ، فَإِنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ قَضَائِهَا وَ تَعَاهُدِهَا عِنْدَ مَحَلِّهَا**)).[٣]، فالوسطية هنا تكمن في قوله عليه السلام: ارفق بها (النفس) أي أن يكون معتدلاً متوسطا في العبادات المستحبة من دون إفراط فيها فيقهرها بالعنف والشدة، والفلسفة من ذلك؛ لأن العنف والشدة والإفراط في القيام بالعبادات

(١) لقد أشار الرسول محمد (صلى الله عليه وآله) وأهل بيته عليهم السلام إلى قضية الرفق في العبادة المستحبة والتوسط فيها حتى لا تأخذ طريق الانحراف ومن ثم الإضرار بالعبادات الواجبة، فيقول الرسول صلى الله عليه وآله: (خذوا من العبادة ما تطيقون فإن الله لا يسأم حتى تسأموا)، الطبراني، المعجم الكبير، ٨/ ٢٤١؛ السيوطي، الجامع الصغير، ١/ ٦٠٠؛ المتقي الهندي، كنز العمال، ٣/ ٢٩، وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (يا علي أن هذا الدين متين، فأوغل فيه برفق ولا تبغض إلى نفسك عبادة ربك، [فـ] أنّ المنبت – يعني المفرط - لا ظهرا أبقى ولا أرضا قطع، فاعمل عمل من يرجو أن يموت هرما، واحذر حذر من يتخوف أن يموت غدا)، وقوله عليه السلام: (لا تكرهوا إلى أنفسكم العبادة)، الكليني، الكافي، ٢/ ٨٦-٨٧.

(٢) هو الحارث بن عبد الله بن كعب بن أسد بن نخلة بن حارث بن سبع بن صعب بن معاوية الهمداني المعروف بالحارث الأعور صاحب أمير المؤمنين عليه السلام، ينظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء، ٤/ ١٥٢؛ الأمين، أعيان الشيعة، ٤/ ٣٦٦.

(٣) نهج البلاغة، ٧٠٥.

موجب لكبت النشاط و عدم الإقبال وحضور القلب، ماعدا الفرائض والعبادات الواجبة فإنه لابد من قضائها في وقتها دون التوسط والرفق سواء كانت النفس نشطة أم لا[١].

والنتيجة المستخلصة هي: العبادات الواجبة لا بد من الآتيان بها بحدودها وكيفياتها. أما المستحب من العبادات التي لها نتائج إيجابية على الشخصية وبنائها التكاملي فإن الرفق هو الطريق الأمثل في العبادات المستحبة وسيرها التكاملي وما يعزز ذلك قول الرسول محمد ﷺ: ((**خذوا من العبادة ما تطيقون، فإن الله لا يسأم حتى تسأموا**))[٢] وعن الإمام الصادق عليه السلام: (**لا تكرهوا إلى أنفسكم العبادة**)[٣].

ولعل من الأمور الأخرى المهمة التي أخذت البعد التثقيفي في المسار العبادي في فكر الإمام علي عليه السلام وانتهاج الوسطية والاعتدال فيها لأنها أخذت طرفي التطرف عند الناس هي الزهد[٤]، إذ يحصل سوء الفهم في فلسفة الزهد فقد اتجهت لدى البعض إلى الرهبنة[٥] وقد رأينا فيما سبق موقف الرسول ﷺ

(١) الشيرازي، توضيح نهج البلاغة، ٤/ ٢٤٢.

(٢) المتقي الهندي، كنز العمال، ٣/ ٢٩.

(٣) الكليني، الكافي، ٢/ ٨٦.

(٤) الزهد: خلاف الرغبة، والتزهيد في الشيء خلاف الترغيب فيه، وهو العزوف عن الدنيا طلبا للآخرة، وفي حديث الزهري سئل عن الزهد في الدنيا فقال: هو أن لا يغلب الحلال شكره ولا الحرام صبره؛ أراد أن لا يعجز ويقصر شكره على ما رزقه الله من الحلال، ولا صبره عن ترك الحرام، ابن منظور، لسان العرب، ٣/ ١٩٧-١٩٨.

(٥) ولعل الأمثلة على الشخصيات التي اتجهت إلى هذا الطريق كثيرة، ومنها على سبيل المثال عثمان بن مظعون الذي اتخذ بيتاً جلس يتعبد فيه، فبلغ الرسول ﷺ ذلك، فأتاه فأخذ بعضادتي باب البيت الذي هو فيه فقال: يا عثمان أن الله عز وجل لم يبعثني بالرهبانية قالها مرتين أو ثلاثة، وأن خير الدين عند الله الحنفية السمحاء؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٣/ ٣٩٥؛ الذهبي، سير

وتشخيصه للأسلوب الخاطئ في الزهد الذي يتعارض مع فلسفة الإسلام، ولابد من القول إن النقص والقصور ليسا في المنهج وإنما في تطبيقه، إذ إن تعاليم الإسلام وشعائره العبادية تحث على الورع والتقوى والزهد، إذ حققت منهجاً وسطاً معتدلاً عماده التوازن بين النوازع الدينية ومطالب الحياة الدنيوية، بمعنى أن مجمل تعاليمه وأحكامه تهدف إلى سعادة الدارين وتقوم على الطريق الوسط وتجنب الغلو والتقصير وينهي اتباعه عن الإفراط والتفريط والجنوح إلى الدنيا والثراء[1].

ويقول الإمام علي عليه السلام فيما يخص ذلك: ((**الزُّهْدُ كُلُّهُ بَيْنَ كَلِمَتَيْنِ مِنَ الْقُرْآنِ: قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ: ﴿لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلى ما فاتَكُمْ، وَ لا تَفْرَحُوا بِما آتاكُمْ﴾[2] وَ مَنْ لَمْ يَأْسَ عَلَى الْمَاضِي، وَ لَمْ يَفْرَحْ بِالْآتِي، فَقَدْ أَخَذَ الزُّهْدَ بِطَرَفَيْهِ**))[3] فالزهد هو الاعتدال والتوسط في حب الدنيا، وعدم التوغل فيها بعدم الحزن على ما يفوت من المنافع سواء كانت متحققة أم لا وعدم الفرح بالقادم، أي بمعنى الإعراض المعنوي عن الدنيا، الإعراض بالقلب بحيث تصبح وسيلة وليست غاية، فيصبح وجود الشيء وعدمه على حد سواء، وهذا هو الزهد الحقيقي ومن أخذ به

أعلام النبلاء، ١/ ١٥٨؛ الزركلي، الأعلام، ٤/ ٢١٤، ومن ثمَّ فإن كل إفراط أو تفريط إلّا وفيه حق مضيع وما تقدم دليل على ذلك، فضلاً عن ذلك قول الرسول محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى عبد الله بن عمرو عندما بلغه انهماكه في العبادة حتى أنساه حق أهله، فقال له: يا عبد الله ألم أخبر أنك تصوم النهار وتقوم الليل، فقال: بلى يا رسول الله، قال: فلا تفعل صم وأفطر وقم ونم فإن لجسدك عليك حقا، وإن لعينك عليك حقا، وإن لزوجك عليك حقا، وإن لزورك عليك حقا، البخاري، صحيح البخاري، ٢/ ٢٤٥؛ ابن عساكر، تاريخ دمشق، ٥٤/ ٧٤.

(١) الحسيناوي، البعد التاريخي لحركة الزهاد، ص١١ وما بعدها.

(٢) الحديد / ٢٣.

(٣) نهج البلاغة، ص٨٣١.

فقد أخذ به من كل جهاته وأدركه بحقيقته[١]، لأن الذين يأسون على ما فاتهم ويفرحون بما أتاهم (أي المبالغة أو التهاون) لا يستطيعون شكر الله على نعمه بأفعالهم، وعلى عكس ذلك هي النظرة الواقعية بين موقف المتهالكين على الدنيا على نحو جنوني وموقف المتباعدين على نحو مرضي[٢]، فالزاهد لا يرى أنه ترك شيئاً ولا أخذ شيئاً[٣].

ومن هنا فإن تثقيف الإمام علي عليه السلام على الزهد هو لضمان السير التكاملي وأخذ الطابع الإسلامي، فقول الإمام علي عليه السلام ليس قولاً عشوائياً أو اعتباطياً ولا يقصد به التثقيف فحسب، وإنما هناك فلسفة معينة ورسالة في الوقت ذاته أراد إيصالها إلى المجتمع والمحيط الاجتماعي المتواجد فيه الذي أغرته الماديات بسبب الفتوحات وأخذت الثروة مآخذها في بعض الشخصيات، وقد وظف الإمام عليه السلام القرآن الكريم وتفسيره في ذلك، فقد اتخذ الآية: ﴿**مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَن نَبْرَأَهَا أَن ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ**﴾[٤] كشاهد تطبيقي.

(١) ينظر: البحراني، شرح نهج البلاغة (الكبير)، ٥/ ٤٥٤؛ الأردبيلي، شرح نهج البلاغة، ص٤٠٤ (فارسي)؛ الخوئي، الدرة النجفية، ص٣٩١؛ الأنصاري، شرح نهج البلاغة، ص١٢٠٤ (فارسي)؛ الشيرازي، توضيح نهج البلاغة، ٤/ ٤٧٢؛ التستري، بهج الصباغة في شرح نهج البلاغة، ٦/ ٣٠٨؛ الموسوي، شرح نهج البلاغة، ٥/ ٥٢٢؛ دخيل، شرح نهج البلاغة، ٣٧-٣٨/ ٧٨؛ مغنية، في ظلال نهج البلاغة، ٤/ ٤٧٠؛ الخوئي، منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، ٢١/ ٥١٤؛ الشرقي، شرح نهج البلاغة، ص٤٠٩؛ الدامغاني، جلوه تاريخ در شرح نهج البلاغة ابن أبي الحديد، ٨/ ٢٢٥ (فارسي).

(٢) شمس الدين، دراسات في نهج البلاغة، ص٢٥٥.

(٣) رزاق، العرفان الشيعي، ص٣٥٨.

(٤) الحديد / ٢٢- ٢٣.

وبذلك فإن الإمام عليًّا عليه السلام قد عالج الفهم السيء للعبادات، وأوضح المبدأ والقاعدة التي تقوم عليها، وهي الوسطية ومسارها التكاملي، ولم يقتصر الأمر على التثقيف لنوع العبادات والزهد، بل ثقف أيضاً للقضاء والقدر، وهو أمر لا يخلو أهمية من التثقيف السابق بسبب الانحرافات التي حدثت من ناحية[1] ولأنه يتعلق بسلامة الاعتقاد من غير إفراط أو تفريط، وحتى يستقيم المنهج من ناحية أخرى؛ لأن الإيمان بالقدر هو أحد عناصر الإيمان بالله، يقول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: الإيمان ((**أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره**)) [2]، لهذا ثقف الإمام علي عليه السلام لذلك عندما سأله رجل من أهل الشام(٣) عند المسير إلى معركة صفين: أكان مسيرنا إلى الشام بقضاء من الله وقدر ؟ فأجابه الإمام عليه السلام: ((**وَيْحَكَ! لَعَلَّكَ ظَنَنْتَ قَضَاءً لَازِماً، وَ قَدَراً حَاتِماً! لَوْ كَانَ**

(١) للتفاصيل عن الفرق المنحرفة التي ظهرت والتي قال بعضها بالجبر وأن أفعال العباد مخلوقة وليس للعباد فيها صنع، وقال آخرون بالتفويض بأن أفعال العباد مفوضة إليهم لا صلة لها بالله سبحانه والرد عليهم، والمذهب الصحيح وهو لا جبر ولا تفويض وهو مذهب أهل البيت عليهم السلام ينظر: السبحاني، لب الأثر في الجبر والقدر: ص/ ١٠ - ١١.

(٢) مسلم النيسابوري، صحيح مسلم، ١/ ٢٩؛ أبي داود، سنن أبي داود، ٢/ ٤١٢؛ الهيثمي، مجمع الزوائد، ٩/ ٤٠٣.

(٣) عن عكرمة قال: لما قدم علي (عليه السلام) من صفين قام إليه شيخ من أصحابه، فقال: يا أمير المؤمنين أخبرني عن مسيرنا إلى أهل الشام بقضاء وقدر، فقال علي عليه السلام والذي فلق الحبة وبرأ النسمة ما قطعنا واديا ولا علونا تلعة إلّا بقضاء وقدر، فقال الشيخ عند الله احتسب عنائي، فقال علي: بل عظم الله أجركم في مسيركم وأنتم مصعدون وفي منحدركم وأنتم منحدرون وما كنتم في شيء من أموركم مكرهين ولا إليها مضطرين، فقال الشيخ: كيف يا أمير المؤمنين والقضاء والقدر ساقنا إليها، قال: ويحك لعلك ظننته قضاء لازما وقدرا حاتما...، ابن عساكر، تاريخ دمشق، ٤٢/ ٥١٢؛ المتقي الهندي، كنز العمال، ١/ ٣٤٣-٣٤٤.

ذَلِكَ كَذَلِكَ لَبَطَلَ الثَّوَابُ وَ الْعِقَابُ، وَ سَقَطَ الْوَعْدُ وَ الْوَعِيدُ. أن اللهَّ سُبْحَانَهُ أَمَرَ عِبَادَهُ تَخْيِيراً، وَ نَهَاهُمْ تَحْذِيراً، وَ كَلَّفَ يَسِيراً، وَ لَمْ يُكَلِّفْ عَسِيراً، وَ أَعْطَى عَلَى الْقَلِيلِ كَثِيراً؛ وَ لَمْ يُعْصَ مَغْلُوباً، وَ لَمْ يُطَعْ مُكْرِهاً، وَ لَمْ يُرْسِلِ الْأَنْبِيَاءَ لَعِباً، وَ لَمْ يُنْزِلِ الْكُتُبَ لِلْعِبَادِ عَبَثاً، وَ لَا خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ وَ مَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا، ﴿ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾[1]))[2].

فاستبدل الإمام عليه السلام المفهوم الخاطئ عن القضاء والقدر في ذهن ذلك السائل الذي يؤدي إلى الضلال والانحراف بمفهوم القضاء والقدر وفلسفته؛ إذ إنه لا زيادة فيه ولا نقصان، فلا قضاء لازم ولا قدر حاتم وإنما هو الوسطية بينهما، وبين الإمام عليه السلام الفلسفة من ذلك، فلو كان قضاءً لازما وقدراً حاتما لم يبق هناك معنى وفائدة للثواب والعقاب والوعد والوعيد، و أن يملك الإنسان حريته في الفعل وعدم الفعل، فإذا ملك الاختيار ترتب الأجر و الثواب و صح الوعد و الوعيد[3].

ويمكن الخروج بنتيجة مما سبق أن الإمام عليًّا عليه السلام ثقف للمسار الوسطي في القضاء والقدر؛ لكي لا يأخذ جانبي الانحراف بل طريق الكمال، فليس قضاء لازما لا يمكن التخلف عنه أو مخالفته، ولا قدرا محتوماً، وإنما هو أمر بين أمرين على حد قول الإمام الصادق[4] عليه السلام، وفي الوقت ذاته بَينَّ الفلسفة التي تقوم على قواعد وقوانين إلهية، وهذه القواعد هي:

(١) ص / ٢٧.

(٢) نهج البلاغة، ٧٣٤.

(٣) الموسوي، شرح نهج البلاغة، ٥/ ٢٦١.

(٤) يقول الإمام الصادق عليه السلام: لا جبر ولا تفويض، بل أمر بين أمرين، الكليني، الكافي، ١/ ١٦٠؛ الصدوق، الهداية، ص١٨؛ الفتال النيسابوري، روضة الواعظين، ص٣٨.

القاعدة الأولى: أن الله سبحانه وتعالى أمر عباده تخيراً إن شأوا عملوا أو آمنوا، وإن شأوا لا، لكن في الوقت ذاته حذّرهم من أن فعل ذلك العمل يوقع في المخالفة والمحذور الذي يترتب عليه العقاب.

القاعدة الثانية: أن التكاليف الإلهية ليست شاقة ولا بسيطة، وإنما تكاليف يسيرة على وفق مقدرة الإنسان، وبما يتلائم مع طبيعة تكوينه البايلوجي.

القاعدة الثالثة: عدم سلب الاختيار في الطاعة، فلا يطع مكرهاً ولا يعص مغلوباً، بل هو الذي يعطي المجال ليظهر كلَّ ما لديه.

القاعدة الرابعة: إن لكل شيء فلسفة وهدفاً، فليس إرسال الأنبياء لعباً دون ذلك الهدف وتلك الفلسفة، ولم ينزل القرآن الكريم عبثا كلاماً لا فائدة منه، حاشا ذلك، ولا خلق ما بين السموات والأرض باطلا، وإنما هي قائمة على تلك القاعدة والهدف.

ولا نجد أن نهج البلاغة يخلو من التثقيف لأهم وسيلة من وسائل الاتصال بالله سبحانه وتعالى وهي الصلاة[1] والمسار الوسطي فيها، لكي تأخذ طريقها وفلسفتها الإصلاحية[2]، فيقول عليه السلام في وصيته إلى محمد بن أبي بكر حين قلده

(١) يقول الله تعالى في كتابه العزيز في ذلك المعنى: ﴿كَلاَّ لاَ تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾، العلق / ١٩، وهو دور الصلاة من ركوع وسجود في القرب من الله سبحانه وتعالى.

(٢) نجد أن القرآن الكريم قد تحدث وبآيات واضحة وصريحة عن فلسفة الصلاة ودورها في الإصلاح سواء على المستوى الفردي الخاص أم على المستوى الجماعي العام، يقول جل وعلا: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ أن الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾، هود / ١١٤، وفي آية أخرى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ أن الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾، العنكبوت / ٤٥، كما بين نتيجة الابتعاد عن الصلاة وأثرها في الانحراف: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾، مريم / ٥٩.

مصر سنة ٣٦هـ: ((**صَلِّ الصَّلَاةَ لِوَقْتِهَا الْمُؤَقَّتِ لَهَا، وَ لَا تُعَجِّلْ وَقْتَهَا لِفَرَاغٍ، وَ لَا تُؤَخِّرْهَا عَنْ وَقْتِهَا لِاشْتِغَالٍ، وَ اعْلَمْ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ مِنْ عَمَلِكَ تَبَعٌ لِصَلَاتِكَ.**))[1]، فالوسطية تكمن في أداء الصلاة في وقتها المحدود من غير إفراط بتقديمها على وقتها المحدود ولا تفريط بتأخيرها عن وقتها، وهذه الوسطية تقوم على فلسفة وهي أن كل شيء في الحياة مرتبط بالصلاة، ولا يمكن حدُّها وتضييقها فقط بقبول الأعمال كما قال الشرّاح النهج[2] من أن كل شيء مرتبط بالصلاة؛ لأنها عمود الدين، وأفضل العبادات إن قبلت قبل ما سواها من الأعمال[3]، وهذا صحيح لكن لا يمكن حدها فقط بذلك، وإنما هناك جوانب أخرى ترتبط بالصلاة وجزء من فلسفتها الوسطية دون إفراط وتفريط يمكن إدراجها بما يلي:

في البداية لابد من القول إن النص المتقدم هو عهد الإمام عليه السلام إلى محمد بن أبي بكر حين قلَّده مصر، من ثم فهو عهد سياسي يتضمن المبادئ التي يجب أن يسير عليها الحاكم، ومن ثم عندما يأمر الإمام عليه السلام محمد بن أبي بكر بأداء الصلاة في وقتها من دون إسراف أو إهمال في الزمن، فإن هناك فلسفة من ذلك تخص الحاكم

(١) نهج البلاغة، ص٥٧٩.

(٢) ينظر: الراوندي، منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، ٣/ ٦٤-٦٥؛ الكندري البيهقي، ٤/ ٢٢؛ البحراني، شرح نهج البلاغة (الكبير)، ٤/ ٤٢٨-٤٢٩؛ الخوئي، الدرة النجفية، ص٣١٢؛ دخيل، شرح نهج البلاغة، ٢٥-٢٦/ ٨٥-٨٦؛ الموسوي، شرح نهج البلاغة، ٤/ ٢٢٤-٢٢٥.

(٣) وفي هذا إشارة إلى حديث للرسول محمد صلى الله عليه وآله ورد في مصادر الفريقين وبألفاظ مختلفة، بأن عمود الدين الصلاة، وهي أول ما ينظر فيه من عمل ابن آدم، فإن صحت نظر في عمله، وإن لم تصح لم ينظر في بقية عمله،و من أقامها فقد أقام الدين، ومن هدمها فقد هدم الدين، ينظر: الشيخ الطوسي، تهذيب الأحكام، ٢/ ٢٣٧؛ الحلي، نهاية الأحكام، ١/ ٣٠٧؛ السيوطي، الجامع الصغير، ٢/ ١٢٠ المتقي الهندي، كنز العمال، ٧/ ٢٨٤؛ الكاشاني، الوافي، ٧/ ٢٩؛ العجلوني، كشف الخفاء، ٢/ ٣٢.

بصورة خاصة بوصفه المخاطب والآخرين بصورة عامة، وهي عند أداء الصلاة في وقتها المحدد فإن هذا يبعث على الانضباط والمحافظة والالتزام ليس في الصلاة فحسب وإنما في جميع الأمور الأخرى.

إن شعور المصلي بالعبودية والخشوع والخضوع لله سبحانه وتعالى يؤدي إلى التواضع وعدم التكبر، وهذا من صلب فلسفة الصلاة وأهميتها ولاسيما في الجانب السياسي.

إن أداء الصلاة في وقتها دون تقديمها لفراغ أو تأخيرها لسبب ما مهم في بعث الطاقة واللياقة البدنية وتجديد النشاط الفسيولوجي للجسم[١].

كما تقدَّم آنفًا فإن الصلاة هي نقطة اتصال العبد بربه، ومن ثم فإنها تؤدي إلى التخلق بالأخلاق الإلهية، وخير مصداق لهذا القول قوله تعالى: ﴿**وَأَقِمِ الصَّلَاةَ أن الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ**﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿**إِنَّنِي أَنَا اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي**﴾[٣].

إنها وسيلة من وسائل الاستعانة لكل شيء قال تعالى: ﴿**وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ**﴾[٤] وقال: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ**﴾[٥] بما فيها من محو الذنوب، و القضاء على التوتر وتحقيق التوازن النفسي.

---

(١) الفهداوي، الإعجاز الإلهي في العبادات البدنية (الصلاة انموذجاً)، ص٧٠-٧٣.

(٢) العنكبوت / ٤٥.

(٣) طه / ١٤.

(٤) البقرة / ٤٥.

(٥) البقرة / ١٥٣.

وربما من أجمل أهداف الصلاة ومن المظاهر الحضارية والصحية والجمالية هو الطهارة والنظافة البدنية سواء طهارة البدن أم الثياب: ﴿**يَا بَنِي آَدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ**﴾(١).

ولم يقتصر الإمام عليه السلام على التثقيف للمسار الوسطي بأداء الصلاة في وقتها المحدد دون إفراط أو تفريط، فلم يتوقف عند هذا المسار فحسب، بل حرص عليه السلام أيضاً على الإحاطة بجميع المسارات الوسطية في الصلاة لأهميتها وآثارها المادية والمعنوية في حياة الإنسان(٢)، ومن ثم كي تأخذ نتائجها الإيجابية والابتعاد عن السلبية أن أخذت أدنى اليمين والشمال(٣) وخير مصداق على هذا قوله عليه السلام في

(١) الأعراف / ٣١، وينظر القمي، تفسير القمي، ١/ ٢٢٧؛ مغنية، التفسير المبين، ص١٩٦.

(٢) لقد وضح الإمام علي عليه السلام آثار الصلاة ونتائجها على حياة الإنسان حينما قال عليه السلام: تَعَاهَدُوا أَمْرَ الصَّلَاةِ، وَ حَافِظُوا عَلَيْهَا، وَ اسْتَكْثِرُوا مِنْهَا، وَ تَقَرَّبُوا بِهَا، فَإِنَّهَا ﴿كانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتاباً مَوْقُوتاً﴾، النساء/ ١٠٣، أَ أَلَا تَسْمَعُونَ إِلى جَوَابِ أهل النَّارِ حِينَ سُئِلُوا: ﴿ما سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ۞ قالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾، المدثر/ ٤٢-٤٣، وَ إِنَّهَا لَتَحُتُّ الذُّنُوبَ حَتَّ الْوَرَقِ، وَ تُطْلِقُهَا إِطْلَاقَ الرِّبَقِ، وَ شَبَّهَهَا رَسُولُ الله - صلَّى الله عَلَيْه وآله وَسَلم- بِالْحُمَّةِ[الجمّة] تَكُونُ عَلَى بَابِ الرَّجُلِ، فَهُوَ يَغْتَسِلُ مِنْهَا فِي الْيَوْمِ وَ اللَّيْلَةِ خَمْسَ مَرَّاتٍ، فَمَا عَسَى أن يَبْقَى عَلَيْهِ مِنَ الدَّرَنِ؟ وَ قَدْ عَرَفَ حَقَّهَا رِجَالٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ لَا تَشْغَلُهُمْ عَنْهَا زِينَةُ مَتَاعٍ، وَ لَا قُرَّةُ عَيْنٍ مِنْ وَلَدٍ وَ لَا مَالٍ. يَقُولُ اللهُ سُبْحَانَهُ: ﴿رِجالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجارَةٌ وَ لا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَ إِقامِ الصَّلاةِ وَ إِيتاءِ الزَّكاةِ﴾، النور/ ٣٧. وَ كَانَ رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيْه وَآله - نَصِباً بِالصَّلَاةِ بَعْدَ التَّبْشِيرِ لَهُ بِالْجَنَّةِ، لِقَوْلِ الله سُبْحَانَهُ: ﴿وَ أْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَ اصْطَبِرْ عَلَيْها﴾، طه/ ١٣٢، فَكَانَ يَأْمُرُ بِهَا أَهْلَهُ وَ يَصْبِرُ عَلَيْهَا نَفْسَهُ، نهج البلاغة، ص٤٧٧- ٤٧٨.

(٣) وهناك حادثة تروى في زمن الرسول محمد (صلى الله عليه وآله) أنه أتى رجل إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: إني أتأخر عن صلاة الغداة من أجل فلان مما يطيل بنا، فقال الراوي فما رأيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم أشد غضبا في موعظة منه يومئذ، فقال يا أيها الناس أن منكم لمنفرين فأيكم ما صلى بالناس فليتجوز فإن فيهم الضعيف والكبير وذا الحاجة. ابن حنبل، مسند أحمد،

عهده لمالك الأشتر حين قلَّده مصر: ((**وَلْيَكُونَنْ فِي خَاصَّةِ مَا تُخْلِصُ بِهِ للهِ دِينَكَ: إِقَامَةُ فَرَائِضِهِ الَّتِي هِيَ لَهُ خَاصَّةً، فَأَعْطِ اللهَ مِنْ بَدَنِكَ فِي لَيْلِكَ وَ نَهَارِكَ، وَوَفِّ مَا تَقَرَّبْتَ بِهِ إِلى اللهِ مِنْ ذَلِكَ كَامِلًا غَيْرَ مَثْلُومٍ وَ لَا مَنْقُوصٍ، بَالِغاً مِنْ بَدَنِكَ مَا بَلَغَ. وَ إِذَا قُمْتَ فِي صَلَاتِكَ لِلنَّاسِ، فَلَا تَكُونَنَّ مُنَفِّراً وَ لَا مُضَيِّعاً، فَإِنَّ فِي النَّاسِ مَنْ بِهِ الْعِلَّةُ وَ لَهُ الْحَاجَةُ. وَ قَدْ سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ -صَلَّى الله عَلَيْهِ وآله وَسَلَمَ- حِينَ وَجَّهَنِي إِلى الْيَمَنِ كَيْفَ أُصَلِّي بِهِمْ؟ فَقَالَ: «صَلِّ بِهِمْ كَصَلَاةِ أَضْعَفِهِمْ، وَ كُنْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً**»))[1].

فالإمام علي عليه السلام يثقف في النص المتقدم للوسطية في أداء الصلاة، فالمأموم يجب أن يكون معتدلاً متوسطا في صلاته بين المطول المنفر للناس بتطويله وبين المقصر المضيع لأركان الصلاة، والفلسفة من ذلك لأن المبالغة في الصلاة أو التقصير فيها كلاهما فيه مفسدة تضر الناس، لأن في الناس من به المرض الذي لا يتمكن من إطالة، ومن له الحاجة، أو أصحاب الأشغال والأعمال التي تفوت إذا أطال صلاته، وهذا القول ليس اعتباطاً وإنما موثق بحديث للرسول صلى الله عليه وآله وسلم حين بعث الإمام عليًّا عليه السلام لليمن أن يصلي بالناس صلاة أضعفهم أي التوسط في الصلاة وأن يكون بهم رحيماً[2]، بالنتيجة يمكن القول إنها من أكثر النصوص التي أبدع فيها

٥/ ٢٧٣؛ البخاري، صحيح البخاري، ١/ ١٧٢.

(١) نهج البلاغة، ص٦٧٣.

(٢) ينظر: ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٧/ ٩٠؛ البحراني، شرح نهج البلاغة، ٥/ ١٧٨-١٧٩؛ عبدة، شرح نهج البلاغة، ٣/ ١١٤ ؛ دخيل، شرح نهج البلاغة، ٢٩-٣٠/ ١٠٣؛ الخوئي، منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، ٢٠/ ٢٨٣؛ أنصاريان، شرح نهج البلاغة المقتطف من بحار الأنوار، ٣/ ٢٦٣؛ مغنية، في ظلال نهج البلاغة، ٤/ ١٠٧؛ الشيرازي، توضيح نهج البلاغة، ٤/ ١٨٥-١٨٦؛ الموسوي، شرح نهج البلاغة، ٥/ ٦٧ عبد الزهراء الخطيب، مصادر نهج البلاغة وأسانيده، ٣/ ٤٠٥.

الشارحون في بيان الوسطية بألفاظها ومفرداتها التوسط والاعتدال وفي بيان طرفي الإفراط والتفريط ومن ثم الفلسفة من ذلك.

المبحث الثاني

المسارات الوسطية في الاعتقاد بمقام الإمامة وأبعادها الولائية

أخذت الوسطية الاعتقادية في فكر الإمام علي عليه السلام كثيراً من الاهتمام ونالت حيزاً كبيراً في نهج البلاغة، لما لها من نتائج كبيرة وخطيرة على المستوى الديني، لكونها فريضة من الفرائض الواجبة[1]، ومن متممات الدين الإسلامي، فهي تمثل الأمان والابتعاد عن الخطر وتثبيت أسس العقيدة الحقة، والابتعاد عن التطرف الذي قد يحصل نتيجة الوكس أو الشطط، فخرَّجها الإمام علي عليه السلام بأسلوب يغلق الباب أمام أي شذوذ وعدول عن مضامينها وأهدافها الحقيقية، وعمل على إعادة تشكيل المنظومة الثقافية الدينية التي تعرضت للخلل.

وأولى المسائل التي ذكرها الإمام عليه السلام هي الولاية التكوينية، الوسطية المقامية والمكانية لأصل من أصول الدين وهو الإمامة الذي مثله أئمة أهل البيت عليهم السلام، وثبته الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بقوله: ((**إني تارك فيكم الثقلين: كتاب الله عز وجل، وعترتي أهل بيتي، ألا وهما الخليفتان من بعدي، ولن يفترقا حتى يردا علي الحوض**))[2]، فيقول عليه السلام بهذا الخصوص في خطبة ذكر ضمنها صفات أئمة الدين عليهم السلام: ((**وَإِنَّمَا الْأَئِمَّةُ قُوَّامُ اللهِ عَلَى خَلْقِهِ، وَ عُرَفَاؤُهُ[3] عَلَى عِبَادِهِ؛ وَ لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَنْ عَرَفَهُمْ**

---

(١) عن الإمام الصادق عليه السلام قال: ((كانت الفريضة تنزل بعد الفريضة الأُخرى، وكانت الولاية آخر الفرائض، فأنزل الله عز وجلّ: ((اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي))، قال: يقول الله عزّ وجلّ: لا أنزِّل عليكم بعد هذه فريضة، قد أكملت لكم الفرائض))، الكليني، الكافي، ١/ ٢٨٩.

(٢) الصدوق، الأمالي، ص٥٠٠؛ وينظر باختلاف الألفاظ لكن في المعنى ذاته، النسائي، السنن الكبرى، ٥/ ٤٥؛ الحاكم النيسابوري، المستدرك، ١/ ٩٣؛ البيهقي، السنن الكبرى، ١٠/ ١١٤.

(٣) عَرِيف القوم سيِّدهم. والجمع عُرَفاء، وهو القيّم والسيد؛ لمعرفته بسياسة القوم ويتعرَّف الغير منه

وَ عَرَفُوهُ، وَ لَا يَدْخُلُ النَّارَ إِلَّا مَنْ أَنْكَرَهُمْ وَ أَنْكَرُوهُ)).[1] وهنا حدَّد الإمام عليه السلام الوسطية الاعتقادية في هذا المقام بوسطية الأئمة عليهم السلام؛ لكونهم الحد الفاصل بين الخير كله والباطل كله، فهم الوسط بين الجنة والنار، أي بمعنى أن الإمامة لها آثار ونتائج، فهي وسيط بين الجنة والنار، فالتناسب طردي بين الوسط والنتيجة؛ إذ إن الوسط الاعتقادي هو المسؤول عن النتيجة التكاملية، فالأخذ به دخول الجنة وتركه دخول النار.

وقد اتفق الشارحون على أن مقصد الإمام عليه السلام أن الإمامة أصل من أصول الدين وركن من أركانه، ولا يمكن دخول الجنة إلّا باتباع الشريعة ولزوم العمل بها ولا يمكن الوصول لذلك إلّا بمعرفة الإمام، ومن ثم فإن دخول الجنة مستلزم لمعرفة الإمام للمأمومين، ولا يُشترط في معرفتهم المعرفة الشخصية العينية، بل المعرفة على وجه كلي وهو العلم أن كل من اعتقد حق إمامتهم واهتدى بهديهم فهو ولي لهما وإن لم يشترط المشاهدة، و أن من أنكر الولاية التي هي من أصول الدين استلزم دخول النار، واستشهد الشارحون بحديث من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتةً جاهلية[2]، فمن لم يعرف الإمام كان تاركاً لأصل من أصول الدين أي تاركاً الواجب، وكان إثماً مستلزماً لدخول النار[3].

أَحوالهُم، والعَريفُ النَّقِيب دون الرئيس، ابن منظور، لسان العرب، ٩/ ٢٣٨؛ أبو بكر الرازي، مختار الصحاح، ص٢٢٥؛ الطريحي، مجمع البحرين، ٥/ ٩٧.

(١) نهج البلاغة/ ٣١١.

(٢) الأزدي، الإيضاح، ص٧٤؛ ابن طاوس، إقبال الأعمال، ٢/ ٢٥٢؛ المازندراني، شرح أصول الكافي، ٥/ ١٩٩؛ المجلسي، بحار الأنوار، ٣٢/ ٣٢١؛ الطبرسي، مستدرك الوسائل، ١٢/ ٢٨٩.

(٣) ينظر: الكندري البيهقي، حدائق الحقائق في شرح نهج البلاغة، ١/ ٦٦٤؛ البحراني، شرح نهج البلاغة(الكبير)، ٣/ ٢٣٥-٢٣٧؛ السرخسي، أعلام نهج البلاغة، ص ١٤٥؛ الأنصاري، شرح نهج البلاغة منظوم، ٤/ ٢٦ (فارسي)؛ الشيرازي، توضيح نهج البلاغة، ٢/ ٣٧٧-٣٧٨؛ الموسوي،

وعلى ما يبدو فإن الشارحين اكتفوا بالمعنى الظاهري فقط، وهو أن الإمامة أصل من أصول الدين وإنكارهم يستلزم العقوبة بالنار، غير أن هناك معنى وهدفاً آخر قد يفهم من كلام الإمام عليه السلام وهو الوسطية المكانية لأئمة أهل البيت عليهم السلام، وهو دور الوسطية بين الله جل جلاله وبين البشر لا يُعَرف الله إلّا بمعرفتهم، ومن ثم فهم وسط بين الجنة والنار. إذ يمكن توجيه طرح الإمام علي عليه السلام بجملة أفكار:

١. أن الإمامة هي منطقة وسطية، ومن مصاديق الوسطية المكانية للإمامة هي دخول الجنة، والعكس صحيح في الآثار المترتبة على المخالفة والابتعاد عن الوسطية، وهو ما حدا بابن أبي الحديد المعتزلي بالاستشهاد بالأبيات الآتية:

لي فيك معتقد سأكشف سره ... فليصغ أربابُ النهى و ليسمعوا

و اللّه لولا حيدر ما كانت الد ... نيا و لا جمع البرية مجمعُ

و إليه في يوم المعاد حسابنا ... و هو الملاذ لنا غدا و المفزعُ

هذا اعتقادي قد كشفت غطائه ... سيضر معتقدا له أو ينفع

يا من له في أرض قلبي منزل ... نعم المراد الرحب والمستربعُ [1]

٢. أن دور الأئمة عليهم السلام ليس دوراً زمانيّاً مؤقتاً، فلا يقتصر على مجرد إرشاد الناس وهدايتهم في الدنيا، بل هم نقطة الارتكاز في مصير الإنسان في الدنيا والآخرة.

٣. قول الإمام عليه السلام إن الخلافة اصطفاء وجعل الهي وولاية تكوينية، فعدم

شرح نهج البلاغة، ٢/ ٤٨٣؛ نواب لاهيجي، شرح نهج البلاغة، ص١٤٠ (فارسي)؛ جعفري، تفسير نهج البلاغة، ٢٥/ ٣٨ (فارسي)؛ زاده القمي، جلوه هاى حكمت، ص٥٤ (فارسي).

(١) الروضة المختارة (شرح القصائد العلويات السبع)، ص١٤٢-١٤٣.

طاعة الأئمة الشرعيين لا يعني فقدانهم الشرعية، وهذا ما نفهمه من قول الإمام عليه السلام المذكور آنفاً: ((**وَإِنَّمَا الْأَئِمَّةُ قُوَّامُ اللهِ عَلَى خَلْقِهِ**)).

٤. هناك أحاديث لأئمة أهل البيت عليهم السلام تصب في المضمون نفسه وتؤكد الفكرة نفسها، فعن أبي عبد الله الصادق عليه السلام أنه قال: ((**جاء ابن الكواء إلى أمير المؤمنين عليه السلام فقال يا أمير المؤمنين: «وعلى الأعراف رجال يعرفون كلا بسيماهم ؟ فقال نحن على الأعراف، نعرف أنصارنا بسيماهم، ونحن الأعراف الذي لا يعرف الله عز وجل إلّا بسبيل معرفتنا، ونحن الأعراف يعرفنا الله عز وجل يوم القيامة على الصراط، فلا يدخل الجنة إلّا من عرفنا وعرفناه، ولا يدخل النار إلّا من أنكرنا وأنكرناه. أن الله تبارك وتعالى لو شاء لعرف العباد نفسه، ولكن جعلنا أبوابه وصراطه وسبيله والوجه الذي يؤتى منه، فمن عدل عن ولايتنا أو فضل علينا غيرنا، فإنهم عن الصراط لناكبون، فلا سواء من اعتصم الناس به ولا سواء حيث ذهب الناس إلى عيون كدرة يفرغ بعضها في بعض، وذهب من ذهب إلينا إلى عيون صافية تجري بأمر ربها، لا نفاد لها ولا انقطاع**))[1]، وفي حديث آخر طويل ينقله الإمام علي عليه السلام عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم مما جاء فيه: والأوصياء أصحاب الصراط وقوف عليه لا يدخل الجنة إلّا من عرفهم وعرفوه، ولا يدخل النار إلّا من أنكرهم وأنكروه؛ لأنهم عرفاء الله عرفهم عليهم عند أخذ المواثيق عليهم ووصفهم في كتابه؛ فقال عز وجل: ﴿**وعلى الأعراف رجال يعرفون كلا بسيماهم**﴾ هم الشهداء على أوليائهم والنبي الشهيد عليهم[2].

---

(١) الكليني، الكافي، ١/ ١٨٤.

(٢) الصفار، بصائر الدرجات، ص٥١٨.

وكي لا ينسحب الصراع المذهبي والفكري على مقام الإمامة فيخرجها عن المسار التكاملي طالعنا فيه الإمام عليه السلام على أتم واكمل ما يكون؛ لأن القضية ليست تجردا أو تعصباً ذاتياً، بل هي مسار تكاملي للعبادة والدين بوجه عام، ويترجم هذا حديث الرسول محمد صلى الله عليه وآله وسلم: يا علي لا يحبك إلّا مؤمن ولا يبغضك إلّا منافق[1]؛ إذ جعل صلى الله عليه وآله وسلم من الإمامة فرقاناً بين الحق والباطل وبين المؤمن والمنافق، إذاً الإمامة هي مسار تكاملي للإيمان، وهذا ما أشار إليه الإمام علي عليه السلام في خطبته الشقشقية: ((**أَمَا وَ اللهِ لَقَدْ تَقَمَّصَهَا فُلَانٌ[ابن أبي قحافة] وَ إِنَّهُ لَيَعْلَمُ أن مَحَلِّي مِنْهَا مَحَلُّ الْقُطْبِ مِنَ الرَّحَا. يَنْحَدِرُ عَنِّي السَّيْلُ وَ لَا يَرْقَى إِلَيَّ الطَّيْرُ؛ فَسَدَلْتُ دُونَهَا ثَوْباً. وَ طَوَيْتُ عَنْهَا كَشْحاً؛ وَ طَفِقْتُ أَرْتَئِي بَيْنَ أن أَصُولَ بِيَدٍ جَذَّاءَ[جدّ]، أو أَصْبِرَ عَلَى طَخْيَةٍ[ظلمة] عَمْيَاءَ، يَهْرَمُ فِيهَا الْكَبِيرُ، وَ يَشِيبُ فِيهَا الصَّغِيرُ، وَ يَكْدَحُ فِيهَا مُؤْمِنٌ حَتَّى يَلْقَى رَبَّهُ! فَرَأَيْتُ أن الصَّبْرَ عَلَى هَاتَا أَحْجَى، فَصَبَرْتُ وَ فِي الْعَيْنِ قَذًى، وَ فِي الْحَلْقِ شَجًا**))[2]، فمحل الإمام عليه السلام من الخلافة والإمامة محل القطب من الرحى، فهي عليها السلام وسطها و قلبها لا تستقيم أو تعتدل إلّا به.

وقبل الولوج في كلام الشرّاح وبيانه يجدر بنا أن نعرج على معرفة كلمة قطب الرحى ومعناها في المعاجم اللغوية التي ربما قد تكون واضحة للقارئ لكن بيان المعنى اللغوي يثبت الكلام المتقدم، فالقطب كوكب بين الجدي والفرقدين، صغير أبيض لا يبرح موضعه، وتدور الكواكب حول هذا الكوكب، و قطب الرحى: الحديدة التي في الطبق الأسفل من الرحيين يدور عليها الطبق الأعلى[3]،

(١) ينظر: ابن ماجة، سنن ابن ماجة، ١/ ٤٢؛ الترمذي، سنن الترمذي، ٥/ ٣٠٦؛ النسائي، سنن النسائي، ٨/ ١١٦.

(٢) نهج البلاغة/ ٣٣-٣٤.

(٣) الفراهيدي، العين، ٥/ ١٠٧-١٠٨؛ الجواهري، الصحاح، ١/ ٢٠٤.

ومن ثم فإن مقصد الإمام عليه السلام أن محلّي منها محل القطب من الرحى، فكما أن القطب كوكب بين الجدي والفرقدين، وقطب الرحى حديدة وسط آلة الرحى، فهو عليه السلام (ليس كشخص بل كإمام) يمثل الوسط والاعتدال بين الانحراف الى اليمين أو الشمال، وأن أبا بكر ليس جاهلاً أو ساهياً أو غافلاً، بل يعلم أن محله (الإمام عليه السلام) يمثل المرتكز والوسطية بين الإفراط والتفريط، وهذا مصداق واضح للوسطية التكاملية، مع العلم أن كلام الإمام لم يحد بصعيد واحد، بل إنه جال بيانه في مناسبة أخرى سنأتي عليها فيما بعد.

وبصدد كلام الشرّاح فإنهم لم يتباينوا في موقفهم؛ إذ أشاروا إلى أن محل الإمام عليه السلام من الخلافة محل القطب من الرحى، وكما أن الرحى لا تدور إلّا على القطب ودورانها بغير القطب لا فائدة منه، كذلك نسبته إلى الخلافة، فهو الناظم لأمور المسلمين على وفق الحكمة الإلهية، ولا يمكن أن يقوم مقامه في أمر الإمامة ولا يتأهل لها غيره، كما لا يقوم غير القطب مقامه في موقعه، فحركتها من دون القطب تكون بلا ثمرة كذلك الثمرة المطلوبة من الولاية والخلافة[1].

(١) ينظر: الراوندي، منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، ١/ ١٢٢؛ الكندري البيهقي، حدائق الحقائق في شرح نهج البلاغة، ١/ ١٥٩؛ البحراني، شرح نهج البلاغة (الكبير)، ١/ ٢٥٤-٢٥٥؛ السرخسي، أعلام نهج البلاغة، ص٤٥؛ التبريزي، منهاج الولاية في شرح نهج البلاغة، ٢/ ٩٧٥-٩٧٦ (فارسي)؛ الآملي، شرح نهج البلاغة، ص٢٢٩ (فارسي)؛ الخوئي، الدرة النجفية، ص٦٢؛ الشيرازي، توضيح نهج البلاغة، ١/ ٩٥؛ الموسوي، شرح نهج البلاغة، ١/ ٧٦؛ القزويني، شرح نهج البلاغة، ١/ ١٥٤-١٥٥؛ الخوئي، منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، ٣/ ٤٠؛ أنصاريان، شرح نهج البلاغة المقتطف من بحار الأنوار، ١/ ٦٣؛ دخيل، شرح نهج البلاغة، ٢/ ١١؛ المحمودي، نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة، ٢/ ٤١٣؛ الخراساني، مفتاح السعادة في شرح نهج البلاغة، ٢/ ١٧٩-١٨٠.

ولا ريب في أنَّ الشرّاح لم يتباينوا في فهمهم للموضوع من حيث المضمون، فمن المؤكد أنه لا يمكن أن تقوم الخلافة والإمامة لغير أهل البيت عليهم السلام؛ لأنهم هم المنصوص عليهم شرعاً ودونهم لا ثمرة لها، وهذا جزء من كلام الإمام عليه السلام، فالإمام عليه السلام أراد الإشارة إلى قضية أخرى وهي أن مقام الخلافة ومكانها هو الوسط[1]، وقد ذكر عليه السلام مصداق ذلك في النص نفسه: ((**أَوْ أَصْبَرِ عَلَى طَخْيَةٍ[ظلمة] عَمْيَاءَ، يَهْرَمُ فِيهَا الْكَبِيرُ، وَ يَشِيبُ فِيهَا الصَّغِيرُ، وَ يَكْدَحُ فِيهَا مُؤْمِنٌ حَتَّى يَلْقَى رَبَّهُ**)). فالانحراف والبلاء اللذان يصيبان الصغير والكبير من مصاديق غياب الوسطية المكانية والمقامية للخلافة، ومن الأثار المترتبة على إقصاء الإمام الشرعي الذي يمثل الوسط بين الضلال والانحراف كما أشرنا فيما سبق.

ومن ثم فإن النتيجة المستخلصة أن كلام أمير المؤمنين عليه السلام لم يأتِ اعتباطا، بل يأتي دائما لمعالجة ووضع أسس ومرتكزات قد تكون دينية أو سياسية أو اجتماعية، وقد تكون فكرية، وهذه المرتكزات تمتاز بكونها مستمرة على مر التاريخ، بل إن لها أبعاداً ليست آنية بل مستقبلية، لظهور أفكار وسلوكيات متشددة أو متطرفة أو مقصرة في المجتمع الإسلامي، لذا نجد أن الإمام يبرز المنهج الوسطي والمسار التكاملي في الاعتقاد والمعالجات المحذرة من الغلو والتشدد في مختلف المسارات وأهمها المسار الاعتقادي، فدائماً ما يؤكد على أن الإمامة المتمثلة بأهل البيت

(١) هناك التفاتة من ابن أبي الحديد في محاولة فهم ما أراد الإمام عليه السلام يقول: ((كما أن الرحى لا تدور إلّا على القطب، و دورانها بغير قطب لا ثمرة له و لا فائدة فيه- كذلك نسبتي إلى الخلافة، فإنها لا تقوم إلّا بي، و لا يدور أمرها إلّا علي،. هكذا فسروه و عندي أنه أراد أمرا آخر، و هو أني من الخلافة في الصميم، و في وسطها و بحبوحتها، كما أن القطب وسط دائرة الرحى)) شرح نهج البلاغة، ١/ ١٥٣، وهذه الالتفاتة أقرب للواقع في فهم الفكرة التي أراد الإمام عليه السلام إيصالها؛ وينظر أيضاً الغروي، الأمثال والحكم المستخرجة من نهج البلاغة، ص٤٥٧.

عليهم السلام هي الوسط بين التقصير والغلو، ونجد مصداق ذلك أيضاً في قوله عليه السلام: **((نَحْنُ النُّمْرُقَةُ الْوُسْطَى، بِهَا يَلْحَقُ التَّالِي، وَ إِلَيْهَا يَرْجِعُ الْغَالِي))**[1]. وهذه هي مزية النمرقة الوسطى؛ إذ إن جل الوسطية التكاملية تمحورت فيها، لابتعادها عن طرفي الإفراط والتفريط.

ومن خلال استقراء طبيعة التعامل مع كلام الإمام عليه السلام هذا يمكن تقسيم الآراء حوله إلى:

الرأي الأول: وهو الرأي الذي مثله الشارحون الأوائل لنهج البلاغة، ولاسيما السرخسي الذي أشار إلى أن مقصد الإمام عليه السلام من قوله نحن النمرقة الوسطى أن ولايته متوسطة بين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وبين من بعده من الأئمة، والمتوسط بين الشيئين يلحق به التالي التابع والغالي الذي تجاوز الحد يرجع آخر الأمر إلى الوسط، لأنّ الوسط من كل شيء هو العدل، و من كان على طرفيه فإمّا أن يكون طالبا للوسط فيكون تاليا يصل إليه، و من جاوز الوسط إلى الآخر فإنه يكون غاليا[2]، ونستطيع أن نسجل عدة ملاحظات على هذا الرأي يمكن إدراجها بما يأتي:

١- أن هذا الرأي بعيد كل البعد عن مغزى قول الإمام عليه السلام، فلا يمكن أن يكون الإمام عليه السلام يقصد توسط ولايته بين الرسول صلى الله عليه وآله وسلم والأئمة، ولاسيما أنه تحدث بصيغة الجمع؛ إذ قال نحن النمرقة الوسطة أي الأئمة (عليهم السلام) جميعاً وليس شخصه.

٢- قوله إن الوسط من كل شيء هو العدل قول متهافت؛ لأنه جعل ولاية الإمام عليه السلام متوسطة بين ولاية الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وبين ولاية الأئمة (عليهم السلام)،

(١) نهج البلاغة، ص٧٤٤.

(٢) أعلام نهج البلاغة، ص ٢٩٧.

وحاشا الرسول ﷺ والأئمة عليهم السلام أن تكون ولايتهم غير عادلة.

وليس رأي السرخسي وحده فحسب لم يكن صائباً في فهم مغزى قول الإمام عليه السلام، بل نجد أيضاً أن الراوندي جعل النمرقة الوسطى أهل البيت عليهم السلام، وهذا صحيح، ولو اكتفى بذلك لكان رأياً صائباً لكنه أردفه بقول والنمرقة العظمى الرسول محمد ﷺ[1]، ومن دون شك أن الإمام عليه السلام هنا لا يقصد التعريف بالأئمة (صلوات الله عليهم)، فإنما قوله نحن النمرقة الوسطى أي أن الرسول ﷺ وأهل بيته عليهم السلام الوسط بين الغاليين والمقصرين بقرينة رجوع الغالي والتالي أي المقصر والغال والمفرط والمُفرط.

أما الرأي الثاني: فهو الرأي الأقرب إلى الصحة، ومع أن هناك اختلافاً في بعض جزئيات كلامهم إلّا أنه يمكن توحيدها، ويقول: بأن أهل البيت عليهم السلام هم أئمة الحق على الصراط المستقيم والعدل المتوسط بين طرفي الإفراط والتفريط، فهم (عليهم السلام) الأمر المتوسط بين الطرفين المذمومين، وبما أنهم الوسط بين طرفي الإفراط والتفريط فيلحق بهم المنحرفون عن طريقهم والمتخلف عنهم أي المفرط والمفرط الغالي والتالي[2].

---

(١) منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، ٣/ ٣٠٢.

(٢)ينظر: بيهقي خرساني، معارج نهج البلاغة، ص٤١٩؛ الكندري البيهقي، حدائق الحقائق في شرح نهج البلاغة، ٢/ ٦٣٣-٦٣٤؛ الأردبيلي، نهج البلاغة، ٣٥٧ (فارسي)؛ ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٨/ ٢٧٣؛ البحراني، شرح نهج البلاغة (الكبير) ٥/ ٢٩٧؛ اختيار مصباح السالكين (شرح نهج البلاغة الصغير)، ص٦٠٤؛ الكاشاني، تنبيه الغافلين وتذكرة العارفين، ٢/ ٦٣٧-٦٣٨ (فارسي)؛ الخوئي، الدرة النجفية، ص٣٦٣؛ القمي، شرح حكم نهج البلاغة، ص٢٥٣-٢٥٤؛ الشيرازي، توضيح نهج البلاغة، ٤/ ٣١٢؛ عبدة، شرح نهج البلاغة، ٣/ ١٧٦؛ مغنية، في ظلال نهج البلاغة، ٤/ ٢٨٤؛ الخوئي، منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، ٢/ ٣٣١؛ دخيل، شرح نهج

وكانت التفاتة لبيب بيضون التفاتة جميلة جداً بكلمات اختصرت كل الآراء وأصابت كبد الحقيقة؛ إذ أوضح مقصد الإمام عليه السلام في قوله نحن النمرقة الوسطى بأن أهل البيت (عليهم السلام) هم القدوة المعتدلة للدنيا، فمن تقدم عنها عصى وظلم، ومن تأخر عنهم هوى وهلك، ومن اقتدى بهم اهتدى وسلم[1]، ومما تقدم يمكن القول:

إن الإمام عليه السلام قدّم قاعدة ثابتة للمنهجية الوسطية وهي تمركز المنهج الوسطي في أهل البيت عليهم السلام وتقديم مثال أقرب إلى الدليلية أو التوثيقية.

وإثارة المباني الفكرية وتوظيف المثال والمصداق، لينقل الأمة إلى مستوى التطبيق الصحيح عن طريق المنهج العادل من بين المناهج المنحرفة.

ومن كلام الإمام عليه السلام نستدل على خصوصية منصب الإمامة والصفات والمؤهلات المتوافرة فيهم وافتقار الآخرين لها والتأسيس لقاعدة فكرية مهمة وهي أن تنصيب الإمام عليه السلام لم يأتِ من فراغ.

ثم انتقل الإمام عليه السلام إلى بيان فلسفة الوسطية الاعتقادية وآثارها بطرح يقوم على الثوابت والمصاديق، فالوسطية ليست أهواء بل منهجاً ثابتاً من ناحية، ولكون الوسطية الاعتقادية تلامس القناعات الإيمانية من ناحية أخرى؛ إذ يقول عليه السلام بهذا الشأن: ((**شُغِلَ مَنِ الْجَنَّةُ وَ النَّارُ أَمَامَهُ! سَاعٍ سَرِيعٌ نَجَا، وَ طَالِبٌ بَطِيءٌ رَجَا، وَ مُقَصِّرٌ فِي النَّارِ هَوَى. الْيَمِينُ وَ الشِّمَالُ مَضَلَّةٌ، وَ الطَّرِيقُ الْوُسْطَى هِيَ الْجَادَّةُ، عَلَيْهَا**

البلاغة، ٣٣-٣٤ / ٥٢؛ أنصاريان، شرح نهج البلاغة المقتطف من بحار الأنوار، ٣/ ٣٦٦-٣٦٧؛ الموسوي، شرح نهج البلاغة، ٥/ ٢٨٧؛ الغروي، الأمثال والحكم المستخرجة من نهج البلاغة، ص٢٤٨- ٢٤٩؛ الجعفري، تفسير نهج البلاغة، ٩/ ١٧٠ -١٧١ (فارسي).

(١) تصنيف نهج البلاغة، ص٣٤٥.

بَاقِي الْكِتَابِ وَ آثَارُ النُّبُوَّةِ، وَ مِنْهَا مَنْفَذُ السُّنَّةِ، وَ إِلَيْهَا مَصِيرُ الْعَاقِبَةِ. هَلَكَ مَنِ ادَّعَى وَ خابَ مَنِ افْتَرى))[1].

أصبح من المُسلَّم به القول إن الطريقة الوسطى هم أهل البيت عليهم السلام بدليل ما تقدم من قول الإمام عليه السلام نحن النمرقة الوسطى[2]، وأما فيما يخص قوله هنا، فهو أيضاً يتمحور حول أهل البيت عليهم السلام، فهم المسار التكاملي بين الطرفين المضلين.

وقد أبدعت أنامل الشرّاح نهج البلاغة في بيان الوسطية ومميزاتها ومصاديقها، فالإمام عليه السلام في كلامه هذا يحث على الوسطية ولزوم المحجة البيضاء، والابتعاد عن طرفي الإضلال و الضّلال المتحورين في كلّ شيء متصوّر من العقائد، والعبادات، والأخلاقيّات، والمعاملات، والسّياسات، و العادات المتداولة بين النّاس، ولا يقف عند هذا الحد بل يتجاوزه أيضاً إلى ما هو أعظم خطراً وأبعد أثراً وهو الفكر المرتبط بكل تلك المسارات، و غيرها ممّا يتصوّر فيه الإسراف أو التقصير، ومن مصاديق الطريق الوسطى أو بالمعنى الأدق فلسفة كونها الطريق الوسطى؛ لأن مصباحها كتاب الله، وسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، فمنها منفذ السنة، أي أن السنة النبوية والشريعة الأحمدية الصحيحة تخرج منها، ومنها تنتشر التعليمات والقواعد الشرعية والأخلاقيات والمكروهات والمستحبات والاجتماعيات والاقتصاديات..فالسائر في الجادة سائر على منهاج السنة كما أن الطريق الوسطى هي التي تقرر أيضاً مصير العاقبة سواء أكانت في النعيم أو الجحيم، الجنة أو النار، فمن كانت عاقبته سيئة فإنه خالف الجادة وانحرف عنها إلى اليمين والشمال حتى وصل إلى تلك العاقبة السيئة، وبمعنى آخر فإن الطريق الوسطى هي التي

(١) نهج البلاغة، ص٥٢.

(٢) ينظر، ص ٦٨.

لا يضل الإنسان فيها لظهورها ومعرفة معالمها وحدودها والمصاديق التي بُنِيت عليها، و أما المتفرعات التي تتوزع على أقصى اليمين وأقصى الشمال فإنها تضل الإنسان و تهوي به في النار[1].

ولابد من التأكيد على أن الشرّاح أبدعوا في كلامهم المتقدم عن الوسطية، إلّا أنهم لم يشيروا إلى أهم قضية وأهم قاعدة أراد الإمام عليه السلام إيصالها إلى أذهان السامعين وهي ما هية هذا الطريق الأوسط؟ ومن يمثله؟، فاتجهوا إلى اتجاه قد يكون بعيداً نوعاً ما عند قولهم: إن الطريق الوسطى هي العدل أو أن الأنبياء ومن ثم الأئمة عليهم السلام سلكوا العدل، بعبارة أخرى أنهم طبقوا الوسطية التي هي بين الإفراط والتفريط، الزيادة والنقصان التي ذكروها في كلامهم وهذا صحيح؛ إذ إن جميع ما ذكروه من مبادئ الطريق الأوسط ومميزاته وآثاره، وهو المقصود، لكن هناك نتيجة أو حقيقة لم يصل إليها المؤرخون، وهي أن الطريق الوسطى تتمثل بالرسول صلى الله عليه وآله وأهل بيته بذاتها، فهم الطريق الوسطى بين اليمين والشمال لتطبيقهم العدل واتباعه، فتمثل بهم وفيهم، فهذا هو المغزى المطلوب وليس فقط سلوكهم الوسطية، بل إنهم هم الوسطية، والدليل على ذلك قول الإمام عليه السلام نحن النمرقة الوسطى كما تقدم.

ولكن مع ذلك فإن بعض هؤلاء الشرّاح كان متميزاً بهذا الإطار، ومنهم القزويني الذي رأى أن المقصود من الطريق الوسطى هو طريق آل محمد و ولايتهم وأن القرآن نزل في بيت آل محمد صلى الله عليه وآله وأهل البيت أدرى بما في البيت[2]، كذلك

(١) ينظر: الغروي، الأمثال والحكم المستخرجة من نهج البلاغة، ص٥٧٣-٥٧٤؛ الموسوي، شرح نهج البلاغة، ١/ ١٦١؛ القزويني، شرح نهج البلاغة، ٢/ ١٦-١٧؛ الشيرازي، توضيح نهج البلاغة، ١/ ١٠٥-١٠٦؛ دخيل، شرح نهج البلاغة، ٢/ ٤٥؛ مغنية، في ظلال نهج البلاغة، ١/ ١٣٨.

(٢) شرح نهج البلاغة، ٢/ ١٧؛ وينظر أيضاً الخوئي، منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، ٣/ ٢٣٦-

السيد عبد الزهراء الخطيب الذي استدل أيضاً على ذلك من قول الإمام عليه السلام نحن النمرقة الوسطى[1]، ومن ثَمَّ فإن ما تقدم من كلام يعني فيما يعني أموراً عدة:

هناك قاعدة ثابتة يمكن أن تستخلَص وهي أن الوسطية بمجملها تتمثل بأهل البيت عليهم السلام، فالمسار التكاملي للإيمان يتمثل بالإمامة، أما المناهج الأخرى فهي إما ضلال أو إضلال.

كلام الإمام علي عليه السلام لم يأتِ اعتباطاً ولا جزافاً، فعندما ذكر عليه السلام القاعدة بأن أهل البيت عليهم السلام هم الطريق الوسط، فإنه قدم مصاديق وقواعد وفلسفة تثبت وسطية ذلك الطريق بين الطرق المنحرفة.

إذ ربط الإمام عليه السلام بين عقيدة البعث واليوم الآخر، وبين الوسطية.

لقد دعا الإمام عليه السلام إلى ترك التمذهب، والانفتاح الفكري بالرجوع إلى الكتاب والسنة، و التطبيق الصحيح لهما هو الوسيلة للاستدلال على الطريق المستقيم.

ويُستدل أيضاً من كلام الإمام عليه السلام على أن المناهج الأخرى إن صح أن نطلق عليها هذا العنوان لم تصل إلى مرحلة الوعي والنضج والإلمام بالمنهج النبوي حتى يمكن أن تنطوي وتندرج إلى المنهج النبوي الذي هو المنهج الوسطي بحد ذاته.

ومن كل ذلك هدف الإمام عليه السلام لإيصال المجتمع إلى مستوى أقرب للكمال عن طريق اتباع المنهج الوسط المتمثل بأهل البيت عليهم السلام.

وبذلك فإن الإمام عليًّا عليه السلام قد أوضح المسار التكاملي للوسطية الاعتقادية

.٢٣٧

(١) مصادر نهج البلاغة وأسانيده، ١/ ٣٧٢.

وأدوارها وفلسفتها، وأنها ليست حركة فكرية تثير العقول، بل ضرورة من ضروريات الدين، ولابد من الإشارة قبل الاسترسال في المباني والمنطلقات والقواعد التي وضعها أمير المؤمنين عليه السلام لهذه الضرورة الدينية، وهو المتفق على إمامته بين الناس حتى من المدارس الفقهية الأخرى، فعن معمر، عن الزهري، عن عبد الله بن عباس قال: «**رأيت حسان واقفا بمنى والنبي وأصحابه مجتمعين، فقال النبي(صلى الله عليه وآله وسلم): معاشر المسلمين هذا علي بن أبي طالب عليه السلام سيد العرب والوصي الأكبر، منزلته مني منزلة هارون من موسى إلّا أنه لا نبي بعدي، لا تُقبَل التوبة من تائب إلّا بحبه، يا حسان قل فيه شيئا، فأنشأ حسان بن ثابت يقول:**

لا تقبل التوبة من تائب ... إلّا بحب ابن أبي طالب [1]

وعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): «**إذا كان يوم القيامة نصب لي منبرا طوله ثلاثون ميلا، ثم ينادي مناد من بطنان العرش: يا محمد، فأجيب فيقال لي: ارق فأكون في أعلاه، ثم ينادي الثانية: أين علي بن أبي طالب ؟ فيكون دوني بمرقاة، فتعلم جميع الخلائق بأن محمدا سيد المرسلين وأن عليا سيد الوصيين. قال أنس: فقام إليه رجل من الأنصار فقال: يا رسول الله فمن يبغض عليا بعد هذا ؟ فقال: يا أخا الأنصار لا يبغضه من قريش إلّا سفحي ولا من الأنصار إلّا يهودي، ولا من العرب إلّا دعي، ولا من سائر الناس إلّا شقي**»[2].

(١) الطبري، بشارة المصطفى، ص٢٣٤؛ ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب، ٢/ ١٤٤؛ المشغري، الدر النظيم، ص٢٨٤؛ النباطي، الصراط المستقيم، ١/ ٢٠٢؛ الكاشاني، تفسير كبير منهج الصادقين في إلزام المخالفين (فارسي)، ص٢١٩؛ الريشهري، موسوعة الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) في الكتاب والسنة والتاريخ، ١١/ ٨٧.

(٢) الطبري، بشارة المصطفى، ص ٣١٠؛ كما ينظر أيضاً هذه الرواية في الموضوعات لابن الجوزي الذي وضعها ضمن الأحاديث الموضوعة عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لوجود إسماعيل بن موسى وكونه

ولأهمية الإمامة في الأمور التشريعية والاعتقادية فإن الإمام عليه السلام قد بّين كل القواعد التي قد تؤدي إلى الانحراف عن مسارها التكاملي، ولاسيما قضية الغلو في الإمام وإخراجه من حدود الإنسانية والبشرية إلى حدود الألوهية والابتعاد عن الوسطية فيها؛ لأن الإمامة هي التسليم بالنص الإلهي في الإمامة لعلي بن أبي طالب عليه السلام ومن بعده من الأئمة عليهم السلام دون المغالاة في أحد منهم، ولأن أحد أهداف الإمامة خلق الشخصية الإسلامية ذات الأبعاد المختلفة المعتدلة في جوانبها الدينية والأخلاقية والفكرية. ولأن الغلو هو التجاوز والإفراط والخروج عن حد المعقول، بدليل قوله تعالى: ﴿**يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا**﴾ [1] وقوله: ﴿**قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ**﴾ [2]، بل نجد أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم كان له الدور الكبير في التثقيف ضد تلك الظاهرة بشكل عام حينما قال: ((إياكم والغلو في الدين فإنما هلك من كان قبلكم بالغلو في الدين)) [3]، وفي الإمام علي عليه السلام بشكل خاص؛ لأنه يمثل الدين كله، يقول صلى الله عليه وآله وسلم إن فيك شبهًا من عيسى

متهم؛ لأنه غال في التشيع، ١/ ٣٩٦. ولابد من القول إن تشيع بعض الرواة هو الذي جعل أحاديثهم غير مقبولة وإلّا فإن الحديث ليس موضوعاً، لمزيد من التفاصيل ينظر: شكري ناصر عبد الحسن، دلالات إمامة أهل البيت عليهم السلام في روايات الزهري، ص ١٩٥.

(١) النساء/ ١٧١.

(٢) المائدة/ ٧٧.

(٣) ابن حنبل، مسند أحمد، ١/ ٢١٥؛ ابن ماجة، سنن ابن ماجة، ٢/ ١٠٠٨؛ الحاكم النيسابوري، المستدرك، ١/ ٤٦٦.

بن مريم، ولولا أن تقول فيك طوائف من أمتي ما قالت النصارى في عيسى بن مريم لقلت فيك قولا لا تمر بملإ من الناس إلّا أخذوا التراب من تحت قدميك يلتمسون بذلك البركة، فغضب الأعرابيان و المغيرة بن شعبة وعدة من قريش معهم، فقالوا: ما رضي أن يضرب لابن عمه مثلا إلّا عيسى ابن مريم فأنزل الله على نبيه (صلى الله عليه وآله وسلم) ﴿**وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ أن هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ**﴾[1] (يعني من بني هاشم) ملائكة في الأرض يخلفون...[2].

وفي حديث آخر قال صلى الله عليه وآله وسلم: يا علي، أن فيك مثل من عيسى أبغضته اليهود حتى بهتوا أمَّه، أحبَّته النصارى حتى أنزلوه بالمنزلة التي ليس به،[3]. ولنخرج من تلك المقدمة ولندخل في تثقيف الإمام عليه السلام للوسطية الاعتقادية الإمامية وتحذيره عليه السلام من سلوك تلك الظاهرة الخطيرة وهي الغلو والبغض التي تعد كفراً وخروجاً عن الدين عليه السلام وابتعاداً على المباني والمبادئ التي تتميز بها(الإمامة)، فأوضح عليه السلام الوسطية في الاعتقاد بإمامته بقوله عليه السلام: ((**وَ سَيَهْلِكُ فِيَّ صِنْفَانِ: مُحِبٌّ مُفْرِطٌ يَذْهَبُ بِهِ الْحُبُّ إلى غَيْرِ الْحَقِّ، وَ مُبْغِضٌ مُفْرِطٌ يَذْهَبُ بِهِ الْبُغْضُ إلى غَيْرِ الْحَقِّ، وَ خَيْرُ النَّاسِ فِيَّ حَالًا النَّمَطُ الْأَوْسَطُ فَالْزَمُوهُ، وَ الْزَمُوا السَّوَادَ الْأَعْظَمَ فَإِنَّ يَدَ اللهِ مَعَ الْجَمَاعَةِ. وَ إِيَّاكُمْ وَ**

(١) الزخرف/ ٥٧-٦٠.

(٢) الكليني، الكافي، ٨/ ٥٧.

(٣) ابن حنبل، مسند أحمد، ١/ ١٦٠؛ الطوسي، الأمالي، ص٢٥٦؛ ابن المغازلي، مناقب علي بن أبي طالب (عليه السلام)، ص٨٤؛ ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب، ٣/ ٥٣؛ الهيثمي، مجمع الزوائد، ٩/ ١٣٣.

الْفُرْقَةَ! فَإِنَّ الشَّاذَّ مِنَ النَّاسِ لِلشَّيْطَانِ، كَمَا أَنَّ الشَّاذَّ مِنَ الْغَنَمِ لِلذِّئْبِ))[1].

وهذه حقيقة نفسية واعتقادية لا تزيدها الأيام إلّا رسوخاً لم يبقَ فيها الحاجة إلى الإسهاب فيما تخفي، فالتكامل قائم في النمط الأوسط، هو المطلوب في الاعتقاد في الإمام بين اليمين والشمال، وهم الغلاة الذين رفعوه عن درجته إلى مستوى الألوهية ولم يضعوه في مرتبته ومكانته، وهي خلافة الرسول ﷺ والتنصيص الإلهي، فقد خرجوا بالإمامة من الحق والعدل إلى الباطل والجور، وهذا هو طرف الإفراط الذي يؤدي بصاحبه إلى الهلاك، والطرف الثاني هو التفريط والمبالغة في بغض الإمام عليه السلام كالخوارج وغيرهم، فيؤدي إلى نتيجة الطرف الأول نفسها وهي الهلاك بصاحبه، وخير الناس هو النمط الأوسط، الصراط المستقيم، الوسطية بين طرفي الغالين أو المقصرين التي تؤدي بالسالك إلى الجنان[2].

ولأهمية ذلك الموضوع، وللحد من انتشار ظاهر الغلو والانحراف، والتأكيد على كمال الوسطية الاعتقادية، وبيان أهمية الإمامة ودورها الوسط بين الغلو والانحراف فقد أشار الإمام عليه السلام لذلك في مواضع عدة تساهم في الوصول للنتيجة المبتغاة، وتحول دون الوقوع في الالتباس والانحراف، منها في قوله:

---

(١) نهج البلاغة، ص٢٦٩-٢٧٠.

(٢)ينظر: الراوندي، منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، ٢/ ٤٣؛ الكندري البيهقي، حدائق الحقائق في شرح نهج البلاغة، ١/ ٥٨٢؛ البحراني، شرح نهج البلاغة (الصغير)، ص٢٨٤؛ شرح نهج البلاغة (الكبير)، ٣/ ١٣٥؛ التستري، بهج الصباغة في شرح نهج البلاغة، ١٠/ ٣٤٨؛ الشيرازي، توضيح نهج البلاغة، ٢/ ٢٧١-٢٧٢؛ الموسوي، شرح نهج البلاغة، ٢/ ٣٦٠-٣٦١؛ دخيل، شرح نهج البلاغة، ١١-١٢/ ٦٢؛ الخوئي، منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، ٨/ ١٩٩-٢٠٠؛ مغنية، في ظلال نهج البلاغة، ٢/ ٢٤٦-٢٤٧.

((**يَهْلِكُ فِيَّ رَجُلَانِ: مُحِبٌّ مُفْرِطٌ، وَ بَاهِتٌ مُفْتَرٍ**))[١]، وبهذا فإن الخروج عن حد الاعتدال والوسط تكون النتيجة الهلاك المحتوم، فالمبالغة والمغالاة في حبِّه عليه السلام ورفعه إلى منزلة الألوهية، أو وصفه بغير ما هو فيه، أو اتهامه بالباطل وتكفيره والافتراء بما هو بريء منه كل ذلك يستلزم العذاب والهلاك، لأن اليمين والشمال كلاهما تؤديان إلى ذات النتيجة[٢].

كذلك قوله عليه السلام في ذات المعنى ولكن بلفظ آخر: ((**هَلَكَ فِيَّ رَجُلَانِ: مُحِبٌّ غَالٍ وَ مُبْغِضٌ قَالٍ**))[٣]، فالوسطية الاعتدال في حبهم دون المغالاة في الحب أو المبالغة في البغض؛ لأن الولاية أصل الدين وشرط إيمان المؤمنين وتوحيد الموحدين ومعرفتهم بالخلافة عن النبي صلى الله عليه وآله والإمامة على الأمة، والإفراط والتفريط في الإمامة هو خروج عن تلك المرتبة[٤].

ولعل المتتبع لتلك الإشارات يجد أن الإمام عليه السلام أراد تحقيق أمور عدة منها، وأبرزها ما يأتي:

إشارة الإمام عليه السلام إلى طرفي الإفراط والتفريط في الاعتقاد بالإمامة والخروج عن الوسطية وبألفاظ مختلفة: ((**محب مفرط ومبغض مفرط، محب مفرط وباهت مفتر، محب غال ومبغض قال**)).

وضع الإمام عليه السلام الحجر الأساس والقاعدة لمرحلة من المراحل التاريخية التي ستشهدها الأمة من الضلال والانحراف، ودراسة الأبعاد والكيفية لحركة التاريخ

(١) نهج البلاغة، ص٨٣٧.

(٢) الموسوي، شرح نهج البلاغة، ٥/ ٥٣٧.

(٣) نهج البلاغة، ص٧٤٧.

(٤) الخوئي، منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، ٢١/ ١٨٠.

البشري والأحداث في حركة الزمن وإعطاء الإحداثيات للتحكم في مجرياتها ووجهتها بقوله عليه السلام: ((**وَ خَيْرُ النَّاسِ فِيَّ حَالًا النَّمَطُ الْأَوْسَطُ فَالْزَمُوهُ، وَ الْزَمُوا السَّوَادَ الْأَعْظَمَ فَإِنَّ يَدَ اللهِ مَعَ الْجَمَاعَةِ. وَ إِيَّاكُمْ وَ الْفُرْقَةَ! فَإِنَّ الشَّاذَّ مِنَ النَّاسِ لِلشَّيْطَانِ، كَمَا أَنَ الشَّاذَّ مِنَ الْغَنَمِ لِلذِّئْبِ**)).

الآثار والنتائج المستقبلية المترتبة على الابتعاد عن الوسطية في الاعتقاد بالإمامة هي الهلاك المحتم.

حاول الإمام عليه السلام ومن خلال التأكيد على الأمر في مناسبات مختلفة تنضيج الوعي وخلق الثقافة الواعية لفلسفة الوسطية وآثارها ونبذ الانحراف.

كان للأطروحة النبوية دورها في التثقيف لثقافة الوسطية في الاعتقاد بالإمامة؛ لأن انحرافها عن ذلك تعني انحرافاً عن المسار التكاملي في الخلافة والولاية التكوينية، والحفاظ على المدخل الأمين الوحيد إلى سنة النبي والعدل الوحيد للقرآن، لتتحقق الهداية التفصيلية التي جاء بها النبي صلى الله عليه وآله وسلم؛ إذ قال صلى الله عليه وآله وسلم ((**يا علي، أن فيك مثل من عيسى أبغضته اليهود حتى بهتوا أمه، أحبته النصارى حتى أنزلوه بالمنزلة التي ليس به**))[1]، كذلك التثقيف المستمر من الأئمة عليهم السلام، فعن الإمام زين العابدين عليه السلام يقول: إن اليهود أحبوا عزيرا حتى قالوا فيه ما قالوا، فلا عزير منهم ولا هم من عزير. وإن النصارى أحبوا عيسى حتى قالوا فيه ما قالوا، فلا عيسى منهم ولا هم من عيسى. وإنّا على سنة من ذلك، أن قوما من شيعتنا سيحبوننا حتى يقولوا فينا ما قالت اليهود في عزير، وما قالت النصارى

(١) ابن حنبل، مسند أحمد، ١/ ١٦٠؛ الطوسي، الأمالي، ص٢٥٦؛ ابن المغازلي، مناقب علي بن أبي طالب (ع)، ص٨٤؛ ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب، ٣/ ٥٣؛ الهيثمي، مجمع الزوائد، ٩/ ١٣٣.

في عيسى بن مريم، فلا هم منا ولا نحن منهم[١]، أما الإمام الصادق عليه السلام، فقد قال: لا تُصَل خلف الغالي وإن كان يقول بقولك، والمجهول والمجاهر بالفسق وإن كان مقتصدا[٢]، وقوله لإسماعيل بن عبد العزيز، يا إسماعيل ضع لي في المتوضأ ماء، فقمت فوضعت له، فدخل فقلت في نفسي: إنا أقول فيه كذا وكذا ويدخل المتوضأ يتوضأ ! فلم يلبث أن خرج، فقال: يا إسماعيل، لا ترفع البناء فوق طاقته فينهدم، اجعلونا مخلوقين وقولوا بنا ما شئتم[٣]،كما كان للإمام الرضا عليه السلام دور في التثقيف، فعن الحسن بن الجهم قال حضرت مجلس المأمون يوما وعنده علي بن موسى الرضا عليه السلام وقد اجتمع الفقهاء وأهل الكلام من الفرق المختلفة... قال له المأمون: يا أبا الحسن، بلغني أن قوما يغلون فيكم ويتجاوزون فيكم الحد. فقال الرضا عليه السلام: حدثني أبي موسى بن جعفر عن أبيه جعفر بن محمد عن أبيه محمد بن علي عن أبيه علي بن الحسين عن أبيه الحسين بن علي عن أبيه علي بن أبي طالب عليه السلام، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: لا ترفعوني فوق حقي، فإن الله تبارك وتعالى اتخذني عبدا قبل أن يتخذني نبيا، قال الله تبارك وتعالى: ﴿**مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ**﴾[٤])[٥].

(١) المجلسي، بحار الأنوار، ٢٥/ ٢٨٨.

(٢) الطوسي، تهذيب الأحكام، ٣/ ٣١.

(٣)الصفار، بصائر الدرجات، ص٢٥٦؛ الراوندي، الخرائج والجرائح، ٢/ ٧٣٥.

(٤) ال عمران / ٧٩-٨٠.

(٥) الشيخ الصدوق، عيون اخبار الرضا، ٢/ ٢١٧؛ المجلسي، بحار الأنوار، ٢٥/ ١٣٤.

وفي ضوء ذلك يمكننا القول إن الاعتقاد بالإمامة لا يستقيم إلّا في منهج الوسط ونبذ التطرف والمغالاة في الأئمة عليهم السلام؛ لأنه من مستلزمات الشرك والخروج عن مسار الكمال والاعتدال فحتى الوسطية في النص الذي تقدم فيما سبق بكونهم عليهم السلام عرفاء على العباد هو ليس تفويضاً استقلالياً خارج عن قدرة الله، بل هو تفويض مقيد ووسطية جعلية، أي كما بَيَّن الإمام عليه السلام بأن الله هو المعطي لهم تلك المنزلة وهي كونهم وسطاً ووسيطاً بين الجنة والنار، فلهم الولاية التكوينية من دون المغالاة والإفراط فيهم مع العلم أن منزلة الإمام والإمامة بشكل عام من الاستحالة الإحاطة بها ومعرفتها كامل المعرفة، كما يقول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ((**يا علي ما عرف الله إلّا أنا وأنت، وما عرفني إلّا الله وأنت، وما عرفك إلّا الله وأنا**))[1].

وإذ يفرغ الإمام علي عليه السلام من حديثة الدائر حول ضرورة الوسطية التكاملية يواصل عليه السلام طريقه في مفاهيم التهذيب وتناول المسألة في سياقاتها الكلية، فبيَّن الماهية والفلسفة من ذلك بمعنى أدق الفهم الكامل المغني بمضمونه للفلسفة من نهج الوسطية في الأئمة عليهم السلام دون التقدم عليهم أو التأخر والمغالاة فيهم، فيقول عليه السلام في هذا الصدد: ((**انْظُرُوا أهل بَيْتِ نَبِيِّكُمْ فَالْزَمُوا سَمْتَهُمْ، وَ اتَّبِعُوا أَثَرَهُمْ فَلَنْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ هُدًى، وَ لَنْ يُعِيدُوكُمْ فِي رَدًى، فَإِنْ لَبَدُوا فَالْبُدُوا، وَ أن نَهَضُوا فَانْهَضُوا. وَ لَا تَسْبِقُوهُمْ فَتَضِلُّوا، وَ لَا تَتَأَخَّرُوا عَنْهُمْ فَتَهْلِكُوا**))[2]، فالفلسفة من كون الإمامة هي الوسط؛ لأن سبق أهل البيت (عليهم السلام) تعني الضلال، وفي التأخر عنهم هلاك فهم الصراط المستقيم والوسط بين طرفي الإفراط والتفريط

(١) البرسي، مشارق أنوار اليقين، ص١٧٣؛ الحلي، مختصر بصائر الدرجات، ص١٢٥؛ البحراني، مدينة المعاجز، ٢/ ٤٣٩.

(٢) نهج البلاغة، ص٢٠٣-٢٠٤.

لأنهم الأئمة المعصومون من الخطأ والنسيان، وبهم يتحقق الصلاح ويقل الفساد وفي تقدمهم أو التأخر عنهم يقع الفساد ويقل الصلاح[١].

على أن شرح الشرّاح لمفردتي الإفراط والتفريط، هو السبق ونتيجته الضلال، والتأخر نتيجته الهلاك، وهو شرح يروي الغليل ويصب في معنى الإفراط والتفريط والوسطية، إذ قال بعضهم إن هذا نهي من الإمام عليه السلام عن سبق أهل البيت عليهم السلام وفعل ما لم يأمروا به؛ لأن في سبقهم في أمر لم يتقدموا فيه ضلال؛ لأن متقدم الدليل شأنه الضلال عن القصد كما أن التأخر عن متابعة أوامرهم ومخالفتهم هلاك[٢]، في حين أحجم الآخرون عن شرح المعنى وركزوا على بداية كلام الإمام عليه السلام عن أهل البيت عليهم السلام[٣]. وهناك التفاتة جميلة جداً من الموسوي الذي قال إن في سبق

(١) قال الرسول صلى الله عليه وآله في هذا المعنى: معاشر الناس أن الله قد أمرني ونهاني، وقد أمرت علياً ونهيته، وعليه الأمر والنهي من ربِّه عز وجل فاسمعوا لأمره، وانتهوا لنهيه وصيروا إلى مراده ولا تتفرق بكم السبل عن سبيله. أنا صراط الله المستقيم الذي أمركم باتباعه ثم علي من بعدي ثم ولدي من صلبه أئمة يهدون بالحق وبه يعدلون، الفتال النيسابوري، روضة الواعظين، ١/ ٢٢٨، فهم الصراط المستقيم المنصوص عليه من الله تعالى وبهم يتحقق الصلاح والهداية والعدل، وعن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله من سرَّه أن يحيا حياتي ويموت ميتتي ويدخل جنة عدن منزلي قصبا غرسه ربي عز وجل ثم قال له كن فكان؛ فليتول علي بن أبي طالب ولياً ثم بالأوصياء من ولده، فإنهم عترتي خلقوا من طينتي إلى الله أشكو أعداءهم من أمتي المنكرين لفضلهم القاطعين فيهم صلتي...، الفتال النيسابوري، روضة الواعظين، ١/ ٢٣٧-٢٣٨.

(٢)ينظر: البحراني، شرح نهج البلاغة (الكبير)، ٢/ ٤٠٨؛ الشيرازي، توضيح نهج البلاغة، ٢/ ١١٦؛ أنصاريان، شرح نهج البلاغة المقتطف من بحار الأنوار، ١/ ٣٢٩؛ الخوئي، منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، ٧/ ١٣٠-١٣١.

(٣) ينظر: الراوندي، منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، ١/ ٤٣٢-٤٣٣؛ الكندري البيهقي، حدائق الحقائق في شرح نهج البلاغة، ١/ ٤٨٨؛ ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ٧/ ٧٧؛ الخوئي، الدرة النجفية، ص١٥٢؛ عبدة، شرح نهج البلاغة، ١/ ١٨٩-١٩٠.

أهل البيت عليهم السلام أو التأخر عنهم ضلالاً وانحرافاً عن الصراط، لأن العمل من دون الاعتماد على الحجة مظنة الوقوع في الخطأ والانحراف[١]، أي بالمعنى انحراف عن الوسطية إلى طرفي الإسراف أو التقصير، وأن في اتباع الإمامة والاعتقاد بها تجنب الضلال والهلاك، فلن يخرجوا الناس من هدى ولن يعيدوهم في ردى.

وهنا نجد في قول الإمام عليه السلام ولن يعيدوكم في ردى إشارة وتصريحاً بأن اتباع غير الأئمة عليهم السلام يؤدي إلى التردي والعودة إلى الجاهلية، وأن الاستمرار في طريق النبوة لا يتحقق إلّا عن طريق الإمامة، فهي المرجعية الصالحة للأمة المرتبطة بمرجعية القرآن فلا تكتمل الهداية ولا يمنع الضلال إلّا بها. وأن هذه الخطبة وقول الإمام عليه السلام هو توعية وتثقيف لعصمة الأئمة عليهم السلام من الوقوع في الخطأ ودلالة هذا القول الإلهي: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا**﴾[٢].

وكذلك يُفهَم من قول أمير المؤمنين عليه السلام أن السنة الصحيحة غير المحرفة غير متوافرة ولا يمكن أن تُؤخَذ إلّا عن طريق أئمة أهل البيت عليهم السلام[٣]. و أن قول الإمام عليه السلام يعد فلسفة للجهاد، فإن تحرك أحد الأئمة عليهم السلام وقام بعملية تغير

(١) شرح نهج البلاغة، ٢/ ١٤٩.

(٢) النساء/ ٥٩.

(٣) هناك قول للإمام الصادق عليه السلام في ذات المضمون: لولا أن الله فرض ولايتنا ومودتنا وقرابتنا ما أدخلناكم ولا أوقفناكم على بابنا، فوالله ما نقول بأهوائنا، ولا نقول برأينا، ولا نقول إلّا ما قال ربنا؛ وقوله أيضاً لرجل سأله فأجابه فيها، فقال الرجل إن كان كذا وكذا ما كان القول فيها، فقال له مهما أجبتك فيه لشيء فهو عن رسول الله صلى الله عليه وآله لسنا نقول برأينا من شيء.، الصفار، بصائر الدرجات، ص٣٢٠ - ٣٢١ وينظر: المفيد: الأمالي، ص٦٠؛ المجلسي، بحار الأنوار، ٢/ ١٣٧.

وثورة فلا بد من الناس جميعا اتباعهم، وإن سكن واتبع طرقاً أخرى فلا بد من اتباعه أيضاً، ولا يمكن الخروج عن أمره.

وفي مناسبة أخرى أيضاً يذكر فلسفة الوسطية وايجابياتها وسلبيات الانحراف اليمين أو الشمال في كلامه عن الرسول ﷺ وأهل بيته عليهم السلام: **((الْحَمْدُ للهِ النَّاشِرِ فِي الْخَلْقِ فَضْلَهُ، وَ الْبَاسِطِ فِيهِمْ بِالْجُودِ يَدَهُ. نَحْمَدُهُ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِ، وَ نَسْتَعِينُهُ عَلَى رِعَايَةِ حُقُوقِهِ، وَ نَشْهَدُ أن لَا إِلَهَ غَيْرُهُ، وَ أن مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَ رَسُولُهُ، أَرْسَلَهُ بِأَمْرِهِ صَادِعاً[ناطقاً]، وَ بِذِكْرِهِ نَاطِقاً[قاطعاً] فَأَدَّى أَمِيناً، وَ مَضَى رَشِيداً؛ وَ خَلَّفَ فِينَا رَايَةَ الْحَقِّ، مَنْ تَقَدَّمَهَا مَرَقَ، وَ مَنْ تَخَلَّفَ عَنْهَا زَهَقَ، وَ مَنْ لَزِمَهَا لَحِقَ، دَلِيلُهَا مَكِيثُ الْكَلَامِ، بَطِيءُ الْقِيَامِ، سَرِيعٌ إِذَا قَامَ. فَإِذَا أَنْتُمْ أَلَنْتُمْ لَهُ رِقَابَكُمْ، وَ أَشَرْتُمْ إِلَيْهِ بِأَصَابِعِكُمْ، جَاءَهُ الْمَوْتُ فَذَهَبَ بِهِ، فَلَبِثْتُمْ بَعْدَهُ مَا شَاءَ اللهُ حَتَّى يُطْلِعَ اللهُ لَكُمْ مَنْ يَجْمَعُكُمْ وَ يَضُمُّ نَشْرَكُمْ، فَلَا تَطْمَعُوا[تطعنوا] فِي غَيْرِ[عين] مُقْبِلٍ، وَ لَا تَيْأَسُوا مِنْ مُدْبِرٍ، فَإِنَّ الْمُدْبِرَ عَسَى أن تَزِلَّ بِهِ إِحْدَى قَائِمَتَيْهِ[قدميه]، وَ تَثْبُتَ الْأُخْرَى، فَتَرْجِعَا حَتَّى تَثْبُتَا جَمِيعا))**[1].

فيشير الإمام عليه السلام في هذا النص إلى راية الحق، وهما الثقلان اللذان تركهما الرسول ﷺ في الأمة الكتاب والعترة، وفي التقدم والتأخر عنهما إشارة إلى طرفي الإفراط والتفريط من فضيلة الاستقامة أو الوسطية بين هذين الطرفين، فمن خالفها (راية الحق) متقدماً لها أو متأخراً عنها فقد خرج عن الحق، ومن لازمها فقد أصاب الحق، فالميزان لهداية الخلق واستقامتهم هو هذه الراية والتقاء الناس عندها، بل إن الابتعاد عن طرفي الإفراط والتفريط يكمن في

(١) نهج البلاغة، ص٢٠٧-٢٠٨.

هذه الراية؛ لأن الأخذ من غير الطريق المشروع هلاك، لأنه اعتمد على غيرها من رايات الضلال والانحراف أي بالمعنى طرفي الإفراط والتفريط ونتيجته السلبية المحققة وهي الهلاك والضلال[1].

(١) ينظر: ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ٧/ ٨٥؛ الخوئي، الدرة النجفية، ص١٥٣؛ الموسوي، شرح نهج البلاغة، ٢/ ١٦٣؛ أنصاريان، شرح نهج البلاغة، ص٢٦٠ (فارسي)؛ الشيرازي، توضيح نهج البلاغة، ٢/ ١٢٦-١٢٧؛ الخوئي، منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، ٧/ ١٥٨؛ مغنية، في ظلال نهج البلاغة، ٢/ ٨٩-٩٠؛ عبد الزهراء الخطيب، مصادر نهج البلاغة وأسانيده، ٢/ ١٩٣-١٩٤؛ الدشتي، فرهنگ معارف نهج البلاغة، ١/ ٢٧٦-٢٧٧ (فارسي)؛ الجعفري، تفسير نهج البلاغة، ١٨/ ٥٨-٥٩ (فارسي).

المبحث الثالث

مسارات الفكر الحضاري والعلوم التطبيقية

إن أكثر ما يلفت النظر في نهج البلاغة صفة الشمول والاستيعاب؛ إذ إن كل باحث ينهل منه في اختصاصه، فجعل ذلك منه أندر الكتب التي أُلِّفت، ولاسيما من ناحية وثاقة أفكاره ووثاقة معلوماته، ولا نبالغ إذا قلنا أن الجانب العلمي قد شكل الجزء الأكبر فيه ليس بالمعنى المادي لكن بالمعنى المعنوي؛ لأنه غطى تقريبا كل صنوف العلم سواء كانت علوماً صرفة أم علوماً إنسانية، بل إن من أبرز مميزات الفكر في نهج البلاغة تناوله سمات الفكر العلمي المتطور الذي يتطابق مع النظرة الحديثة.

ولا نريد الخوض في تفاصيل نظريات نهج البلاغة إثباتها وتطابقها مع العلم الحديث؛ إذ أصبحت أشهر من نار على علم، بل الذي يعنينا هو الوسطية في المسار العلمي، فمن دون شك أن الجانب العلمي شأنه شأن بقية الجوانب يوجد فيه إفراط وتفريط و أن هناك الوسط، ومن الملاحظ أن الإمام عليًّا عليه السلام في طرحه لمسارات الوسطية العلمية قد رسم واستخدم معنين:

المعنى المادي؛ فقد طرح عليه السلام الوسطية بمفهومها المادي بوجود جانبي إفراط وتفريط.

المعنى المعنوي فقد كانت أغلب كلمات أمير المؤمنين عليه السلام في هذا المضمار وبمعنى الوسط بين جانبين، ومع ذلك فإن استقراء الوسط يؤكد أنه لا يخرج عن المقصد وهو الوسطية وفلسفتها.

ومما لا ريب فيه أن أحد أهداف الوسطية ومقاصدها هي الابتعاد عن التخبط

والعشوائية والانحراف، فعلى الرغم من أن الإمام عليًّا عليه السلام لم يذكر أمثلة كثيرة للوسطية العلمية إلّا أنه مع قلة الأمثلة المذكورة تتضح أهمية الوسطية والفلسفة منها، وأبرز ما يذكره الإمام علي عليه السلام ضمن هذا المفهوم هو ما يتعلق بالجانب الفلكي، ولا سيما مسألة جاذبية الكواكب بعضها للبعض الآخر، فمن دون شك أنه لو لم يكن هناك وسط بين الكوكب والآخر لم تكن قائمة وهذا الوسط أو الوسطية بينها هو الجاذبية، فالجاذبية هي الوسطية أو الوسط بين كل جرم أو كوكب، وهذه الجاذبية لها دور في استقرار الكواكب بمعنى فلسفة الوسطية ودورها وأهميتها، فيقول عليه السلام بخصوص ذلك: ((**وَ نَظَمَ بِلَا تَعْلِيقٍ رَهَوَاتِ فُرَجِهَا، وَ لَاحَمَ صُدُوعَ انْفِرَاجِهَا، وَ وَشَّجَ بَيْنَهَا وَ بَيْنَ أَزْوَاجِهَا، وَ ذَلَّلَ لِلْهَابِطِينَ بِأَمْرِهِ، وَ الصَّاعِدِينَ بِأَعْمَالِ خَلْقِهِ حُزُونَةَ مِعْرَاجِهَا**...))[1].

فالوسطية في هذا النص وكما قلنا فيما سبق تتمثل في الجاذبية بين الأجرام وأمثالها إلّا أن الإمام عليًّا عليه السلام أشار إلى الجاذبية إشارة معنوية وليست مادية، فيفهم من قوله عليه السلام كأنما شبك بالأربطة بين كل جرم وأمثالها، وهذا الفهم الذي كان عليه أغلب الشرّاح؛ إذ رأوا أن المقصد من كلام الإمام عليه السلام أنه شبك وربط كل قرين وكل جرم سماوي لنفسه[2]، وهذا الفهم صحيح لكنه فهم مادي، ولم يذهبوا إلى أبعد من هذا، فما هي هذه الأربطة ؟ وماذا تمثل؟، لقد حاول محمد عبده أن يختلف قليلاً عمّا ذهب إليه الشرّاح، وقال إنه عنى بالروابط بين كل جرم

(١) نهج البلاغة، ص١٧٣-١٧٤.

(٢)ينظر: الراوندي، منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، ١/ ٣٨٨؛ الكندري البيهقي، حدائق الحقائق في شرح نهج البلاغة، ١/ ٤٥٨؛ البحراني، شرح نهج البلاغة (الكبير)، ٢/ ٣٤٦؛ السرخسي، أعلام نهج البلاغة، ص٩٠؛ الخوئي، الدرة النجفية، ص١٤٤؛ الشيرازي، توضيح نهج البلاغة، ٢/ ٥٤؛ الموسوي، شرح نهج البلاغة، ٢/ ٧٤.

وآخر الماسكة المعنوية العامة، وهي أعظم المظاهر لقدرته[١]، وهي التفاتة موفقة، إلّا أن الفهم الكامل لمقصد الإمام عليه السلام تمثل برأي محمد جواد مغنية الذي قال إن هناك تجاذباً وتماسكاً بين الكواكب على ما بينها من البعد[٢]، وليس من الغريب أن نتبنى رأي محمد جواد مغنية، لأنه الأكثر مطابقة لمقصد الإمام علي عليه السلام، وقد أثبت العلم الحديث ذلك وهي مسألة الجاذبية بين الكواكب[٣]، مع إضافة مهمة لم يشر إليها مغنية وهي أن الجاذبية هنا هي الوسط بين كل جرم وآخر وأهميتها في بقاء الكواكب قائمة في الجو. ومما مر يمكن تجسيد المفهوم العلمي للأفكار الوسطية بهذا الخصوص بما يأتي:

١. عدم إشارة الإمام علي عليه السلام للوسطية بالمعنى المادي وإنما المعنوي وذلك بما يدل على الوسطية التي تمثلت بين كل جرم ومثيله.

٢. استعمل الإمام علي عليه السلام مفردات بسيطة لإيصال معنى أبعد من ذلك فأطلق التشابك والأربطة على معنى الجاذبية، لمناسبة المستوى الفكري السائد وهي من باب خاطبوهم على قدر عقولهم.

٣. أشار الإمام علي عليه السلام إلى مسألة في غاية الدقة والعلمية وهي أن التجاذب يحدث بين الأمثال والقرائن من الأجرام والأفلاك.

وفي المضمار ذاته وهو الوسطية في الجانب الفلكي نجد أن الإمام عليه السلام قد أشار إلى مسألة في غاية الأهمية وهي الفروج في السماء، وأن الملائكة سكان تلك الفروج

(١) شرح نهج البلاغة، ١/ ١٦٥.

(٢) في ظلال نهج البلاغة، ٢/ ١٧.

(٣) متولي، وجه الأرض، ص٩؛ علي، جغرافية البحار والمحيطات، ص١٥١؛ جابر، الفكر الاختباري في نهج البلاغة، ص١١٥.

السماوية، فهم بين الفجوات أي في وسطها، ومصداق ذلك قوله عليه السلام: ((**ثُمَّ خَلَقَ سُبْحَانَهُ لِإِسْكَانِ سَمَاوَاتِهِ، وَعِمَارَةِ الصَّفِيحِ الْأَعْلَى مِنْ مَلَكُوتِهِ، خَلْقاً بَدِيعاً مِنْ مَلَائِكَتِهِ، وَمَلَأَ بِهِمْ فُرُوجَ فِجَاجِهَا**[1]**، وَحَشَا بِهِمْ فُتُوقَ أَجْوَائِهَا[أجوابها]، وَ بَيْنَ فَجَوَاتِ تِلْكَ الْفُرُوجِ**[2] **زَجَلُ الْمُسَبِّحِينَ، مِنْهُمْ فِي حَظَائِرِ الْقُدُسِ، وَ سُتُرَاتِ الْحُجُبِ، وَ سُرَادِقَاتِ الْمَجْدِ، وَ وَرَاءَ ذَلِكَ الرَّجِيجِ [الزجيج] الَّذِي تَسْتَكُّ مِنْهُ الْأَسْمَاعُ سُبُحَاتُ نُورٍ تَرْدَعُ الْأَبْصَارَ عَنْ بُلُوغِهَا، فَتَقِفُ خَاسِئَةً عَلَى حُدُودِهَا**))[3]، فالملائكة توسطوا هذه الفروج المادية لمقامهم ومكانتهم، وهو أمر فعلي، ولكنه جاء بسبب أمر معنوي، لأنهم ميزوا بالتسبيح، وهو المسار التكاملي الذي سار فيه الملائكة، لهذا فإن الله تعالى عمر بهم السماء أي أسكنهم هذا المقام، وهو أمر لا يختص به المستقر مادياً في طرف من أطراف السماء، وإنما المتوسط هو المسبح الذي حصل على هذا المقام لكمال عبادتهم، كما أن كمال الرجل في رفع صوته بالتضرع والتسبيح[4]. ونخلص إلى نتيجة مما سبق أن الملائكة توسطوا تلك الفروج لمقامهم الذي وصلوا إليه، وأن تلك الفروج بمنزلة محاريب تخرج منها التسابيح والصلوات وهي خاصة بالملائكة[5].

وممّا تقدّم يمكننا القول ربما أراد الإمام عليه السلام تحديد المقياس العلمي للعابد

---

(١) الفج الطريق الواسع بين جبلين، ابن منظور، لسان العرب، ٢/ ٣٣٩؛ أبو بكر الرازي، مختار الصحاح، ص٢٥٥.

(٢). الفرج: الخلل بين الشيئين، فرجة الحائط وما أَشبهه، يقال: بينهما فُرجة أي انفراج، ابن منظور، لسان العرب ٢/ ٣٤١.

(٣) نهج البلاغة، ص ١٧٥-١٧٦.

(٤) البحراني، شرح نهج البلاغة، ٢/ ٣٥٤-٣٥٥.

(٥) الشوبكي، ألفاظ الفلك والهيئة في نهج البلاغة، ص١٢٩-١٣٠.

سواء كان من الملائكة أم من البشر، هذا المقياس يستند إلى التسبيح، و أن الكمال في عبادة الملائكة هو الذي كان وراء مقامهم الذي وصلوا إليه، ومن هنا جاء توسطهم تلك الفروج ونظامها بوجودهم وجعلهم مدبرين لها، ويبدو من كلام الإمام عليه السلام للوهلة الأولى أنه ديني بحت، ولكن البعد العلمي والإشارة العلمية كانت حاضرة فيه والمتمثلة بسكن الملائكة للسماء أو الكواكب، ولاسيما أن هناك روايات عن أهل البيت عليهم السلام حول سكان الكواكب[1].

ويمكن الخروج بمسألة مهمة أشار إليها الإمام علي عليه السلام وهي مع ارتفاع أصوات الملائكة بالتسبيح والتضرع؛ إذ وصفه الإمام عليه السلام بأنه صوت تستك منه الأسماع ولا يمكن للإنسان سماع تلك الأصوات؛ لأنه لا توجد عنده الإمكانات المادية والمعنوية.

وليس بالضرورة أن تكون (عمارة الصفيح الأعلى) بالعبادة هي عمارة مادية بل الجانب المعنوي يمثل العنصر البارز، وكل هذه الأمور تؤكد السعة والإحاطة العلمية للإمام علي عليه السلام فيما يخص عالم الملكوت، وهذا جزء من مؤهلات خليفة الله في الأرض.

ويشير الإمام عليه السلام إلى مفهوم آخر عن وسطية علمية مادية وارتباطاتها بجانب معنوي، وهي مسأله الفتق[2] الذي حدث في السموات، فيضع الإمام عليه السلام تفسيره الدقيق لذلك، وهو حدوث الفتق فعلاً بين السموات، وهو الجانب الوسطي من الموضوع، لكن من دون شك ارتباط تلك الوسطية بجانب معنوي، وهو ما جسده في قوله عليه السلام: ((**ثُمَّ فَتَقَ مَا بَيْنَ السَّمَوَاتِ الْعُلَا، فَمَلَأَهُنَّ أَطْوَاراً مِنْ**

(١) ينظر: المجلسي، بحار الأنوار، ٥٣/ ٣٢٤-٣٢٦؛ جابر، الفكر الاختباري، ص٨٣-٨٤.

(٢) قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أن السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ الأنبياء / ٣٠.

مَلَائِكَتِهِ، مِنْهُمْ سُجُودٌ لَا يَرْكَعُونَ، وَ رُكُوعٌ لَا يَنْتَصِبُونَ، وَ صَافُّونَ لَا يَتَزَايَلُونَ، وَ مُسَبِّحُونَ لَا يَسْأَمُونَ، لَا يَغْشَاهُمْ نَوْمُ الْعُيُونِ، وَ لَا سَهْوُ الْعُقُولِ، وَ لَا فَتْرَةُ الْأَبْدَانِ، وَ لَا غَفْلَةُ النِّسْيَانِ))[1]، فالفتق هو المتوسط أو الوسط بين السماوات، وهو أمر مادي حدث فعلا بعد خلق السماء، مرتبط بأمور معنوية لكي تكون تلك السماوات أماكن سكن للملائكة على حسب اختلافها في الوظائف والعبادة، كل طبقة منها فئة معينة من الملائكة، منهم دائمو السجود تعظيماً لله سبحانه وتعالى، ومنهم الراكعون الذين لا يستقيمون للقيام فلا يخرجون عن خط العبادة المرسوم لهم، الصنف الثالث الذين اصطفوا أمام عظمة الله لا يتزايلون يخرجون عن الاصطفاف، أما القسم الرابع فهم المسبحون يسبحون لله لا يملون[2]، ومن ثم فإن ما نفهمه بحسب هذا السياق أن الوسطية أمر مادي ارتبط بأمر معنوي، و أنه أكد اختلاف المراتب والوظائف العبادية للملائكة مع عدم تأثرهم بالصفات والعوامل البشرية من نوم العيون، وسهو العقول، وتعب الأبدان وفترها والنسيان.

ولم يخلُ تراث الإمام عليه السلام الثر من الإشارة إلى الوسطية في الناحية البيولوجية والفسيولوجية لجسم الإنسان، إلّا أن ذلك لم يكن مباشراً، وإنما تجلى في بعض الإشارات أو الأوصاف الشخصية، ومع هذا وذاك فإن الإشارة العلمية والمسار الوسطي فيها حاضره وبقوة. ومصداق ذلك الكلام في قوله عليه السلام بخصوص عظمة الباري وعدم القدرة على إدراكه سبحانه وتعالى، والعلة من ذلك يقول عليه السلام

(١) نهج البلاغة، ص٢٣.

(٢) ينظر: الكندري البيهقي، حدائق الحقائق في شرح نهج البلاغة، ١/ ١٣٥؛ البحراني، شرح نهج البلاغة (الكبير)، ١/ ١٥٣-١٥٤؛ الموسوي، شرح نهج البلاغة، ١/ ٣١؛ انصاريان، شرح نهج البلاغة المقتطف من بحار الأنوار، ١/ ٤٠-٤١؛ الشيرازي، توضيح نهج البلاغة، ١/ ٢٤؛ الخوئي، منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، ٢/ ٤-٦.

((الْأَوَّلُ الَّذِي لَمْ يَكُنْ لَهُ قَبْلٌ فَيَكُونَ شَيْءٌ قَبْلَهُ، وَ الْآخِرُ الَّذِي لَيْسَ لهُ بَعْدٌ فَيَكُونَ شَيْءٌ بَعْدَهُ، وَ الرَّادِعُ أَنَاسِيَّ الْأَبْصَارِ عَنْ أن تَنَالَهُ أو تُدْرِكَهُ، مَا اخْتَلَفَ عَلَيْهِ دَهْرٌ فَيَخْتَلِفَ مِنْهُ الْحَالُ، وَ لَا كَانَ فِي مَكَانٍ فَيَجُوزَ عَلَيْهِ الِانْتِقَال...))[1].

فالوسطية العلمية تجلت في قوله أناسي البصر، وهو وسط العين، وصحيح أن كلامه بخصوص عدم القدرة على إدراك الله سبحانه وتعالى لكن هناك علة من ذلك، لأنه منع الوسط وهو حدقة العين من أن تناله أو تدركه؛ لأنها لا تدرك إلّا المحدود والمنظور، والله منزه عن الجهة التي تحده وعن الجسمية وعوارضها التي تقع تحت النظر، ومن ثم فإن النتيجة المستفادة هي عدم قدرة الجزء المبصر في العين أو الوسط منها أن يرى صورة الله تعالى سبحانه وتعالى[2]، والمحصلة من ذلك أن وسط العين أو الحدقة هي الجزء المسؤول عن الرؤية وتكوين الصور واستقبال الضوء[3].

ومنها ما ورد في إشارات أخرى ذكرها الإمام عليه السلام في معرض حديثه عن الأنبياء وعن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم خصوصاً هو إعراضه عن الدنيا والتي كان مسار الوسطية العلمية حاضرة فيها وبقوة؛ إذ قال عليه السلام :**((فَتَأَسَّ بِنَبِيِّكَ الْأَطْيَبِ الْأَطْهَرِ- صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَلِهِ- فَإِنَّ فِيهِ أُسْوَةً لِمَنْ تَأَسَّى، وَ عَزَاءً لِمَنْ تَعَزَّى. وَ أَحَبُّ الْعِبَادِ إلى اللهَّ الْمُتَأَسِّي بِنَبِيِّهِ، وَ الْمُقْتَصُّ لِأَثَرِهِ. قَضَمَ الدُّنْيَا قَضْماً، وَ لَمْ يُعِرْهَا طَرْفاً. أَهْضَمُ أهل الدُّنْيَا كَشْحاً، وَ أَخْمَصُهُمْ مِنَ الدُّنْيَا بَطْناً، عُرِضَتْ عَلَيْهِ الدُّنْيَا فَأَبَى أن يَقْبَلَهَا، وَ عَلِمَ أن الله سُبْحَانَهُ أَبْغَضَ شَيْئاً فَأَبْغَضَهُ، وَ حَقَّرَ شَيْئاً فَحَقَّرَهُ، وَ صَغَّرَ شَيْئاً فَصَغَّرَهُ،**

(١) نهج البلاغة، ص١٦٨.

(٢) الموسوي، شرح نهج البلاغة، ٢/ ٥٨.

(٣) ينظر: حنون، أساسيات علم وظائف الأعضاء، ص٧٦؛ جابر، الفكر الاختباري، ص١٣٥-١٣٦.

وَ لَوْ لَمْ يَكُنْ فِينَا إِلَّا حُبُّنَا مَا أَبْغَضَ اللهَ وَ رَسُولُهُ، وَ تَعْظِيمُنَا مَا صَغَّرَ اللهَ وَرَسُولُهُ، لَكَفَى بِهِ شِقَاقاً للهِ، وَ مُحَادَّةً عَنْ أَمْرِ اللهِ))[1].

فكلامه عليه السلام في النص المتقدم هو الترغيب والتشويق من ناحية وإيضاح صفات النبي صلى الله عليه وآله وسلم وإعراضه عن الدنيا من ناحية أخرى، ولاسيما أنه أهضم أهل الدنيا كشحاً أي أخمصهم خاصرة وبطناً، إلّا أن الإمام عليه السلام لا يقصد ذلك فحسب، فلم يكن كلامه ذا بعد واحد ولاسيما وأن الكشح كما اتفق عليه الشرّاح هو ما بين الخاصرة إلى الضلع الخلفي[2]، فالكلام هادف لإبراز قضية علمية وهي تشخيص منطقة تراكم الدهون أو السمنة الناتجة عن الإفراط في تناول الطعام والتي تتمثل في المنطقة ما بين الخاصرة إلى الضلع الخلفي أي وسط، ومن ثم فإن السمنة تتضح وتتكون في هذا الوسط، وهي مالم تكن لدى الرسول محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وقد أثبت العلم الحديث خطورة تراكم الدهون في تلك المنطقة من الخاصرة والبطن على الصحة؛ لأن وظيفة الخلايا الدهنية في منطقة البطن لها طبيعة خاصة إذ تعمل على إفراز معدلات سكر الجلوكوز وهرمون الأنسولين في الدم وكلاهما يؤدي دوراً رئيساً في الإسراع بتصلب الشرايين[3].

---

(١) نهج البلاغة، ص٣٣٢-٣٣٣.

(٢) ينظر: بيهقي خرساني، معارج نهج البلاغة، ص٢٦٩؛ الكندري البيهقي، حدائق الحقائق في شرح نهج البلاغة، ٢/ ١٢؛ ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ٩/ ٢٣٤؛ البحراني، شرح نهج البلاغة (الكبير)، ٣/ ٢٨٥؛ شرح نهج البلاغة (الصغير)، ص٣٣٨؛ السرخسي، أعلام نهج البلاغة، ص١٥٢؛ الخوئي، الدرة النجفية، ص١٩١؛ الشيرازي، توضيح نهج البلاغة، ٢/ ٤٣٣؛ أنصاريان، شرح نهج البلاغة المقتطف من بحار الأنوار، ٢/ ١١٦؛ دخيل، شرح نهج البلاغة، ١٥-١٦/ ١٥؛ عبدة، شرح نهج البلاغة، ٢/ ٧٤ الخوئي، ٩/ ٣٧٣.

(٣) يوسف، البدانة الغذائية.. داء له دواء (الجزء الثاني)، ص٣-٤.

وبخصوص آراء الشرّاح فإنهم أجمعوا في كلامهم على أن الإمام عليه السلام يقصد من كلامه عزوف النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن الدنيا وعدم الالتفات إلى نعيمها والتمتع بطيباتها، فهو صلى الله عليه وآله وسلم أشدهم جوعاً وأقلهم شبعاً[١]، وكلامهم هذا صحيح لا إشكال فيه، لكن ربما أن الإمام عليه السلام لا يقصد ذلك فحسب، وإنما أشار إلى مناطق تجمع الدهون نتيجة الإفراط في تناول الطعام كما قلنا فيما سبق بدليل تحديده الجزء المعني بالكلام وهو الكشح الذي بين الخاصرة إلى الضلع الخلفي، وقد أثبت العلم المخاطر المترتبة على تجمع الدهون أو السمنة في الخصر، وأن زيادة عرض الخصر يكون مؤشرا لمشاكل صحية[٢].

ولم يهمل الإمام علي عليه السلام أيضاً الإشارة إلى الأمراض التي تصيب الإنسان نتيجة الإسراف أو التفريط في تناول الطعام وما ينتج عنه من مردود سلبي؛ لأن امتلاء المعدة بالطعام ينتج عنه قلة الإفرازات وقلة الامتصاص[٣]، وأن التوسط في الأكل من دون إفراط وتفريط هو الأكثر صحة للإنسان؛ لأن كليهما (الإفراط والتفريط) له مردودات سلبية على الصحة العامة، يقول عليه السلام: (وَإِنْ جَهَدَهُ الْجُوعُ قَعَدَ بِهِ الضَّعْفُ، وَأن أَفْرَطَ بِهِ الشِّبَعُ كَظَّتْهُ الْبِطْنَةُ. فَكُلُّ تَقْصِيرٍ بِهِ مُضِرٌّ، وَ كُلُّ إفراط لَهُ مُفْسِدٌ)[٤].

فإن فرَّط الإنسان في الأكل واشتد به الجوع ستخار قواه ويهوى من الضعف

(١) ينظر: ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ٩/ ٢٣٤؛ السرخسي، أعلام نهج البلاغة، ص١٥٢؛ الشيرازي، توضيح نهج البلاغة، ٢/ ٤٣٣؛ الخوئي، منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، ٩/ ٣٧٣.

(٢) ينظر: مقال أضرار السمنة على الصحة والرجولة com.webteb.www//:https

(٣) ينظر: Davidson. Principles and practice of medicine. P. 630.

وينظر أيضا: هارولد. هاربر، الكيمياء الفسلجية، ١/ ٥٢٠؛ جابر، الفكر الاختباري، ص٢٦٠-٢٦١.

(٤) نهج البلاغة، ص٧٤٣-٧٤٤.

كما أن الإسراف في الأكل أيضاً له مضاره، فإن تجاوز الحد كظته البطنة وهي ما يعتري الإنسان من الامتلاء من الطعام حتى يضيق النفس، فالإفراط والتفريط كلاهما مضر، والفضيلة تكون في التوسط والاعتدال بدون إفراط أو تفريط وهو الدواء المفيد[١]، ومما تقدم يمكن الخروج بالآتي:

١. توضيح الإمام عليه السلام فلسفة الوسطية بشكل عام وفي النظام الغذائي للإنسان بشكل خاص والأهمية منها.

٢. النتيجة الحتمية للخروج عن حد الاعتدال والاستقامة، وهو الخلل والفساد سواء على الصحة أم بصورة عامة.

٣. تشخيص الأمراض التي تحدث نتيجة النظام الغذائي السيئ وطرائق الوقاية منها[٢].

(١) ينظر: الراوندي، منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، ٣/ ٣٠٢؛ الكندري البيهقي، حدائق الحقائق في شرح نهج البلاغة، ٢/ ٦٢٨؛ السرخسي، أعلام نهج البلاغة، ص٢٩٧؛ الشيرازي، توضيح نهج البلاغة، ٤/ ٣١٢؛ الموسوي، شرح نهج البلاغة، ٥/ ٢٨٦؛ دخيل، شرح نهج البلاغة، ٣٣-٣٤/ ٥١؛ مغنية، في ظلال نهج البلاغة، ٤/ ٢٨٤؛ عبده، شرح نهج البلاغة، ٣/ ١٧٥؛ أنصاريان، شرح نهج البلاغة المقتطف من بحار الأنوار، ٣/ ٥٦١؛ جرداق، روائع نهج البلاغة، ص١٧٩؛ عبد الزهراء الخطيب، مصادر نهج البلاغة وأسانيده، ٤/ ١٠٠.

(٢) ينظر جابر، الفكر الاختباري، ص ٢٦١، ٢٨٣.

الفصل الثانـي

المسـارات الـتنظيمية والتـوجيه الاستراتيجي

توطئة

المسارات التنظيمية والتوجيه الاستراتيجي منهج فكري يتميز بالحداثة والريادة وهو من المصطلحات المعاصرة التي تناولها الباحثون، ومع حداثة اللفظ فأن المعنى كان حاضراً في فكر الإمام علي عليه السلام، وهو ذو أهمية قصوى لارتباطه بالعديد من المسارات الحيوية سواء كانت سياسية أم اقتصادية أم اجتماعية أم عسكرية من جانب، وهو ذو قيمة اعتبارية مهمة في التقدم والرقي ومن أسس التطور الحضاري من جانب آخر، وكما سنرى فإن هناك كثيراً من الأمور التي ذكرها الإمام علي عليه السلام تنظم الحياة الاجتماعية والعلاقات مع الآخرين، وتوجه الاقتصاد، وتحقق التوازن الاقتصادي فضلاً عن تنظيم أداء المؤسسة السياسية وتوجيهها وتطويرها.

المبحث الأول

المسار التنظيمي للإطار الاجتماعي وفلسفته النوعية

الاتصال بالآخر والتعايش معه من ضرورات الحياة في كل المجتمعات البشرية، وللمدرسة الإسلامية عامة، ومدرسة آل البيت عليهم السلام خاصة ميزة فريدة قد لا توجد في سائر المجتمعات والمدارس الأخرى، وما يميزها هو الاهتمام بالجانب الاجتماعي وتنظيمه بما فيه من علاقات من أصغر لبنة وقاعدة وهي الأسرة إلى الجزء الأكبر وهو المجتمع، فهي غير الأنظمة الأخرى تحكمها قواعد و يترتب عليها حقوق وواجبات والتزامات.

وأصبح من المنطقي القول إن نهج البلاغة لا يكاد يخلو من أي موضوع وأي جانب من الجوانب، ومن ضمنها هذا الجانب، فالإمام علي عليه السلام في نهج البلاغة ينظم الارتباط والسلوك الإنساني للجماعة بعضها مع بعضها الآخر عن طريق قاعدة الوسطية والاعتدال والسماحة والكفاف في القيم الاجتماعية، ليس مجرد تنظيم شكلي بل هو تنظيم أسسي وقاعدي ومنهجي، وقد وضع صيغاً وأساليب محددة للتعبير عن هذه الأبعاد وإقامة البناء على هذه الأسس والقواعد لتأسيس وإظهار الإنسان الفاضل، ومن ثم المجتمع الفاضل.

إن كل فرد وفي كل المجتمعات بحاجة ماسة إلى الاجتماع والتعايش؛ لأنه لا يمكن تلبية حاجاته والنهوض بمقوماته إلّا عن طريق التعايش مع الآخرين، ولكن في الوقت ذاته فإنه بحاجة إلى تنظيم هذا التعايش وبناء الوضع الروحي والتنظيمي له؛ لخلق مجتمع متحضر خلقياً وحضارياً ومتعايش سلميّاً ويتصف بالقيم والثوابت ولاسيما الثابت الإسلامي، وهو ما لم يغب عن فكر أمير المؤمنين

عليه السلام الذي وضع أسساً ومعايير تنظم العلاقات بين المجتمع، وإذا ما طبقت يتحقق التعايش السلمي وتقام علاقات صادقة بين أفراده، فأسس للاجتماع المتقدم والمخالطة المتحضرة ليس لإدراكه طبيعة النفس البشرية وتكوينها بل طبيعة التكوينات، المجتمعية، وقد أثبتت الأزمات الخلقية التي تتعرض لها الأنظمة والمجتمعات منذ زمن الإمام عليه السلام وحتى الآن ضرورة طرحها واعتمادها لمواجهة هذه الانحرافات والتطرفات، ولعل أول تلك المبادئ والمعايير هي الناحية المسلكية من شخصية الإنسان وطريقة العدل والإنصاف عن طريق جعل الذات هي الوسط بين الإنسان والآخر، بمعنى جعل القوى المعنوية هي الوسط والميزان في التعامل حتى يتحقق التعايش الاجتماعي وتنتزع الأنانية والتسلط، وهو ليس طرحاً اعتباطيّاً، بل منهجاً إسلاميّاً ذكره الرسول محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وجعله من أساسيات الإيمان بالله تعالى حينما قال: ((**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**))[1].

ويقول الإمام علي عليه السلام في وصيته للإمام الحسن عليه السلام في هذا المعنى: ((**يَا بُنَيَّ اجْعَلْ نَفْسَكَ مِيزَاناً فِيمَا بَيْنَكَ وَ بَيْنَ غَيْرِكَ، فَأَحْبِبْ لِغَيْرِكَ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ، وَ اكْرَهْ لَهُ مَا تَكْرَهُ لَهَا، وَ لَا تَظْلِمْ كَمَا لَا تُحِبُّ أَن تُظْلَمَ، وَ أَحْسِنْ كَمَا تُحِبُّ أَن يُحْسَنَ إِلَيْكَ، وَ اسْتَقْبِحْ مِنْ نَفْسِكَ مَا تَسْتَقْبِحُهُ مِنْ غَيْرِكَ، وَ ارْضَ مِنَ النَّاسِ بِمَا تَرْضَاهُ لَهُمْ مِنْ نَفْسِكَ، وَ لَا تَقُلْ مَا لَا تَعْلَمُ وَ أَن قَلَّ مَا تَعْلَمُ، وَ لَا تَقُلْ مَا لَا تُحِبُّ أَن يُقَالَ لَك**))[2].

فالقاعدة الأخلاقية السلوكية أن تكون الذات وسطاً بين الإنسان والإنسان الآخر وفلسفتها النوعية لتحقيق العدل والإنصاف إذا وضع الإنسان نفسه وسطاً

(١) الدارمي، سنن الدارمي، ٢/ ٣٠٧؛ البخاري، صحيح البخاري، ١/ ٩.

(٢) نهج البلاغة، ص٥٩٩ - ٦٠٠.

بينه وبين غيره فيعطي الاثنين بالتساوي، ومثلما هو معروف أن الإنسان يحب ذاته لكن إذا تخلص من تلك الصفة وهي الأنا فيحب لغيره ما يحب لنفسه ويكره له ما يكره لها، لا يظلم مثلما لا يحب أن يظلم فيسلم من رذيلة الظلم، وأن يحب إلى الآخرين كما يحب أن يحسن إليه، ويستقبح من نفسه ما يستقبح من غيرة فينزجر عن جميع مناهي الله، يرضى من الناس ما يرضى لهم من نفسه سواء خير أم شر، ولا يقول ما لا يعلم لئلا يُنسب إلى الجهل فيضل ويضل[1]، فتكون النتيجة الاستقامة في المجتمع، بل خلق المجتمع الفاضل؛ لأن كل المشاكل المجتمعية تنشأ بسبب الذاتية والأنانية.

إذن الفلسفة من جعل النفس وسطاً هو لتحقيق العدل الإنساني، فالإيجابي بالنسبة له إيجابي لهم والسلبي له سلبي لهم، وأنه بالعمل على وفق هذه القاعدة ومنهج وسطية النفس ترسخ قواعد الإحسان وتقمع جذور الظلم وتنتزع صفات الأنانية والظلم والتسلط والحسد؛ لأن الإنسان مجبول على حب ذاته، فإذا تخلص من ذلك تخلص من كل تلك الصفات السلبية، هذا إلى جانب إمكانية عد تلك القاعدة من قواعد علم الاجتماع إذا عمل بها الإنسان فإنه يتحول إلى شخصية جذابة اجتماعيّاً وإنشاء شبكة من العلاقات السليمة الحسنة، ويمكن القول أيضاً إن الوسطية هنا تحمل منظومة اجتماعية متكاملة لضبط السلوك الفردي تجاه الجماعة، مع العلم أن الكلام موجه إلى الإمام الحسن عليه السلام لكن المقصود به غيره.

وبذلك فإن الإمام عليه السلام نظم الحياة الاجتماعية وأعطى المبدأ والقاعدة الأولى التي يجب أن يعمل بها الإنسان لتحقيق العدل الاجتماعي وهي أن يحصل التغير من

(١) ينظر: البحراني، شرح نهج البلاغة (الكبير)، ٥/ ٢٨-٢٩؛ الشيرازي، توضيح نهج البلاغة، ٤/ ٥٩؛ الموسوي، شرح نهج البلاغة، ٤/ ٣١٦-٣١٨؛ دخيل، شرح نهج البلاغة، ٢٧-٢٨/ ٣٩.

نفس الإنسان ونوازعها وسلوكها فيجعلها هي الوسط، فإذا حكم نفسه وأصلح سريرته فإن ذلك مدعاة للتغير والتطور، وأن سوء الضمائر وخبثها أيضاً مدعاة للتفرق والتأخر، وهي الحالة العكسية التي وضحها الإمام علي عليه السلام في خطبة له في ذم الدنيا: ((**وَ إنما أَنْتُمْ إِخْوَانٌ عَلَى دِينِ اللهِّ، مَا فَرَّقَ بَيْنَكُمْ إلا خُبْثُ السَّرَائِرِ، وَ سُوءُ الضَّمَائِرِ. فَلَا تَوَازَرُونَ[تأزرون] وَ لَا تَنَاصَحُونَ، وَ لَا تَبَاذَلُونَ وَ لَا تَوَادُّونَ**))[1]، فخبث السرائر وسوء الضمائر هنا الوسط بين الإنسان والإنسان الآخر، أو بين المجتمع والآخر، أو الطائفة والطائفة الأخرى، وهذا الوسط السلبي حل محل الوسط الإيجابي وهو دين الله، وبدل أن تتوحد الجهود والأهداف وتتلاقى الأفكار وتتكاتف الأيدي تحدث التفرقة؛ لأن الوسط هنا حب الأنا وبذلك ارتفعت آثار التآخي والمودة ولوازم المحبة وظهرت نتيجة ذلك السلبية، فلا يعين أحد الآخر ولا ينصحه ولا يبذل له كل ما يحتاج[2].

وبملاحظة النص المتقدم نجد أن الإمام عليًّا عليه السلام عالج الوسطية معالجة جديدة؛ لأنه كما عرفنا هي لا زيادة ولا نقصان إنما وسط بينهما بحيث يؤدي إلى الاستقامة والعدل، ولكن الأمر هنا عكسي تماماً، فالوسط هنا يؤدي إلى الانحراف والتفرقة، وفلسفة ذلك كما بينها أمير المؤمنين عليه السلام؛ هنا فساد السرائر وخبث الضمائر ليست أصيلة في ذات الإنسان وإنما طارئة حلت محل الوسط الأساسي الأصيل وهي الفضيلة.

---

(١) نهج البلاغة، ص٢٤٤.

(٢) ينظر: ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ٧/ ٢٤٨؛ الموسوي، شرح نهج البلاغة، ٢/ ٢٨٤؛ الشيرازي، توضيح نهج البلاغة، ٢/ ٢١١-٢١٢؛ مغنية، في ظلال نهج البلاغة، ٢/ ١٨٠-١٨١؛ الخوئي، منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، ٨/ ٤٧.

ومن هذا المنطلق نجد أن الإمام عليه السلام قد فعّل معيار الخير والقيم الخلقية للإنسان بانتهاج الوسطية وفلسفتها في الآثار الإيجابية مع العلم أن الآثار لا تقع على المجتمع فحسب وإنما على الشخص ذاته بظهور مشاكل يخلقها الإنسان للإنسان الآخر، مثلما نجده في التعبير القرآني ﴿**قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا**﴾[١]، لكن الإمام عليًّا عليه السلام قد عالج هذه المسألة من قعرها عندما جعل النفس هي الوسط للتخلص من مرض تسويل النفس ونتائجها المتمثلة بخبث السرائر وسوء الضمائر حقداً وحسداً وتكبراً، ثم انتقل عليه السلام إلى مسألة ومعيار آخر لا يقل أهمية عن المعيار الأول في تنظيم الإطار الاجتماعي والارتقاء به، وهي مسألة العلاقات الاجتماعية والاتزان العاطفي فيها وأسلوب المخالطة ووضع الضوابط والقواعد بحيث تؤدي إلى تكون علاقات ودية معتدلة متزنة بين الآخرين دون مغالاة، لا إفراط في الحب ولا تفريط في الحقد، فقال عليه السلام في ذلك: ((**خَالِطُوا النَّاسَ مُخَالَطَةً أن مِتُّمْ مَعَهَا بَكَوْا عَلَيْكُمْ، وَ أن عِشْتُمْ[غبتم] حَنُّوا إِلَيْكُمْ**))[٢].

هنا نظم الإمام علي عليه السلام العلاقات الاجتماعية بوضع القاعدة والمعيار وهي الوسطية في الزيارات واللقاءات، فلا مبالغة في العلاقات واللقاءات التي تؤدي إلى الملل وعدم الاشتياق فيصبح وجوده وعدمه واحداً، ولا تقصير بالانقطاع التام وإنما التوسط في ذلك، ونتائج تلك الوسطية وآثارها إذا عاش الشخص حنوا إليه وافتقدوه وبحثوا عنه واشتاقوا إلى رؤيته، وإذا مات فإنهم يحزنون لفقده، إذ إن المخالطة والمعاشرة يكون لها هدف ومضمون حقيقي، وهو الحب والود؛ لأن الزيارة والمخالطة لها ذلك الشأن الخاص في العلاقات الاجتماعية وذلك الدور في حسن الخلق[٣].

(١) يوسف/ ٨٣.

(٢) نهج البلاغة، ص٧١٩.

(٣) الحكيم، دور أهل البيت (عليهم السلام) في بناء الجماعة الصالحة، ٢/ ٨٩-٩٠.

وقد أصاب الشرّاح في قولهم إن كلام الإمام عليه السلام بيان لحسن المعاشرة مع الناس والسيرة الحسنة مع المجتمع والانتفاع بها بالحنان إليه في حياته والبكاء عليه بعد وفاته، لأنه عاشرهم معاشرة حسنة، فالقصد أن تكون المخالطة ودية على قصد الإعانة للناس وجلب قلوبهم فيشتاقون له في حياته[1] ووجوده بينهم ويبكون عليه عند فقدانه[2]، لكن مع ذلك الفهم والإصابة في القول لم يشيروا إلى السبب المهم والقاعدة التي أدت إلى هذه النتيجة، وهي الوسطية في العلاقات والمخالطة الاجتماعية لا مبالغة ولا تقصير، بدليل مع وجوده بينهم يشتاقون له ويحنون إليه وعند موته يفتقدونه ويبكون عليه.

بالمحصلة النهائية أن الوسطية في العلاقة مع الناس ومخالطتهم تضمن

(١) وهناك شواهد تاريخية من سيرة النبي صلى الله عليه وآله واشتياق الناس له وهو موجود بينهم وبكاؤهم عليه عند فقدانه، ومنهم ثوبان مولى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، فقد كان شديد الحب له قليل الصبر عنه، فأتاه ذات يوم وقد تغير لونه ونحل جسمه يعرف في وجهه الحزن، فقال له رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): يا ثوبان ما غير لونك، فقال: يا رسول الله ما بي مرض ولا وجع غير أني إذا لم أرك اشتقت إليك، فاستوحشت وحشة شديدة حتى ألقاك ثم ذكرت الآخرة فأخاف أن لا أراك هنالك؛ لأني أعرف أنك ترفع مع النبيين، وإني إن دخلت الجنة كنت في منزلة أدنى من منزلتك وإن لم أدخل الجنة، ابن عساكر، تاريخ دمشق، ١١/ ١٧٤ فاستوحش ثوبان حبيبه واشتاق له وهو موجود بينهم وبكت عليه امرأه بعد وفاته حتى ماتت، القاضي عياض، الشفا بتعريف حقوق المصطفى، ٢/ ٢٣.

(٢) ينظر: ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٨/ ١٠٧؛ البحراني، شرح نهج البلاغة (الكبير)، ٥/ ٢٤٤؛ الأردبيلي، ترجمة نهج البلاغة، ص٣٤٣ (فارسي)؛ الكاشاني، تنبيه الغافلين وتذكرة العارفين، ٢/ ٥٧٩(فارسي)؛ الخوانساري، شرح غرر الحكم ودرر الكلم، ٣/ ٤٥٢(فارسي)؛ الانصاري، ترجمة غرر الحكم ودرر الكلم ١/ ٣٩٧(فارسي)؛ الخوئي، منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، ٢١/ ٢٥؛ الموسوي، شرح نهج البلاغة، ٥/ ٢١٤؛ دخيل، شرح نهج البلاغة، ٣١-٣٢/ ٨٦؛ الشيرازي، توضيح نهج البلاغة، ٤/ ٢٦٤، مغنية، في ظلال نهج البلاغة، ٤/ ٢٢٣.

الاستمرارية المقترنة بالحب والمودة، وهو ما يمكن أن نسميه النجاح والمداومة في العلاقة، مع العلم أن هذا المسار التنظيمي قد يكون الإمام عليه السلام شمل به العلاقات الاجتماعية البعيدة، أو بتعبير آخر العلاقات العامة، بدليل أنه أعطى تنظيماً آخر للعلاقات القريبة والخاصة جداً الذي لا يبتعد عن الوسطية والاعتدال. سواء في العلاقات الإيجابية أم السلبية مثل العداوة والبغض، فيقول عليه السلام: ((**أَحْبِبْ حَبِيبَكَ هَوْناً مَا، عَسَى أن يَكُونَ بَغِيضَكَ يَوْماً مَا، وَ أَبْغِضْ بَغِيضَكَ هَوْناً مَا، عَسَى أن يَكُونَ حَبِيبَكَ يَوْماً مَا**))[1].

وبذلك فقد أعطى مساراً تنظيميّاً للعلاقات والعواطف بأسلوب التعقل أو ما يمكن أن نطلق عليه عقلنة العاطفة دون مغالاة؛ لأن الحب والكُره معروف بعدم التوازن، وهو ما دعا الإمام عليه السلام إلى أن ينشد الوسطية التنظيمية والاعتدال في الحب والبغض دون المغالاة فيهما، والفلسفة من ذلك لما في الإسراف والمغالاة من المفسدة، لأن الحبيب يمكن أن ينقلب إلى عدو في يوم من الأيام، والعدو يمكن أن يتحول إلى صديق، فلا يقطع جميع الخيوط بل لتكن العداوة بقدر، بحيث لو رجع إلى الصواب أمكن الرجوع دون تأسف أو أسى على ما مضى من كلام سخيف أو بذيء بالمعنى الأدق، وأنه قد حسب حساباً للمستقبل؛ لأن الموقف يمكن أن يتغير فينقلب الحبيب عدواً وينقلب العدو فيصبح حبيباً، والوسطية والاعتدال هو أضمن وأنجح أسلوب في العلاقات دون سلبيات ومضار[2]،

(١) نهج البلاغة، ص٧٨٨.

(٢) ينظر: بيهقي خراساني، معارج نهج البلاغة، ص٤٤٤؛ كيذري بيهقي، حدائق الحقائق في شرح نهج البلاغة، ٢/ ٦٧٦؛ ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٩/ ١٥٦؛ البحراني، شرح نهج البلاغة، ٥/ ٣٧٩-٣٨٠؛ الخوئي، الدرة النجفية، ص٣٧٦؛ الموسوي، شرح نهج البلاغة، ٥/ ٤١٢-٤١٣؛ دخيل، شرح نهج البلاغة، ٣٥-٣٦/ ٥٩؛ الشيرازي، توضيح نهج البلاغة، ٤/ ٣٩٤-٣٩٥؛ عبدة،

ولعل تنظيم الإمام علي عليه السلام للعاطفة على وفق هذه القاعدة فيه أبعاد عدة يمكن دراستها كما يأتي:

البعد الصحي النفسي: المغالاة في الحب ومن ثم فقدانه أو تحوله إلى عداوة قد يؤدي إلى انتكاسات في العاطفة أو قد يؤثر أثراً نفسيّاً في الإنسان، لكن الوسطية والاعتدال في الحب يمنع ذلك، وهناك قول للإمام الصادق عليه السلام في المعنى نفسه قال عليه السلام: ((**لا تثق بأخيك كل الثقة فإن صرعة الاسترسال لن تستقال**))[١].

البعد المستقبلي: أن الوسطية في الحب والبغض فيها بعد مستقبلي وهو مراعاة تحول وتقلب العاطفة في بعض الأوقات أو الأزمنة؛ لأن كل علاقة اجتماعية لا يمكن أن تستمر على وتيرة واحدة قد لا تكون في ذات الجيل وإنما في الأجيال القادمة، والاعتدال دون المغالاة ينظم العلاقة المستقبلية وما قد تتعرض له سواء حبًّا كانت أم بغضًا، مثلما جاء في قوله تعالى: ﴿**عَسَى الله أن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَالله قَدِيرٌ وَالله غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾[٢].

البعد الوقائي: الوسطية في العلاقات ذات بعد وقائي أيضاً، وتتمثل بتوخي الدقة والحذر وعدم الاطلاع على كل الأسرار؛ لأن الصديق أو الحبيب يمكن أن يتحول إلى عدو، وكما يقول الإمام الصادق عليه السلام: ((**لا تطلع صديقك من سرك إلّا على ما لو اطلع عليه عدوك لم يضرك، فإن الصديق قد يكون عدوا يوما ما**))[٣].

شرح نهج البلاغة، ٣/ ٢١٧؛ مغنية، في ظلال نهج البلاغة، ٤/ ٣٧٩؛ المحمودي، نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة، ١/ ١٩٧؛ عبد الزهراء الخطيب، مصادر نهج البلاغة وأسانيده، ٣/ ٢١٦-٢١٧؛ محمد، نهج الحياة، ص٧٢.

(١) الكليني، الكافي، ٢/ ٦٧٢؛ الصدوق، الأمالي، ص٧٦٧.

(٢) الممتحنة / ٧.

(٣) الصدوق، الأمالي، ٧٦٧؛ الفتال النيسابوري، روضة الواعظين، ص٣٨٨.

وعلى ما يبدو أن ما تقدم ليس الجانب الإصلاحي الوحيد في النظام الاجتماعي، وإنما هناك مسارات تنظيمية أخر في الإطار الاجتماعي نظمها الإمام علي عليه السلام تتعلق بالدرجة الأساس ببناء شخصية الإنسان بالقدر الذي لا يؤدي إلى التطرف أو الغلو في الأسلوب الشخصي والسلوكي مع الآخرين، مع التأكيد على مبدأ اللباقة ودماثة الخلق والمحافظة على المعايير القيمية والمبادئ الأخلاقية، كأسلوب الثناء على الناس ومدحهم الذي نظمه الإمام عليه السلام على وفق منهج الوسطية والاعتدال لأجل أن لا يخرج التقييم الموضوعي عن موضوعيته، فقال عليه السلام: ((**الثَّنَاءُ بِأَكْثَرَ مِنَ الِاسْتِحْقَاقِ مَلَقٌ، وَ التَّقْصِيرُ عَنِ الِاسْتِحْقَاقِ عِيٌّ أو حَسَد**))[1].

فالمدح والأطناب أكثر من الاستحقاق فيه تملق، والتقصير والتهاون عي أو حسد لمقام الممدوح، فالزيادة أو النقصان خروج عن حد الاعتدال إلى أحد طرفي اليمين والشمال، لأن الزيادة تتحول إلى رياء من أجل اكتساب ود الممدوح والتقصير لا يؤدي الثناء حقه، فالصراع نفسي في التقصير وهو الحسد يمنع من إظهار الثناء، أو العجز وكلتا الحالتين عيب في المثنى والمادح[2]. والتوسط والاعتدال في ذلك هو المطلوب.

إن تحديد الضوابط والمحددات، إنما جاء لخلق التوازن الاجتماعي وهذه تقوم على الثناء المعتدل وهو المطلوب، والفلسفة من ذلك لكي لا يخرج المدح أو الثناء

---

(١) نهج البلاغة، ص٨٠٥.

(٢) ينظر: ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٩/ ٢٦٢؛ البحراني، شرح نهج البلاغة (الكبير)، ٥/ ٤١٢؛ شرح نهج البلاغة (الصغير)، ص٦٥٧؛ الخوئي، الدرة النجفية، ص٣٨٢؛ الموسوي، شرح نهج البلاغة، ٥/ ٤٥٩؛ الشيرازي، توضيح نهج البلاغة، ٤/ ٤٢٧؛ الخوئي، منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، ٢١/ ٤٣١؛ مغنية، في ظلال نهج البلاغة، ٤/ ٤١٩؛ دخيل، شرح نهج البلاغة، ٣٧-٣٨/ ١٠؛ عبد الزهراء الخطيب، مصادر نهج البلاغة وأسانيده، ٤/ ٢٦١.

عن حقيقته وهدفه ولا يؤدي بالمادح إلى الكذب المؤدي إلى الإعجاب والتكبر ولا ننسى أن ما ذكره الإمام علي عليه السلام عن الملق هو تعريف للمتملق وصفاته بقول ما لا يوجد، وأيضاً توضيح للذي يعاني من الأمراض النفسية كالحسد.

إن قوله عليه السلام بمنزلة تنظيم وتحذير في الوقت نفسه؛ لأن التملق صفة مذمومة؛ لأن فيها تصغير النفس وإذلالها، لكن الأمر مختلف حين يكون مع الذات الإلهية لذلك، قال الإمام زين العابدين عليه السلام: ((**فوعزتك يا سيدي لو انتهرتني ما برحت من بابك، ولا كففت عن تملقك لما انتهى إلي من المعرفة بجودك وكرمك**))[١].

وبذلك يمكننا الرجوع إلى ما سبق من القول إن الإمام عليًّا عليه السلام لا يريد أن يجعل شخصية الإنسان شخصية مغالية مسرفة لما في ذلك من آثار سلبية، بل نظم ذلك لأجل أن يرفعه من حدوده النسبية المغالية والمسرفة إلى وضع آخر،اي أن يكون إنساناً معتدلاً، وذلك الهدف وتلك الفلسفة من الإنسان المعتدل هو الهدف الواقعي والمثل السامي الأصيل في الأيدلوجية الإسلامية، وتُعَد إحدى أبعاد التكامل الذاتي في حركة الإنسان نحو الله تعالى، مع العلم أن اكتمال هذا البعد لا يتم إلا بضبط وتنظيم العواطف والانفعالات النفسية والعدوانية لبناء شخصية سليمة مستقيمة لا إفراط فيها ولا تفريط ومنسجمة مع العقل وحكم الشرع لتحقيق المصلحة النهائية للإنسان[٢]، روي عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: ((**من ملك نفسه إذا رغب وإذا رهب وإذا اشتهى وإذا غضب وإذا رضي حرّم الله جسده على النار**))[٣]، إذا اعتدل الإنسان في مشاعره وانفعالاته واحتياجاته وصل

(١) الصحيفة السجادية، ص٢١٩؛ وينظر: الطوسي، مصباح المتهجد، ص٥٨٥؛ ابن طاووس، إقبال الأعمال، ١/ ١٦١.

(٢) – الحكيم، دور أهل البيت (عليهم السلام) في بناء الجماعة الصالحة، ١/ ٥٠٦-٥٠٧.

(٣) الصدوق، الأمالي، ص٤٠٨؛ المجلسي، بحار الأنوار، ٦٨/ ٣٥٨.

إلى مرحلة أقرب إلى الكمال، وفي حديث آخر قال عليه السلام: ((**إنما المؤمن الذي إذا غضب لم يخرجه غضبه من حق، وإذا رضي لم يدخله رضاه في باطل، وإذا قدر لم يأخذ أكثر مما له**))[١].

فقال الإمام علي عليه السلام بهذا الصدد: ((**مَنْ بَالَغَ فِي الخُصُومَةِ أَثِمَ، وَ مَنْ قَصَّرَ فِيهَا ظُلِمَ، وَ لَا يَسْتَطِيعُ أن يَتَّقِيَ اللهَ مَنْ خَاصَمَ**))[٢]، هنا يبين الإمام علي عليه السلام طرفي الإفراط والتفريط والوسطية والفلسفة منها، فالاعتدال في الخصومة هو المطلوب؛ لأن المبالغة في المخاصمة أثم والتقصير فيها ظلم، أي في الإسراف أو التفريط تعدي الحدود الشرعية وتعطيلها وتجاوز الحلال إلى الحرام لكن في الاعتدال تجاوز ذلك كله، ومع كل ذلك لابد من ترك الخصومة لصعوبة التقوى عند المخاصمة[٣].

وبذلك فإن الإمام عليه السلام استطاع أن يحتضن الأفكار المجهضة في التعامل في مسار تنظيمي ويجعلها أكثر تطوراً ورقياً، فالإثم والظلم يهلكان الإنسان والوسط بينهما تتحقق فيه النجاة.

(١) الكليني، الكافي، ٢/ ٢٣٣؛ الكاشاني، الوافي، ٤/ ١٦١؛ المجلسي، بحار الأنوار، ٦٤/ ٣٠٣.

(٢) نهج البلاغة، ص ٧٩٦.

(٣) ينظر: البحراني، شرح نهج البلاغة، ٥/ ٣٩٥؛ الموسوي، شرح نهج البلاغة، ٥/ ٤٣٣؛ دخيل، شرح نهج البلاغة، ٣٥-٣٦/ ٨١؛ الشيرازي، توضيح نهج البلاغة، ٤/ ٤٠٩؛ مغنية، في ظلال نهج البلاغة، ٤/ ٤٩٧.

المبحث الثاني

مسار الاستراتيجية الاقتصادية والتنظيم التنموي الكسبي

لا مناص من الاعتراف أن المسار الاقتصادي يبقى الركيزة الأساسية في عملية تحول وانقلاب المجتمعات، ومادام المستوى الاقتصادي متعلقاً بتوازن المجتمع وحفظه فلا يجوز بناؤه بناءً مصلحيّاً أو طبقيّاً إن صح القول، لذلك فإن الفلسفة الاقتصادية الإسلامية راعت ذلك، فهي مشروع حضاري عالمي وتجربة اقتصادية ناجحة، فلم تسمح بالعثور على بؤرة في فلسفتها لتعديلها وإعادة طرحها من جديد، بل إن فلسفتها محبوكة اقتصادياً مرصعة أخلاقياً أساسها الاعتدال والوسطية فتجد مثلاً أن القرآن الكريم ذكر ذلك ذكراً علنياً لا يحتاج إلى تفسير أو تأويل في قوله تعالى: ﴿**وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا**﴾[1] وقوله: ﴿**وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا**﴾[2]، فكأنما أسس لمشروع ومنهج اسمه الاتزان والاعتدال الاقتصادي من دون إفراط أو تفريط في البخل أو الإسراف والتبذير، ولو أسيئ التصرف أو تجاوز حد الاعتدال تكون العاقبة الوخيمة والنتيجة السلبية والعكسية للاعتدال، مع العلم أن الإسراف والتقتير يؤديان إلى النتيجة نفسها والاتجاه والحل الأسلم مع ذلك هو المنزلة بين الأمرين وهي الوسطية والاعتدال.

ولم يختلف المسار الاقتصادي عند الإمام علي عليه السلام عن القرآن والسنة، بل إن

---

(١) الإسراء/ ٣٩.

(٢) الفرقان/ ٦٧.

الإمام عليه السلام قد استثمر ذلك لمعالجة الإشكالات والانحرافات الاقتصادية التي حدثت في زمن الحكام قبل الإمام[1] عليه السلام أو في بعدها المستقبلي متخذاً الوسطية منهجا ومساراً سواء في الكسب أم في الإنفاق المالي.

الاستراتيجية السياسية وأبعادها الاقتصادية

وضع الإمام علي عليه السلام مساراً استراتيجياً للحفاظ على الثروة الاقتصادية وديمومتها، إذ إن خطب الإمام عليه السلام ووصاياه قد أخذت في الظاهر الطابع السياسي والتغيرات الإصلاحية الجذرية التي أحدثها عند توليه الخلافة، ومن ضمنها الموارد المالية للدولة، كالزكاة وجبايتها، لكنها في الحقيقة هي طريقة ومسار الاستراتيجية السياسية التي نظمها الإمام عليه السلام للحفاظ على الثروة الاقتصادية وإدارة أولوياتها عن طريق المسار والسياسة المتبعة في استحصالها، وهي سياسة الوسطية والاعتدال

(١) حدث خلل في البنية الاقتصادية خلال مدّة حكم الحكام الأوائل، إذ ساد التمايز الطبقي، وظهر التضخم المالي، فأصبح قسم من الناس في خانة المترفين والأغنياء، فامتلكوا ثروات كبيرة وعقارات ومشاريع إنتاجية لمصالحهم الخاصة في مقابل الفئة الأخرى من الناس كانوا في خانة الفقراء والمحتاجين، فعمد الإمام عليه السلام لإصلاح هذا الانحراف في البنية الاقتصادية وأعلن عن مشروع المساواة منذ اليوم الأول من تولية الخلافة فقال: (ألا لا يقولن رجال منكم غدا قد غمرتهم الدنيا، فاتخذوا العقار، وفجروا الأنهار، وركبوا الخيول الفارهة واتخذوا الوصائف الروقة، فصار ذلك عليهم عارا وشنارا إن لم يغفر لهم الغفار، إذا منعوا ما كانوا فيه، وصيروا إلى حقوقهم التي يعلمون، يقولون: حرمنا ابن أبي طالب، وظلمنا حقوقنا، ونستعين بالله ونستغفره، وأما من كان له فضل وسابقة منكم، فإنما أجره فيه على الله، فمن استجاب لله ولرسوله ودخل في ديننا، واستقبل قبلتنا، وأكل ذبيحتنا، فقد استوجب حقوق الإسلام وحدوده. فأنتم أيها الناس، عباد الله المسلمون، والمال مال الله يقسم بينكم بالسوية، وليس لأحد على أحد فضل إلّا بالتقوى، وللمتقين عند الله خير الجزاء وأفضل الثواب، لم يجعل الله الدنيا للمتقين جزاء، وما عند الله خير للأبرار، إذا كان غدا فاغدوا، فإن عندنا مالا اجتمع، فلا يتخلفن أحد كان في عطاء، أو لم يكن إذا كان مسلما حرا، احضروا رحمكم الله)، الطوسي، الأمالي، ص٧٢٩.

من دون إفراط أو تفريط لين أو شديد سواء في زمن الإمام عليه السلام أم في البعد المستقبلي.

فيقول عليه السلام للفريق المتولي في جمعها: ((**انْطَلِقْ عَلَى تَقْوَى اللهَّ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَ لَا تُرَوِّعَنَّ مُسْلِماً وَ لَا تَجْتَازَنَّ[تحتازنّ] عَلَيْهِ كَارِهاً، وَ لَا تَأْخُذَنَّ مِنْهُ أَكْثَرَ مِنْ حَقِّ اللهَّ فِي مَالِهِ، فَإِذَا قَدِمْتَ عَلَى الْحَيِّ فَانْزِلْ بِمَائِهِمْ مِنْ غَيْرِ أن تُخَالِطَ أَبْيَاتَهُمْ، ثُمَّ امْضِ إِلَيْهِمْ بِالسَّكِينَةِ وَ الْوَقَارِ؛ حَتَّى تَقُومَ بَيْنَهُمْ فَتُسَلِّمَ عَلَيْهِمْ وَ لَا تُخْدِجْ**[1] **بِالتَّحِيَّةِ لَهُمْ، ثُمَّ تَقُولَ: عِبَادَ اللهَّ، أَرْسَلَنِي إِلَيْكُمْ وَلِيُّ اللهَّ وَ خَلِيفَتُهُ، لِآخُذَ مِنْكُمْ حَقَّ اللهَّ فِي أَمْوَالِكُمْ، فَهَلْ للهَّ فِي أَمْوَالِكُمْ مِنْ حَقٍّ فَتُؤَدُّوهُ إِلى وَلِيِّهِ؟ فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: لَا، فَلَا تُرَاجِعْهُ، وَ أن أَنْعَمَ لَكَ مُنْعِمٌ فَانْطَلِقْ مَعَهُ مِنْ غَيْرِ أن تُخِيفَهُ أو تُوعِدَهُ أو تَعْسِفَهُ أو تُرْهِقَهُ، فَخُذْ مَا أَعْطَاكَ مِنْ ذَهَبٍ أو فِضَّةٍ، فَإِنْ كَانَ لَهُ مَاشِيَةٌ أو إِبِلٌ فَلَا تَدْخُلْهَا إلا بِإِذْنِهِ، فَإِنَّ أَكْثَرَهَا لَهُ، فَإِذَا أَتَيْتَهَا فَلَا تَدْخُلْ عَلَيْهَا دُخُولَ مُتَسَلِّطٍ[متسلط] عَلَيْهِ وَ لَا عَنِيفٍ بِهِ**))[2].

فقول الإمام علي عليه السلام في النص المتقدم (فسلم عليهم ولا تخدج بالتحية لهم ولا تدخل دخول متسلط عليه ولا عنيف به)، هي استراتيجية سياسية ومسار للوسطية والاعتدال الذي نظمه الإمام علي عليه السلام ليس من أجل أبعادها الاقتصادية فحسب، بل هي أيضاً جزء من مبادئ وأخلاق الإسلام، فلا يدخل عليه دخول متسلط متكبر، فلا يسلم عليه ولا يبخل بالتحية فيؤديها ناقصة[3]، وإنما المنزلة بينهما، إذ بنى الإمام عليه السلام ثقافة ووعياً وهو أن تكون

(١) خدج و الخِداجُ هو النقصان، وأَصل ذلك من خِداجِ الناقةِ إِذا ولدت ولداً ناقص الخَلْقِ، أَو غير تام. ابن منظور، لسان العرب، ٢/ ٢٤٨.

(٢) نهج البلاغة / ٥٧٢-٥٧٣.

(٣) ينظر: السرخسي، أعلام نهج البلاغة، ص ٢٧٣؛ الشيرازي، توضيح نهج البلاغة، ٤/ ١٠؛ الموسوي، شرح نهج البلاغة، ٤/ ٣٠٨.

السياسة الاقتصادية المتبعة سياسية قائمة على الاعتدال دون مبالغة أو تقصير، ومن ثم يكون المواطن على درجة من الموثوقية بالجهاز السياسي فيقدم حق الله في ماله، وبالنتيجة هو الديمومة الاقتصادية لذلك الجزء المهم من الاقتصاد، وكذا التكافل الاجتماعي بين طبقات المجتمع.

وبالمحصلة فإن البرمجة والتخطيط والتنفيذ والسياسة المتبعة لها دور في التوازن الاقتصادي، وهو ما نهج الإمام علي عليه السلام إليه؛ إذ حدد برنامجاً يتجاوز الأخطاء ولاسيما السياسة الاقتصادية القائمة على اتباع سياسة أساسها الدقة والاعتدال والتوازن لا تظهر فيها شدة ولا لين من أجل ديمومة الاقتصاد وتوازنه والتنمية الإنسانية، كما في قوله عليه السلام أيضاً لبعض عماله على الصدقات: ((**أَمَرَهُ بِتَقْوَى اللهَّ فِي سَرَائِرِ أَمْرِهِ وَ خَفِيَّاتِ عَمَلِهِ، حَيْثُ لَا شَهِيدَ غَيْرُهُ، وَلَا وَكِيلَ دُونَهُ. وَأَمَرَهُ إلا يَعْمَلَ بِشَيْءٍ مِنْ طَاعَةِ اللهَّ فِيمَا ظَهَرَ فَيُخَالِفَ إلى غَيْرِهِ فِيمَا أَسَرَّ، وَمَنْ لَمْ يَخْتَلِفْ سِرُّهُ وَعَلَانِيَتُهُ، وَفِعْلُهُ وَمَقَالَتُهُ، فَقَدْ أَدَّى الْأَمَانَةَ، وَأَخْلَصَ الْعِبَادَةَ. وَأَمَرَهُ ألا يَجْبَهَهُمْ**[1] **وَلَا يَعْضَهَهُمْ**[2]**، وَلاَ يَرْغَبَ عَنْهُمْ تَفَضُّلاً بِالإِمَارَةِ[الامانةّ] عَلَيْهِمْ، فَإِنَّهُمُ الإِخْوَانُ فِي الدِّينِ، وَالْأَعْوَانُ عَلَى اسْتِخْرَاجِ الْحُقُوقِ. وَأن لَكَ فِي هَذِهِ الصَّدَقَةِ نَصِيباً مَفْرُوضاً، وَ حَقّاً مَعْلُوماً، وَ شُرَكَاءَ أهل مَسْكَنَةٍ، وَضُعَفَاءَ ذَوِي فَاقَةٍ، وَإِنَّا مُوَفُّوكَ حَقَّكَ فَوَفِّهِمْ حُقُوقَهُم،...**))[3].

(١) يجبههم من جَبَه الرجلَ يَجْبَهُه جَبْهاً: رَدَّه عن حاجته واستقبله بما يكره، ابن منظور، لسان العرب، ١٣/ ٤٨٣.

(٢) يعضههم: لعَضَه والعِضَة والعَضِيهةُ: البَهِيتةُ، وهي الإِفْكُ والبُهْتانُ والنَّمِيمةُ، ابن منظور، لسان العرب، ١٣/ ٥١٥.

(٣) نهج البلاغة / ٥٧٦.

لقد أمر الإمام عليه السلام عامله هنا ألا يستقبل أهل الصدقات بالمكروه بأن يجبههم ولا يبتعد فيتجافى عنهم أو يعرض عن مجالستهم لظنه أنه أحسن منهم وأفضل لمنزلة الإمارة[١]، وإنما اتباع سياسة الوسطية والاعتدال[٢] والمنزلة بين الأمرين؛ لأن هناك فلسفة وجدوى اقتصادية من ذلك، فهم أصحاب مبدأ وعقيدة واحدة توجب الاحترام والتقدير أولاً، ولأن لهم دوراً مهماً في الميزان الاقتصادي والحقوق المالية ثانياً، فهم العمود الفقري للدولة وخزينتها.

إن المسار الوسطي هو الطريق بين أن لا يلقاهم بما يكرهون ولا يبتعد عنهم ويتجافاهم، لا إفراط ولا جفاء في ذلك، بالمعنى أن المسار الوسطي هنا هو طريقة

(١) ينظر: بيهقي خرساني، معارج نهج البلاغة، ص٣٧٢؛ الراوندي، منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، ٣/ ٦٠؛ الكندري البيهقي، حدائق الحقائق في شرح نهج البلاغة، ٢/ ٤٣٢؛ ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ٥/ ١٥٩؛ البحراني، اختيار مصباح السالكين (شرح نهج البلاغة الصغير)، ص٤٩٤؛ السرخسي، أعلام نهج البلاغة، ص٢٣٨؛ الموسوي، شرح نهج البلاغة، ٤/ ٣١٤؛ التستري، بهج الصباغة في شرح نهج البلاغة، ٦/ ٥٨٤؛ مغنية، في ظلال نهج البلاغة، ٣/ ٤٥١؛ عبدة، شرح نهج البلاغة، ٣/ ٣٠؛ أنصاريان، شرح نهج البلاغة المقتطف من بحار الأنوار، ٣/ ٦٦؛ دخيل، شرح نهج البلاغة، ٢٥-٢٦/ ٧٤؛ الخوئي، منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، ١٩/ ٣٦؛ المحمودي، نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة، ٧/ ٤٣٢.

(٢) وهذه السياسة والصفة تجلت في أمير المؤمنين عليه السلام نفسه، فهو لا يتوقف عند محتوى النص، بل هو مطبق لنصه ومحتواه فعليّاً، فمع قربه من الناس كواحد منهم كان شديد الهيبة والعظمة، فلا شديد فينفر ولا لين فيعصر، يقول ضرار واصفاً الإمام عليه السلام لمعاوية: (أما إذا لا بد من وصفه فكان والله بعيد المدى شديد القوى يقول فصلا ويحكم عدلا يتفجر العلم من جوانبه وتنطق الحكمة من نواحيه يستوحش من الدنيا وزهرتها ويستأنس بالليل ووحشته، وكان والله غزير العبرة طويل الفكرة يقلب كفّه ويخاطب نفسه يعجبه من اللباس ما قصر ومن الطعام ما خشن، كان فينا كأحدنا يجيبنا إذا سألناه وينبئنا إذا استنبأناه، ونحن مع تقريبه إيانا وقربه منا لا نكاد نكلمه لهيبته ولا نبتدئه لعظمته...)، القالي، الأمالي، ٢/ ١٤٩

وأسلوب واستراتيجية تعامل موظف الدولة مع المواطنين والآثار الإيجابية المترتبة على ذلك، ثم أن هذا المسار يحمل بعداً تثقيفياً أولاً ومنهجاً ونظاماً غير قابلين للرفض أو عدم التنفيذ ثانياً، لأن هناك فلسفة ونتيجة مترتبة منه، لذلك كان هذا الطرح كاشفاً عن أن من أهم ما يمكن أن يترتب على الوسطية والاعتدال محاربة الغرور والتكبر الذي يمكن أن يصيب أصحاب المناصب والمتنفذين، فهو واجب شرعي وأمانة يؤديه كما تُؤدَّى العبادات، فضلاً عن خلق نظام ومستوى معيشي يتكفل أضعف مواطن إذ تُؤخذ الصدقات أو الزكاة من أصحاب الأموال وتذهب إلى المستحقين من أهل المسكنة وذوي الفاقة، والاحتياجات فيخلق توازناً اقتصاديّاً من دون تضخم.

بالمحصلة النهائية فإن الوسطية والاعتدال في السياسة الاقتصادية للدولة لها أبعادها على الاقتصاد سلباً أو إيجاباً، وتعد مساراً تنظيميّاً للتوازن والتنمية الاقتصادية، هذا من جانب، و أن الإمام عليًّا عليه السلام يأخذنا إلى جانب وفلسفة أخرى لمنهج وأسلوب العدل في سياسة الدولة الاقتصادية والمخاطر التي تتمخض عن الانحراف عنها، وهو منهج متطور جداً في السياسة والعولمة الاقتصادية، إذ يبين أمير المؤمنين عليه السلام أن الوسطية والاعتدال في السياسة الاقتصادية يعدان من ركائز الأمن الوطني والاستقرار الإقليمي، فيقول عليه السلام في هذا المنحى لزياد بن عبيد الثقفي في كلام نهاه فيه عن تقدم الخراج: ((**اسْتَعْمِلِ الْعَدْلَ، وَاحْذَرِ الْعَسْفَ وَالْحَيْفَ، فَإِنَّ الْعَسْفَ يَعُودُ بِالْجَلَاءِ، وَالْحَيْفَ يَدْعُو إِلَى السَّيْفِ**))[1].

فالابتعاد عن الوسطية والاعتدال في السياسة الاقتصادية له نتائجه الخطيرة على المستوى الاقتصادي والاجتماعي والسياسي والأمني للدولة المتمثل في إخلاء

(١) نهج البلاغة، ص٨٣٩.

البلاد والهجرة بجلاء المعسوف عنهم عن أوطانهم ومن ثم يؤدي إلى الخراب، والظلم والجور يؤديان إلى التمرد والثورة اللتين تساهمان في زوال الدولة وتقضيان على حكمها، وبهذا فإن الإمام عليه السلام منع من أن تؤخذ الضرائب الخراجية قبيل بيع الثمار كما كانوا يفعلون[1].

ويمكن القول إن نظرة الإمام عليه السلام للوسطية والاعتدال في السياسة الاقتصادية قامت على مرتكزات موضوعية عدة لمعالجة الآثار السلبية للخلل الاقتصادي السابق التي سببت إحداث الطبقية بين العامل والمستثمر؛ لأن أخذ الضرائب دون التفكير بالعامل يكون أكثر خصباً لنمو الفقر وتشعب فروعه، مما يؤدي إلى فقدان أحد عوامل الإنتاج بل العامل الرئيس للإنتاج وهو اليد العاملة، هذا إلى جانب التأثير في الوضع الأمني بحدوث الثورات والاضطرابات ونشوء شبكات التخريب.

وإن الإمام عليه السلام لا يرى الإنتاج غاية أساسية؛ إذ لا يرمي إلى مزيد من الإنتاج، بل إلى إقامة توازن وانسجام وتوفير المستلزمات الأساسية لاستمراره وتحقيق الضمان الاجتماعي، ومن ثم نمو الإنتاج والزيادة فيه، ومصداق ذلك في قوله عليه السلام لمالك الأشتر عندما ولاه على مصر أن يهتم بالخراج وعمارة الأرض اللذين على أساسهما يستمر الإنتاج ومن ثم تتحرك عجلة الاقتصاد، فيقول له: ((**وَ تَفَقَّدْ أَمْرَ الْخَرَاجِ بِمَا يُصْلِحُ أَهْلَهُ، فَإِنَّ فِي صَلَاحِهِ وَصَلَاحِهِمْ صَلَاحاً لِمَنْ سِوَاهُمْ، وَلَا صَلَاحَ**

(١) ينظر: ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ٢٠/ ٢٤٥؛ البحراني، شرح نهج البلاغة(الكبير)، ٥/ ٤٦٦-٤٦٧؛ الأردبيلي، شرح نهج البلاغة، ص ٤٠٧ (فارسي)؛ نواب اللاهيجي، شرح نهج البلاغة، ص ٣٣٣ (فارسي)؛ الخوئي، الدرة النجفية، ص٣٩٤؛الأنصاري، شرح نهج البلاغة، ١٢١٧ (فارسي)؛ الموسوي، شرح نهج البلاغة، ٥/ ٥٤٠؛ مغنية، في ظلال نهج البلاغة، ٤/ ٤٨٤؛ دخيل، شرح نهج البلاغة، ٣٧-٣٨/ ٩٥؛ الخوئي، منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، ٢١/ ٥٤٢؛ الشيرازي، توضيح نهج البلاغة، ٤/ ٤٨٤.

لِمَنْ سِوَاهُمْ إلّا بِهِمْ؛ لِأَنَّ النَّاسَ كُلَّهُمْ عِيَالٌ عَلَى الْخَرَاجِ وَ أَهْلِهِ. وَلْيَكُنْ نَظَرُكَ فِي عِمَارَةِ الْأَرْضِ أَبْلَغَ مِنْ نَظَرِكَ فِي اسْتِجْلَابِ الْخَرَاجِ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ لَا يُدْرَكُ إلا بِالْعِمَارَةِ؛ وَمَنْ طَلَبَ الْخَرَاجَ بِغَيْرِ عِمَارَةٍ أَخْرَبَ الْبِلَادَ، وَ أَهْلَكَ الْعِبَادَ،))[1].

معيار التنمية الاقتصادية وفلسفتها الواقعية

للإمام علي عليه السلام برنامج ومخطط اقتصادي متكامل وواسع جداً سواء في الاهتمام بالمسائل المالية أم في تنظيم حركة المال في أيدي الناس أم في تنظيم السوق الذي يحدده الإمام عليه السلام في ضوء الشريعة الإسلامية والفكر المالي والاقتصادي الحديث، إذ يمكن القول إن الإمام عليًّا عليه السلام له الريادة والأسبقية في تأصيل الجانب الاقتصادي ضمن مشروعه الرسالي الذي يهدف للوسطية والاعتدال في جميع محاوره والذي يؤدي بدوره إلى التنمية الاقتصادية، مع العلم أن التنمية الاقتصادية واستدامتها في فكر الإمام عليه السلام لا تتعلقان بالمادة فحسب، بل تتجهان إلى أفق أوسع في الاهتمام بالبيئة الثقافية والدينية للمجتمع.

والتنمية الاقتصادية في فكر الإمام عليه السلام تقوم على معيار ومرتكز أساس، يطلق عليه الرشد الاقتصادي الذي لا يعني بأي حال من الأحوال التقتير أو التبذير وإنما حسن التدبير والبعد عن الإسراف والتبذير أو الاستعمال العقلائي للأموال كما في قوله تعالى: **﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾**[2]، والحصول على أكبر عائد بأقل كلفة ممكنة، والنتيجة الأهم هي الابتعاد عن الفقر[3] كما يقول الإمام

(١) نهج البلاغة، ص٦٦٤-٦٦٦.

(٢) الفرقان/ ٦٧.

(٣) سعى الإمام علي عليه السلام إلى علاج ظاهرة الفقر في المجتمع والتخلص منها؛ لأن الفقر كما يرى الإمام علي عليه السلام له تأثيرات سلبية عدة وعواقب ضارة وآثار وبيلة خاصة وعامة، ومنها الآثار النفسية فالفقير مشتت التفكير قليل التركيز، يقول عليه السلام: (يَا بُنَيَّ، إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكَ الْفَقْرَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنْهُ،

الصادق عليه السلام (ضمنت لمن اقتصد أن لا يفتقر)[١]، وكما جاء في قوله تعالى: ﴿**وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا**﴾[٢]، فالرشد الاقتصادي والاعتدال طريق وسط بين غل اليد وبسطها، وهو طريق وقائي يرفع مكمن الخطر والأزمات والمضاعفات التي يمكن أن تنبثق من نتيجة بسط اليد أو غلها، ويقول الإمام علي عليه السلام من جنس هذه المقدمة في كتابه لأحد العمال: ((**فَدَعِ الإسراف مُقْتَصِداً، وَ اذْكُرْ فِي الْيَوْمِ غَداً، وَ أَمْسِكْ مِنَ الْمَالِ بِقَدْرِ ضَرُورَتِكَ، وَ قَدِّمِ الْفَضْلَ لِيَوْمِ حَاجَتِكَ. أَ تَرْجُو أن يُعْطِيَكَ[يؤتيك] اللهُ أَجْرَ الْمُتَوَاضِعِينَ وَ أَنْتَ عِنْدَهُ مِنَ الْمُتَكَبِّرِينَ! وَ تَطْمَعُ - وَ أَنْتَ مُتَمَرِّغٌ فِي النَّعِيمِ، تَمْنَعُهُ الضَّعِيفَ وَ الْأَرْمَلَةَ، أن يُوجِبَ لَكَ ثَوَابَ الْمُتَصَدِّقِينَ؟ وَإِنما الْمَرْءُ مَجْزِيٌّ بِمَا أَسْلَفَ وَ قَادِمٌ عَلَى مَا قَدَّمَ، وَ السَّلَامُ**))[٣].

وكلام أمير المؤمنين عليه السلام هنا هو ترهيب ومحاسبة لعماله من ناحية، وتثقيف ودراسة علمية اقتصادية من ناحية أخرى، مع التسليم أن الكلام لا يخص فرداً بل إن كلام الإمام عليه السلام وإمام الكلام له تلك الصفة وذلك الحضور والانطباق على كل زمان ومكان، فالإمام عليه السلام هنا يدعو عامله أن يدع الإسراف مقتصداً أي التوسط في الإنفاق من بدون إسراف ولا تقتير، بل الاعتدال في صرف الأموال فلا تقتير فيها كالبخلاء ولا إسراف، وترك الإسراف رذيلة الإفراط من فضيلة

فَإِنَّ الْفَقْرَ مَنْقَصَةٌ لِلدِّينِ، مَدْهَشَةٌ لِلْعَقْلِ دَاعِيَةٌ لِلْمَقْتِ)، نهج البلاغة، ص ٨٠٠، وقال عليه السلام:(الْبُخْلُ عَارٌ، وَ الْجُبْنُ مَنْقَصَةٌ، وَ الْفَقْرُ يُخْرِسُ الْفَطِنَ عَنْ حُجَّتِهِ، وَ الْمُقِلُّ غَرِيبٌ فِي بَلْدَتِهِ)، نهج البلاغة، ص٧١٧ وقال عليه السلام (الْفَقْرُ الْمَوْتُ الْأَكْبَرُ[الأحمر])، نهج البلاغة، ص٧٦٣، و أن اختلال الموازين تؤدي بالفقير إلى أن يبيع آخرته بدنياه قال عليه السلام:(وَ إِذَا بَخِلَ الْغَنِيُّ بِمَعْرُوفِهِ بَاعَ الْفَقِيرُ آخِرَتَهُ بِدُنْيَاه)، الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة، ص٨١٥.

(١) الكليني، الكافي، ٤/ ٥٣.

(٢) الإسراء/ ٢٩.

(٣) نهج البلاغة، ص٥٦٨-٥٦٩

الاقتصاد المتوسط بينه وبين الإجحاف بالنفس والإضرار بها وهو طرف التفريط من هذه الفضيلة، كذلك أن يمسك من المال بقدر الضرورة وهو المنحى نفسه من الاقتصاد، أي أن يأخذ من المال من دون إفراط ولا تفريط بل بقدر الضرورة والحاجة[١]، وهو ما يمكن أن نطلق عليه على وفق كلام الإمام عليه السلام بالرشد الاقتصادي والاستخدام العقلاني للأموال، ومنهج التوسط والرشد الاقتصادي ليس اعتباطياً أو أمراً من إمام وخليفة وحاكم إلى عامل، بل هو منهج يحمل أبعاداً فلسفية ونتائج اقتصادية عدة، فالاقتصاد في الإنفاق له بعد مستقبلي دنيوي-أخروي كما بيَّنه الإمام علي عليه السلام سواء في الإسراف الذي يترتب عليه نتائجه السلبية في الدنيا، لأن المسرف والمبذر يكونان معرضين للفقر والحاجة في يوم من الأيام من ناحية، كما أن في إسرافه ومنعه لذوي الحقوق في أمواله يترتب عليه أيضاً النتائج المستقبلية المستلزمة للعذاب الآخروي.

ولم يشر الشرّاح إلى الآثار الدنيوية المترتبة على الإسراف في الأموال، بل هناك اتفاق تام بين الشرّاح على أن يحفظ الأموال الزائدة عن الضرورة ليوم الحاجة يوم البعث والنشور يوم القيامة وما بعد الموت[٢]، وهذا الفهم صحيح لا إشكال فيه

(١) ينظر: ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٥/ ١٣٩؛ البحراني، شرح نهج البلاغة (الكبير)، ٤/ ٤٠٠-٤٠١؛ الخوئي، الدرة النجفية، ص٣٠٨؛ الشيرازي، توضيح نهج البلاغة، ٣/ ٤٦٦-٤٦٧؛ الموسوي، شرح نهج البلاغة، ٤/ ١٩٤؛ أنصاريان، شرح نهج البلاغة المقتطف من بحار الأنوار، ٣/ ٥٧؛ دخيل، شرح نهج البلاغة، ٢٥-٢٦/ ٥٣-٥٤؛ الخوئي، منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، ١٨/ ٣٣٨-٣٣٩.

(٢) ينظر: الراوندي، منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، ٣/ ٥١؛ ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٥/ ١٣٩؛ البحراني، شرح نهج البلاغة (الكبير)، ٤/ ٤٠٠-٤٠١؛ الخوئي، الدرة النجفية، ص٣٠٨؛ الشيرازي، توضيح نهج البلاغة، ٣/ ٤٦٦-٤٦٧؛ الموسوي، شرح نهج البلاغة، ٤/ ١٩٤؛ أنصاريان، شرح نهج البلاغة المقتطف من بحار الأنوار، ٣/ ٥٧؛ دخيل، شرح نهج البلاغة، ٢٥-

لكن هذا التصرف السلبي لا يترتب عليه تلك النتيجة فحسب، بل أيضاً تندرج تحت عنصر الزمن والأزمات الاقتصادية التي تكون نتيجة حتمية أيضاً للإسراف في الأموال.

وبالمحصلة النهائية فإن ترشيد استخدام الأموال الشخصية هو لبناء مستوى معاشي متوازن، وبذلك فإن أمير المؤمنين عليه السلام وضع منهجاً اقتصاديّاً مبيناً السبب والحل، وهو منهج له قيمة في الفكر الاقتصادي الحديث يمتاز بديناميكية عالية المستوى بالحصول على جودة عالية مع الكلفة الواطئة، ومع منهج التدبير تقل نسبة الفقر ويعيش المجتمع تحت مستوى معاشي مرتفع، فكلما قل إنفاق الشخص انحسر فقره، كما يقول أمير المؤمنين عليه السلام: (مَا عَالَ مَنِ اقْتَصَد)[1]، فالاقتصاد في المخارج على قدر المنافع ووضع كل شيء موضعه بسلك طريق ومنهج الاقتصاد بالتوسط في الإنفاق من دون إسراف أو تقتير لا يحصل الفقر[2]، مع العلم أن الإمام عليه السلام لا يعني بالاقتصاد في الإنفاق البخل والتقتير بل الاعتدال. وهذا المنهج التأسيسي في البناء يمثل مصدراً للتنمية والإنتاجية ويقوم على تحقيق ما يأتي:

١. استراتيجية اقتصادية مستدامة وأهداف طويلة الأمد مبنية على أسس علمية.

٢٦/ ٥٣-٥٤؛ الخوئي، منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، ١٨/ ٣٣٨-٣٣٩.

(١) نهج البلاغة، ص٧٥٤.

(٢) ينظر: بيهقي خرساني، معارج نهج البلاغة، ص٤٢٧؛ الراوندي، منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، ٣/ ٣١٨؛ الكندري البيهقي، حدائق الحقائق، ٢/ ٦٤٤؛ البحراني، اختيار مصباح السالكين (شرح نهج البلاغة الصغير)؛ ص٦١٣؛القمي، شرح حكم نهج البلاغة، ص٢١٩؛ الخوئي، الدرة النجفية، ص٣٦٧؛ الخوئي، منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، ٢١/ ٢١٢؛ مغنية، في ظلال نهج البلاغة، ٤/ ٣٠٧؛ دخيل، شرح نهج البلاغة، ٣٣-٣٤/ ٧٩؛ الموسوي، شرح نهج البلاغة، ٥/ ٣١٩؛ عبدة، شرح نهج البلاغة، ٣/ ١٨٥؛ الشيرازي، توضيح نهج البلاغة، ٤/ ٣٣١؛ عبد الزهراء الخطيب، مصادر نهج البلاغة وأسانيده، ٤/ ١٢٢.

٢. أن كلام أمير المؤمنين عليه السلام لا ينطبق على المستوى الشخصي والفردي فحسب، بل ينطبق كذلك على مستوى أوسع كاقتصاد الدولة، وعند تطبيق هذه المنهج فإنه لا ينتج عنه افتقار الدولة أو فشلها اقتصاديّاً.

٣. اتباع نظام الاعتدال والتوسط في الإنفاق والطلب يحقق التوازن الاقتصادي وإلغاء الطبقية المجتمعية.

٤. يمكن القول إن الاقتصاد مفهوم عام لا يشمل المال فحسب، بل ينطبق على كل مناحي الحياة من مأكل وملبس، كما يقول الإمام عليه السلام: ((**كُلُّ مُقْتَصَرٍ عَلَيْهِ كَافٍ**))[١]، وعن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: ((**أترى الله أعطى من أعطى من كرامته عليه ومنع من منع من هوان به عليه ؟ لا، ولكن المال مال الله يضعه عند الرجل ودايع، وجوز لهم أن يأكلوا قصدا ويشربوا قصدا ويلبسوا قصدا وينكحوا قصدا ويركبوا قصدا ويعودوا بما سوى ذلك على فقراء المؤمنين ويلموا به شعثهم، فمن فعل ذلك كان ما يأكل حلالا ويشرب حلالا ويركب وينكح حلالا، ومن عدا ذلك كان عليه حراما**))[٢].

على أن الرشد أو القصد في فكر الإمام علي عليه السلام لا يقع على محور واحد وإنما يشمل جانبي الإنفاق والاستهلاك والكسب لتحقيق تنمية مستدامة تحفظ الحقوق في الحاضر والمستقبل وتنظيم وتوجيه استراتيجي للاقتصاد، وتأسيساً على ما تقدم فإن الإمام عليه السلام يقول: ((**كُنْ سَمْحاً وَ لَا تَكُنْ مُبَذِّراً، وَ كُنْ مُقَدِّراً وَ لَا تَكُنْ مُقَتِّراً**))[٣]. فالإمام عليه السلام هنا يضع معياراً ومنهجاً وقاعدة تنموية اقتصادية وهي

(١) نهج البلاغة، ص٨٢١.

(٢) المجلسي، بحار الانوار، ٧٢/ ٣٠٥.

(٣) نهج البلاغة، ص٧٢٦.

العطاء أو الإنفاق الراشد الذي يكون في السماحة والتقدير، فلا تقتير ولا تضييق في الإنفاق ولا تبذير وانفاق للمال في غير محله، وإنما بين بين، ووضع كل شيء موضعه من غير تبذير أو تقتير، فتنتظم المعيشة بسلك مسلك التعديل بين الزيادة أو النقصان[١]، فلا يبذر فيصيب بالإفلاس، ولا يقتر فيبخل على نفسه ويعيش حال الفقراء، والطريقة المثلى مع ذلك هو سلك مسلك الوسطية والاعتدال بالسماحة والاقتدار في الإنفاق، وعلى هذا فإن كلام الإمام عليه السلام يأتي في بعدين:

البعد الأول: البعد التثقيفي للوسطية والتنفير عن الطرفين السلبيين الإفراط والتفريط المتمثل بالتبذير والتقتير، فالسخاء هو الوسط بين الأخلاق المتضادة، أي البخل والتبذير.

البعد الثاني: تنظيم المعيشة بالاعتدال في الإنفاق يعد معياراً للتنمية الاقتصادية واستدامتها؛ لأن التبذير يؤدي إلى الإفلاس والبخل والشح أيضاً يؤدي إلى وقف تداول الأموال، فيخل بالميزان الاقتصادي[٢].

وبرؤية ذات صلة بما تقدم فإن ترك الاعتدال مسار التنظيم يعني حدوث الخلل في البنية الاقتصادية، ومن ثم حدوث التخلف وعدم الشمول والتوازن، وبهذا فإن الإمام عليه السلام تلمس المشكلة ومكمن العوامل المسببة لها المتمثلة بالابتعاد عن الطريق الوسطى طريق الاعتدال والاستقامة، فبترك الاعتدال تكون النتائج

(١) ينظر: مغنية، في ظلال نهج البلاغة، ٤/ ٢٣٧؛ عبدة، شرح نهج البلاغة، ٣/ ١٥٩؛ دخيل، شرح نهج البلاغة، ٣١-٣٢/ ١٠١؛ الموسوي، شرح نهج البلاغة، ٥/ ٢٣٢.

(٢) عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام قال: (إن أمير المؤمنين صلوات الله عليه سمع رجلا يقول: إن الشحيح أغدر من الظالم، فقال له: كذبت أن الظالم قد يتوب ويستغفر ويرد الظلامة على أهلها والشحيح إذا شح منع الزكاة والصدقة وصلة الرحم وقري الضيف والنفقة في سبيل الله وأبواب البر؛ وحرام على الجنة أن يدخلها شحيح، الكليني، الكافي، ٤/ ٤٤.

إما تطرفاً وغلواً أو تقتيراً وإسرافاً وتبذيراً، وكما يقول الإمام علي عليه السلام في وصيته لابنه الإمام الحسن عليه السلام: ((**مَنْ تَرَكَ الْقَصْدَ جَار**))[١]، فمن أسرف تعدى الحدود، ومن أمسك قصر عنها، والطريق الوسطى خير الطرق وأسلمها، وهي سبيل الخير والنجاح؛ لأن الفضائل تحيط بها الرذائل، ومن تركها مال عن الصواب[٢].

ولأجل فهم أكثر نود أن ندلي بشيء من التوضيح أن الإنسان إذا ابتعد عن دائرة الرشد الاقتصادي ومسار الوسطية التنظيمية، فلا يؤثر ذلك على الجانب المالي والاقتصادي فحسب، بل له آثار أخرى في الابتعاد عن الدائرة الإلهية؛ لأن الإفراط أو التفريط كلاهما له الآثار السلبية نفسها، وكما يقول الإمام عليه السلام لمعاوية بن أبي سفيان: ((**وَإلا تَفْعَلْ أُعْلِمْكَ مَا أَغْفَلْتَ مِنْ نَفْسِكَ، فَإِنَّكَ مُتْرَفٌ قَدْ أَخَذَ الشَّيْطَانُ مِنْكَ مَأْخَذَهُ، وَبَلَغَ فِيكَ أَمَلَهُ، وَجَرَى مِنْكَ مَجْرَى الرُّوحِ وَالدَّم**))[٣]، مع العلم أن تلك النتيجة لا تخص معاوية فقط، بل كل شخص مترف يسلك مسلكه)، وكما جاء في قوله تعالى: ﴿ **كَلَّا أن الإنسان لَيَطْغَى أَنْ رَآَهُ اسْتَغْنَى** ﴾[٤].

فالنعمة والغنى تؤديان إلى نتيجة محتملة في الطغيان، فعند توافر الإمكانات يرون أنفسهم في غنى عن الله، لهذا نجد أمير المؤمنين عليه السلام يقول في دعاء له:

---

(١) نهج البلاغة، ص٦١١.

(٢) ينظر: ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٦/ ١١٧؛ الخوئي، الدرة النجفية، ص٣٢٣؛ مغنية، في ظلال نهج البلاغة، ٣/ ٥٢٦؛ الموسوي، شرح نهج البلاغة، ٤/ ٣٩٧؛ عبدة، شرح نهج البلاغة، ٣/ ٦٢؛ عبد الزهراء الخطيب، مصادر نهج البلاغة وأسانيده، ٣/ ٢٩٤؛ التستري، بهج الصباغة في شرح نهج البلاغة، ٨/ ٤٤٢؛ دخيل، شرح نهج البلاغة، ٢٧-٢٨/ ٧٤.

(٣) نهج البلاغة، ص٥٥٧.

(٤) العلق / ٦-٧.

((نَسْأَلُ اللهَ سُبْحَانَهُ أَن يَجْعَلَنَا وَإِيَّاكُمْ مِمَّنْ لَا تُبْطِرُهُ نِعْمَةٌ))[١]، فهي تسدل على بصيرته حجاب الغفلة، فيحول نعمة الله إلى وسائط للمعصية والتمرد عليه[٢]، مع العلم أن الفقر أيضاً له النتيجة نفسها، ومن تطبيقات ذلك قول الإمام عليه السلام: ((إن اسْتَغْنَى بَطِرَ وَفُتِنَ، وَأن افْتَقَرَ قَنِطَ وَوَهَنَ؛ يُقَصِّرُ إِذَا عَمِلَ، وَيُبَالِغُ إِذَا سَأَل))[٣]، ومن ثم فإن كلاً من الغنى والفقر له نتائجه الخطيرة؛ لأنه إذا نال الثروة يطروه التكبر والفرعنة والاغترار بالنعمة والغرور فتنة، وإن افتقر يئسَ من رحمة الله وضعف عن أداء ما عليه[٤]، والطريق الوسط بينهما هو الأسلم.

وفي ضوء هذا الإطار فالوسطية والاعتدال هما السبيل الأمثل، وهما المسؤولان عن التنظيم الاقتصادي، وكما يصفهما القرآن الكريم بالفلاح في قوله تعالى: ﴿وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[٥]، لذا فإن الغنى أو البخل أو الإفراط أو التفريط المالي له آثار ونتائج على الإنسان نفسه، فضلاً عن تأثيراتها الاقتصادية في الإخلال بالتوازن الاقتصادي الذي يؤثر بدوره في التنمية الاقتصادية، لذلك فإن الوسطية والاعتدال في كل المحاور الاقتصادية

(١) نهج البلاغة، ص١١٣.

(٢) ينظر: عبدة، شرح نهج البلاغة، ١/ ١٠٧؛ أنصاريان، شرح نهج البلاغة المقتطف من بحار الأنوار، ١/ ٤٥٥؛ الموسوي، شرح نهج البلاغة، ١/ ٣٩٠؛ الشيرازي، توضيح نهج البلاغة، ١/ ٢٥٣؛ الخراساني، مفتاح السعادة في شرح نهج البلاغة، ٧/ ٣٥٧؛ الخوئي، منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، ٤/ ٤٠٥؛ مغنية، في ظلال نهج البلاغة، ١/ ٣٢٧؛ دخيل، شرح نهج البلاغة، ٥-٦/ ٢٤؛ عبد الزهراء الخطيب، مصادر نهج البلاغة وأسانيده، ٢/ ٤٣.

(٣) نهج البلاغة، ص٧٦٠.

(٤) ينظر: الشيرازي، توضيح نهج البلاغة، ٤/ ٣٤١؛ عبدة، شرح نهج البلاغة، ٣/ ١٩٠؛ دخيل، شرح نهج البلاغة، ٣٣-٣٤/ ٩٣.

(٥) التغابن / ١٦.

تعد معايير للتنمية الاقتصادية، ونجد مصداق ذلك في أقوال الإمام عليه السلام الذي نظم الكسب المادي تنظيماً تنمويّاً من دون مبالغة أو تقصير أو لا زيادة ولا نقصان في الكسب، فيقول عليه السلام في ذلك: ((**وَالدُّنْيَا دَارُ مُنِيَ لَهَا الْفَنَاءُ، وَلِأَهْلِهَا مِنْهَا الْجَلَاءُ، وَهِيَ حُلْوَةٌ خَضْرَاءُ، وَقَدْ عَجِلَتْ لِلطَّالِبِ؛ وَالْتَبَسَتْ بِقَلْبِ النَّاظِرِ، فَارْتَحِلُوا مِنْهَا بِأَحْسَنِ مَا بِحَضْرَتِكُمْ مِنَ الزَّادِ، وَلَا تَسْأَلُوا فِيهَا فَوْقَ الْكَفَافِ**[1]، **وَلَا تَطْلُبُوا مِنْهَا أَكْثَرَ مِنَ الْبَلَاغِ**))[2]، فالكفاف فوق المقدار الذي يكفي لا أكثر من الحاجة ولا اقل منها، وإنما وسط بين الترف والضرورة، الاعتدال بين الغنى المطغي والفقر المذل ولا أكثر من البلاغ الذي يبلغ للآخرة، فيكون بذلك الإنسان خازناً لغيره؛ لأن ما زاد عن الحاجة فهو للوارث أو الحوادث[3].

ولعل الغاية من هذا التوسط إنما تنشأ من أن في الكفاف حلاً لمشكلة الفقر؛ إذ إنها تحد من ثروة الأغنياء، و أن حد الكفاف في المخطط الاقتصادي الاجتماعي يمثل حركة صاعدة ونازلة، فهو الحركة الصاعدة في دفع الفقراء من دائرة الفقر للوصل إلى مستوى الأغنياء والحركة المتنازلة في دفع الأغنياء للنزول من عرش الغنى والثروة إلى الزهد أو العيش على قدر الحاجة على أن حد الكفاف نسبي يتغير بتغير وتطور الزمن، ويعد الكفاف في المشروع السماوي والرسالي العظيم

(١) الكفافُ من القوت: الذي على قَدْر نفقته لا فضل فيها ولا نقص، ابن منظور، لسان العرب، ٩/ ٣٠٦.

(٢) نهج البلاغة، ص٩٨.

(٣)ينظر: الراوندي، منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، ١/ ٢٦١-٢٦٢؛ ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ٣/ ١٥٢؛ الموسوي، شرح نهج البلاغة، ١/ ٣٣٢؛ الشيرازي، توضيح نهج البلاغة، ١/ ٢١٢؛ مغنية، في ظلال نهج البلاغة، ١/ ٢٧٠؛ التستري، بهج الصباغة في شرح نهج البلاغة، ١١/ ٣٩٠؛ أنصاريان، شرح نهج البلاغة المقتطف من بحار الأنوار، ١/ ٤٥٢؛ الخراساني، مفتاح السعادة، ٦/ ٤٤٢؛ عبد الزهراء الخطيب، مصادر نهج البلاغة وأسانيده، ٢/ ٥.

من المرتكزات والمتطلبات الأساسية، فيقول الرسول ﷺ: ((**اللهم ارزق محمدا وآل محمد ومن أحب محمدا وآل محمد العفاف والكفاف وارزق من أبغض محمدا وآل محمد المال والولد**))[١].

وعود على بدء لم تكمن أهمية الكفاف من أنه حصن للإنسان من ناحية، فضلاً عن فلسفته التكاملية من ناحية أخرى، فلا تتعلق بالجانب المادي فحسب، بل شملت التأثيرات الأخرى التي يمكن أن تكون نتائج للكفاف أو بالمعنى مساراً للوسطية والاعتدال في الثروة كالأسباب الصحية والنفسية، ولا يمكن فهم هذا الكلام من غير الاطلاع على ما أورده الإمام علي عليه السلام في هذا الإطار، يقول عليه السلام: ((**وَ لَا مَالَ أَذْهَبُ لِلْفَاقَةِ مِنَ الرِّضَى بِالْقُوتِ. وَ مَنِ اقْتَصَرَ عَلَى بُلْغَةِ الْكَفَافِ فَقَدِ انْتَظَمَ الرَّاحَةَ، وَ تَبَوَّأَ خَفْضَ الدَّعَةِ**))[٢]، فالكفاف من الرزق لا زيادة ولا نقصان، له نتائجه في راحة البدن والنفس من هم الطلب والسعي، كما تكون لين السكون مباءة ومرجعاً، فينال الهدوء والعيش اللين والطيب[٣].

وهكذا نلاحظ أن الاعتدال في الرزق بشكل تنظيمي دقيق لا فقر وهموه ومضاره، ولا غنى المترف يبعث الشعور بالسكينة الداخلية وتطرد القلق والخوف والأحاسيس السلبية غير المريحة التي تؤدي إلى الاضطرابات النفسية، ومنها

(١) الكليني، الكافي، ٢/ ١٤٠؛ المجلسي، بحار الأنوار، ٦٩/ ٥٩.

(٢) نهج البلاغة، ص٨١٤.

(٣)ينظر: الراوندي، منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، ٣/ ٤٠٩؛ البحراني، شرح نهج البلاغة (الكبير)، ٥/ ٤٢٦؛ الموسوي، شرح حكم نهج البلاغة، ٥/ ٤٧٧؛ دخيل، شرح نهج البلاغة، ٣٧-٣٨/ ٣٠-٣١؛ الشيرازي، توضيح نهج البلاغة، ٤/ ٤٣٩-٤٤٠؛ القمي، شرح نهج البلاغة، ص٢٠٠-٢٠١؛ مغنية، في ظلال نهج البلاغة، ٤/ ٤٣١؛ عبد الزهراء الخطيب، مصادر نهج البلاغة وأسانيده، ٤/ ٢٧١؛ التستري، بهج الصباغة في شرح نهج البلاغة، ١٤/ ٥٩٨.

تذبذب الاستقرار النفسي، ولا سيما أن الاعتدال يمد الإنسان بالبناء السليم والأساس من الصحة والراحة النفسية.

ولكي تكتمل وتتوضح الوسطية التنظيمية فإن الإمام عليه السلام أكد في مناسبات كثيرة على الاعتدال في الكسب كمعيار وآلية للتنمية والتوازن الاقتصادي واستدامتها، ولم يترك عليه السلام الأمر اعتباطاً، بل أشار إلى الفلسفة من ذلك في قوله: **((وَ اعْلَمْ يَقِيناً أَنَّكَ لَنْ تَبْلُغَ أَمَلَكَ، وَ لَنْ تَعْدُوَ أَجَلَكَ، وَ أَنَّكَ فِي سَبِيلِ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ. فَخَفِّضْ فِي الطَّلَبِ، وَ أَجْمِلْ فِي المُكْتَسَبِ، فَإِنَّهُ رُبَّ طَلَبٍ قَدْ جَرَّ إلى حَرَبٍ؛ فَلَيْسَ كُلُّ طَالِبٍ بِمَرْزُوقٍ، وَ لَا كُلُّ مُجْمِلٍ بِمَحْرُومٍ))**[1]، وتبعاً لذلك فإن التوازن الاقتصادي يتطلب قاعدة تنظيمية وهي أن يجمل الإنسان في المكسب أي يعتدل ويسعى سعياً جميلاً في مسار تنظيمي، لا حرصاً فيمنع الحق ولا طمعاً فيتناول ما ليس بحق، أي أن يحفظ التوازن[2] والوسطية في المكسب، وهذه القاعدة والمنهج والمسار الاقتصادي الذي نظمه الإمام عليه السلام يقوم على أبعاد ومحددات عدة وهي:

البعد الأول: أن سقف مطالب الإنسان ليس له نهاية؛ لأنه يكون متجدداً ومتوجهاً إلى ما ليس مدركاً في الحال والإحالة، ولا يمكن أن يتجاوز الإنسان أجله المحدد له وإلا لما كان أجلاً له، وكل من لا يبلغ أمله ولا يتجاوز أجله أن يعتدل في المكسب لأن أكثرهم حرصاً وطمعاً أقلهم انتفاعاً بالمال.

---

(١) نهج البلاغة، ص ٦٠٦.

(٢) ينظر: البحراني، شرح نهج البلاغة (الكبير)، ٥/ ٤٤-٤٦؛الكاشاني، تنبيه الغافلين وتذكرة العارفين، ٢/ ٣٨٩-٣٩٠ (فارسي)؛ دخيل، شرح نهج البلاغة، ٢٧-٢٨/ ٥٧-٥٨؛ عبدة، شرح نهج البلاغة، ٣/ ٥٦-٥٧؛ مغنية، في ظلال نهج البلاغة، ٣/ ٥١٣-٥١٤؛ الشيرازي، توضيح نهج البلاغة، ٤/ ٧٠.

البعد الثاني: هناك سنة تاريخية وكونية أن الإنسان سائر في طريق من كان قبله الذين أرهقوا أنفسهم في الجمع والثروة ولم يستفيدوا منها.

البعد الثالث: يمكن أن نطلق عليه مثلث الاحتمالية الاقتصادية، وهو أن رب طلب جر إلى حرب، فقد يطلب الزيادة والادخار فتأتي النتيجة عكس ذلك وتُسلَب الأموال هذا أولاً، وثانياً ليس كل طالب للأموال والثروة مرزوق ويحصل عليها، وثالثاً ليس كل مجمل محروم أي ليس كل معتدل في الكسب محروم؛لأن الغنى قد يكون بالاعتدال في السعي والكسب دون إفراط أو تفريط.

البعد الرابع: تقدير الأرزاق بالآجال، فكل إنسان رزقه مقدر بأجل لن يعدوه ولن ينتهي أجله قبل استكمال رزقه، وهناك قول للرسول ﷺ يثبت ذلك أيضاً **((ألا وإن الروح الأمين نفث في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب ولا يحمل أحدكم استبطاء شيء من الرزق أن يطلبه بغير حله، فإنه لا يدرك ما عند الله إلّا بطاعته))**[1].

البعد الخامس: هناك بعد غير مباشر يمكن الخروج به من فلسفة الاعتدال في طلب الرزق، وهو أنها تحقق تقوى الله فلا تقاعس في طلب الرزق ولا إفراط، ولهما الأضرار نفسها السلبية، ومنها الابتعاد عن تقوى الله، لكن في المقابل الاعتدال يحقق التقوى التي تؤدي بدورها إلى الرزق، كما يقول تعالى في كتابه: ﴿**وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ**﴾[2]، ومن ثم فإن تقوى الله أعظم من المغالاة في طلب الأرزاق؛ لأن تقوى الله كما قلنا تؤدي إلى الرزق.

علاوة على ما تقدم فإن هناك غاية أخرى للتوسط والاعتدال في الكسب لا

(١) الكليني، الكافي، ٢/ ٧٤.

(٢) الطلاق / ٢.

تخلو أهمية بل هي الأهم مما سبق لأنها:

تقوم على فلسفه واقعية تنضبط تحت قاعدة عامة ونتيجة حتمية، وهي امتلاك الإنسان شأواً بعيداً من الأهداف المتمثلة بجمع الثروة والسعي نحوها، يتحول فيها من جامع وخازن للمال إلى فاقد لها ومحاسب عليها[١]، وآخر متمتع بها.

إن المبدأين يتشكلان نتيجة الفهم لكلام الإمام عليه السلام يمكن استخلاصهما من قوله عليه السلام في وصية لابنه الإمام الحسن عليه السلام: ((**فَاسْعَ فِي كَدْحِكَ، وَلَا تَكُنْ خَازِناً لِغَيْرِكَ، وَإِذَا أَنْتَ هُدِيتَ لِقَصْدِكَ فَكُنْ أَخْشَعَ مَا تَكُونُ لِرَبِّكَ. وَاعْلَمْ أن أَمَامَكَ طَرِيقاً ذَا مَسَافَةٍ بَعِيدَةٍ، وَمَشَقَّةٍ شَدِيدَةٍ، وَأَنَّهُ لَا غِنَى بِكَ فِيهِ عَنْ حُسْنِ الِارْتِيَادِ، وَقَدْرِ[قدّر] بَلَاغِكَ مِنَ الزَّادِ، مَعَ خِفَّةِ الظَّهْرِ، فَلَا تَحْمِلَنَّ عَلَى ظَهْرِكَ فَوْقَ طَاقَتِكَ، فَيَكُونَ ثِقْلُ ذَلِكَ وَبَالًا عَلَيْكَ، وَإِذَا وَجَدْتَ مِنْ أهل الْفَاقَةِ مَنْ يَحْمِلُ لَكَ زَادَكَ إِلى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَيُوَافِيكَ بِهِ غَداً حَيْثُ تَحْتَاجُ إِلَيْهِ فَاغْتَنِمْهُ وَحَمِّلْهُ إِيَّاهُ، وَأَكْثِرْ مِنْ تَزْوِيدِهِ وَأَنْتَ قَادِرٌ عَلَيْهِ، فَلَعَلَّكَ تَطْلُبُهُ فَلَا تَجِدُه**))[٢].

ويكاد يتفق الشرّاح على أن مقصد الإمام عليه السلام أن يكون سعي الإنسان للكسب لنفسه وأن ينفق المال في سبيل الله وفيما ينبغي من كسب الطاعات لا أن يبقى بعده للورثة[٣]، وهذا الفهم ناهض لا إشكال فيه، لكن لم يذهب الشرّاح إلى أبعد منه،

---

(١) ينظر قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، التوبة/ ٣٤.

(٢) نهج البلاغة، ص٦٠٠-٦٠١.

(٣) ينظر: الكندري البيهقي، حدائق الحقائق في شرح نهج البلاغة، ٢/ ٤٦٥؛ ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٦/ ٨٥؛ البحراني، شرح نهج البلاغة (الكبير)، ٥/ ٢٩؛ السرخسي، أعلام نهج البلاغة، ص٢٤٨؛ الخوئي، الدرة النجفية، ص٣١٩؛ الشيرازي، توضيح نهج البلاغة، ٤/ ٥٩؛ مغنية، في ظلال نهج البلاغة، ٣/ ٥٠٩؛ دخيل، شرح نهج البلاغة، ٢٧-٢٨/ ٤٢؛ الموسوي، شرح نهج

ونقصد عدم بقاء الأموال للورثة وإنفاقها في سبيل الله يتم عن طريق الاعتدال حتى في جمع الثروة، فلا يفرط ويعتمد على غيره ولا يسرف بالجمع ويحتكرها ولا ينفقها، فتبقى للورثة من بعده يتمتعون بها ويحاسب هو عليها، ومصداق هذا الكلام هو قول الإمام عليه السلام ذاته أن لا يكون خازناً لغيره وأن يقدر كفايته من الزاد؛ لأن ذلك سيكون وبالاً عليه، وليس فيه منفعة، يوم لا ينفع مال ولا بنون.

ولعل من أهم سمات الاعتدال في الكسب زيادة المال لا نقصانه، على عكس الاحتكار والبخل التي يكون فيها الإنسان خازناً للورثة، موقفاً عجلة التنمية الاقتصادية من ناحية، ومحدثاً فوارق طبقية من ناحية أخرى، لمنع حقوق الفقراء المترتبة عليها، فتتماسك الصورة أمامنا إذا أمعنا النظر في قوله عليه السلام: ((**يَا ابْنَ آدَمَ مَا كَسَبْتَ فَوْقَ قُوتِكَ، فَأَنْتَ فِيهِ خَازِنٌ لِغَيْرِكَ**))[1]، فتدخل الإمام عليه السلام في أدق الأسباب ثم أعطى السبل الصحيحة والمسار التنظيمي، وقد أبدع دخيل في فهم مقصد الإمام عليه السلام بالدعوة إلى الإجمال في الطلب وعدم التوجه إلى الدنيا والمبادرة إلى الإنفاق، أما فيما عدا ذلك فإنه يبقى للورثة وعند اختلافهم على الميراث يكثر السباب له[2]، فسلك طريق الإفراط في الثروة والبخل فيها وادخارها وعدم إنفاقها ومنع ذوي الحقوق تكون فقراً للمدخر، فيكون مجرد بنك خازن للأموال غير مستفيد منها.

ولم تكن الأسباب للاعتدال في الكسب تنحصر فيما تقدم، بل إنه عليه السلام توسع في بيان الفلسفة من الاعتدال في الكسب المادي وآثارها سواء الاقتصادي منها

البلاغة، ٤/ ٣١٩-٣٢٠؛ عبدة، نهج البلاغة، ٣/ ٥١؛ عبد الزهراء الخطيب، مصادر نهج البلاغة وأسانيده، ٣/ ٢٨٣.

(١) نهج البلاغة، ص٧٦٧.

(٢) شرح نهج البلاغة، ٣٣-٣٤/ ١١٥.

التي هي موضوعنا الأساس أم غيرها كإصلاح النفس من غلوها في التهافت على الدنيا وربطها بالآخرة، فهو عليه السلام يصلح علاقة الإنسان بربه وعلاقة الإنسان بنفسه وعلاقته بغيره.

وامتداداً لتكاملية الأسباب والفلسفة الواقعية للوسطية والاعتدال والتوازن الاقتصادي مع ضمان دقة التنظيم والانسيابية وسلامته الآنية والمستقبلية فقد ضم نهج البلاغة بين دفتيه العديد من الخطب والكلمات النادرة من أجل التنمية والتطوير المستمر والمستدام، وما الوسطية والاعتدال في الكسب والتحصيل المادي إلّا منفذ لها؛ إذ إنه على مستوى التحصيل المادي ومستوى البذل والإنفاق الاستثماري تتحد النتيجة، فإذا كان الاعتدال والتوسط في الجمع والكسب والإنفاق كانت النتيجة استدامة النعم واستمراراها والعكس هو صحيح، فيقول عليه السلام مصداقاً لذلك: ((**يَا أَيُّهَا النَّاسُ، مَتَاعُ الدُّنْيَا حُطَامٌ مُوبِئٌ فَتَجَنَّبُوا مَرْعَاهُ! قُلْعَتُهَا أَحْظَى مِنْ طُمَأْنِينَتِهَا، وَ بُلْغَتُهَا أَزْكَى مِنْ ثَرْوَتِهَا[اثراثها]. حُكِمَ عَلَى مُكْثِرٍ مِنْهَا بِالْفَاقَةِ، وَ أُعِينَ مَنْ غَنِيَ عَنْهَا بِالرَّاحَةِ[بالرحمة]. مَنْ رَاقَهُ زِبْرِجُهَا أَعْقَبَتْ نَاظِرَيْهِ كَمَهاً، وَ مَنِ اسْتَشْعَرَ الشَّغَفَ بِهَا مَلَأَتْ ضَمِيرَهُ أَشْجَاناً، لَهُنَّ رَقْصٌ عَلَى سُوَيْدَاءِ قَلْبِهِ: هَمٌّ يَشْغَلُهُ، وَ غَمٌّ يَحْزُنُهُ، كَذَلِكَ حَتَّى يُؤْخَذَ بِكَظَمِهِ فَيُلْقَى بِالْفَضَاءِ، مُنْقَطِعاً أَبْهَرَاهُ، هَيِّناً عَلَى اللهِ فَنَاؤُهُ وَ عَلَى الْإِخْوَانِ إِلْقَاؤُهُ. وَ إِنَّمَا يَنْظُرُ الْمُؤْمِنُ إِلَى الدُّنْيَا بِعَيْنِ الِاعْتِبَارِ، وَ يَقْتَاتُ مِنْهَا بِبَطْنِ الِاضْطِرَارِ**))[1].

ووضح المعنى في قول أمير المؤمنين عليه السلام هذا أن المؤمن يأكل ويأخذ من الدنيا بقدر الضرورة لا احتكار ولا استثمار، لا يعيش عيشة الفقراء ولا الأغنياء إنما يعتدل في ذلك، فالاعتدال هو الطريق الأسلم وهذا القول يقوم على نتيجة

(١) نهج البلاغة، ص٨١٠-٨١٢.

وفلسفة اقتصادية أو عملية اقتصادية ربحية، وهو أن ما يتبلغ به الإنسان من القوت والكفاف أزكى وأنمى وأربح[١] من الثروة أما، الفلسفة الأخرى فهي فلسفة وقائية، وهي أن الإفراط في الجمع تكون النتيجة الحتمية الفقر؛ لأنهم لا ينتهون إلى حد معين من الثروة والمال إلّا وحرصوا على طلب الزيادة، وفي كل الأحوال هم فقراء إلى تحصيل الأموال، بل قد يكون سعيهم وكدحهم أعظم من كدح الفقير وحرصه[٢]، فالأخذ قدر الكفاية خير وأوفر ويحقق التنمية المستدامة.

وأخيراً فإن الإمام عليًّا عليه السلام ينظم الأسواق والقوى الشرائية على وفق معيار الوسطية والاعتدال بحيث لا يعجز عنه أوساط الناس ولا يخسر به التاجر، فيقول عليه السلام في هذا الإطار في كتابه إلى مالك الأشتر ضمن وصية في طبقة التجار وذوي الصناعة: ((**وَ لْيَكُنِ الْبَيْعُ بَيْعاً سَمْحاً: بِمَوَازِينِ عَدْلٍ، وَ أَسْعَارٍ لَا تُجْحِفُ بِالْفَرِيقَيْنِ مِنَ الْبَائِعِ وَ الْمُبْتَاعِ. فَمَنْ قَارَفَ حُكْرَةً بَعْدَ نَهْيِكَ إِيَّاهُ فَنَكِّلْ بِهِ، وَ عَاقِبْهُ فِي غَيْرِ إِسْرَاف**))[٣].

وأشار الشرّاح إلى مقصد الإمام علي عليه السلام، أن يكون البيع سمحاً لا إجحاف فيه، وبموازين سليمة معتدلة لصالح الفريقين البائع والمشتري، لا شطط فيه ولا

(١) ينظر: ابن منظور، لسان العرب، ١٤/ ٣٥٨.

(٢) ينظر: الراوندي، منهاج البراعة في شرخ نهج البلاغة، ٣/ ٤٠٨؛ ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٩/ ٢٨٦؛ البحراني، شرح نهج البلاغة (الكبير)، ٥/ ٤٢٢-٤٢٣، السرخسي، أعلام نهج البلاغة، ص٣٩٠؛ الأردبيلي، شرح نهج البلاغة، ص٣٩٣ (فارسي)؛ الخوئي، الدرة النجفية، ص٣٨٤؛ الشيرازي، توضيح نهج البلاغة، ٤/ ٤٣٦-٤٣٧؛ مغنية، في ظلال نهج البلاغة، ٤/ ٤٢٩؛ عبدة، شرح نهج البلاغة، ٣/ ٢٣٩-٢٤٠؛ الموسوي، شرح نهج البلاغة، ٥/ ٤٧٢-٤٧٣؛ دخيل، شرح نهج البلاغة، ٣٧-٣٨/ ٢٣-٢٥؛ المحلاتي، ترجمة غرر الحكم ودرر الكلم، ٢/ ٧١ (فارسي).

(٣) نهج البلاغة، ص٦٦٩.

وكس[١]، فلا ترتفع الأسعار بحيث تضر بالمشتري ولا تقل فتضر بالبائع، و أن عقاب من خالف من التجار واحتكر البضائع دون إسراف لا إفراط في العقوبة بل بمقدار الاستحقاق من غير تجاوز الحد المعقول لردع المنحرف وليس للانتقام منه[٢]. وقد هدف الإمام عليه السلام من ذلك لأمور عدة:

١. الموازنة بين القوى الشرائية تكون من مسؤولية الدولة بحيث تكون الأسعار معتدلة لا مستغِلة ولا مُستغَلة.

٢. ثقف الإمام عليه السلام لقانون سن العقوبات القانونية الاقتصادية وتطبيق منهج التوسط والاعتدال فيها كي لا تفقد الغرض منها.

٣. عدّ التطرف والانحراف عن الاعتدال في الميزان الاقتصادي سبباً للتخلف ومؤشراً للمستويات الاقتصادية المتباينة.

٤. أن التنمية التي ذكرها أمير المؤمنين عليه السلام تنمية رائدة لا ترقى إليها الاقتصاديات الحديثة والمعاصرة لقدرته على إحداث تنمية مستدامة دون كلفة اجتماعية سالبة.

٥. أن الإمام عليًّا عليه السلام صاغ نظرية ومنهجاً اقتصاديّاً كشف فيه عن آلية الحركة والتفاعل بين التوسط والاعتدال وبين التطور والاستقرار الاقتصادي وعمق وأهمية التغيير الذي يحدثه تطبيق منهج الاعتدال.

---

(١) الوكس: النقصان في الشيء، لا شطط فيه ولا وكس، أي لا زيادة ولا نقصان، ينظر: ابن منظور: لسان العرب، ٦/ ٢٥٧.

(٢) ينظر: الكندري البيهقي، حدائق الحقائق في شرح نهج البلاغة، ٢/ ٥٤٥؛ البحراني، شرح نهج البلاغة (الكبير)، ٥/ ١٦٩-١٧٠؛ الموسوي، شرح نهج البلاغة، ٥/ ٦٣؛ دخيل، شرح نهج البلاغة، ٢٩-٣٠/ ٩٥؛ الشيرازي، توضيح نهج البلاغة، ٤/ ١٧٩.

المبحث الثالث

مسار تنظيم وتوجيه الإطار السياسي وأبعاده العملية

يتناول هذا المبحث مسار تنظيم الإطار السياسي وتوجيهه في فكر الإمام علي عليه السلام، فالإمام علي عليه السلام له الريادة والأسبقية من بعد دولة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) في التنظيم الإداري المحكم بنظام رصين يحمل القيم الإنسانية ويعمل على إشاعتها مجسداً فيه المفاهيم والنظريات الإلهية كالعدل والمساواة والإنصاف التي كانت سائدة في حكومة الرسول محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) قال عليه السلام: ((**سِيرَتُهُ الْقَصْدُ، وَ سُنَّتُهُ الرُّشْدُ، وَ كَلَامُهُ الْفَصْلُ، وَ حُكْمُهُ الْعَدْلُ؛ أَرْسَلَهُ عَلَى حِينِ فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ...**))[1]، التي تنم على بعد عملي وكلاسيكي يتمثل بنظام الجودة الذي أتت به النظريات الحديثة وأصبح حديث الساعة في حين أنه كان سائداً منذ زمن في المعنى نفسه ولكن في لفظ آخر.

وتجلى تنظيم الإطار السياسي في فكر الإمام علي عليه السلام في التأسيس لبناء معرفي قائم على الموضوعية رافض للعشوائية والشخصنة من أجل إعداد الإنسان الحاكم[2] ودولة الإنسان والحكم الرشيد والإجادة فيه على وفق نظريات وقوانين علمية مرتكزة على مبدأ الإنسانية والمواطنة كمرتكز إساسٍ في كل نظام إداري ناجح من أجل القضاء على فكرة الظلم والفرعنة والخروج عن مسار التوسط

---

(١) الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة، ص١٩٨-١٩٩.

(٢) ومن ذلك قوله عليه السلام في وصية لابنه الإمام الحسن عليه السلام: (يَا بُنَيَّ اجْعَلْ نَفْسَكَ مِيزَاناً فِيمَا بَيْنَكَ وَ بَيْنَ غَيْرِكَ، فَأَحْبِبْ لِغَيْرِكَ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ، وَ اكْرَهْ لَهُ مَا تَكْرَهُ لَهَا، وَ لَا تَظْلِمْ كَمَا لَا تُحِبُّ أَنْ تُظْلَمَ، وَ أَحْسِنْ كَمَا تُحِبُّ أَنْ يُحْسَنَ إِلَيْكَ، وَ اسْتَقْبِحْ مِنْ نَفْسِكَ مَا تَسْتَقْبِحُهُ مِنْ غَيْرِكَ، وَ ارْضَ مِنَ النَّاسِ بِمَا تَرْضَاهُ لَهُمْ مِنْ نَفْسِكَ، وَ لَا تَقُلْ مَا لَا تَعْلَمُ وَ أَنْ قَلَّ مَا تَعْلَمُ، وَ لَا تَقُلْ مَا لَا تُحِبُّ أَنْ يُقَالَ لَكَ)، نهج البلاغة، ص٥٩٩-٦٠٠.

والاعتدال التي لازمت السلطة والأنظمة الحاكمة وهي تحمل من الحقيقة الشيء الكثير، وقد أعاد الإمام علي عليه السلام بناء الإطار السياسي وهندسته وتنظيمه في نهج البلاغة مصوراً إياها بشكل مستقل ومباشر، إذ يمكن أن نلاحظ أموراً عدة فيما ذكره الإمام عليه السلام:

١. أن الأساليب والطرائق الإدارية التي ذكرها أمير المؤمنين عليه السلام ليست مرحلية جاءت على وفق مقتضيات ومتطلبات المرحلة التي عاش فيها عليه السلام بل عامة وشاملة لكل زمان ومكان.

٢. تحقيق مفهوم الإدارة الشاملة التي تحقق الرفاهية والخدمات.

٣. تطوير الإدارة والقيادة تطويراً يتناسب مع الدين الحنيف ومقاصده.

٤. الوسطية والاعتدال كما جاءت في فكر أمير المؤمنين عليه السلام لا تلخص في الأمور المادية التي تحقق الاعتدال وإنما تتعدى إلى الأمور المعنوية والحركات الجسدية التي لها دور في تحقيق مبدأ التوسط والاعتدال.

٥. أن أهم ما يميز رؤية أمير المؤمنين عليه السلام للقيادة والإدارة المثلى المعتدلة في كل مفاصلها هو تطابق الجانب النظري مع الجانب العملي الذي جسده الإمام عليه السلام نفسه فيصبح أمامنا أنموذج حي جسده الإمام عليه السلام قولاً وفعلاً.

تنظيم الشخصية الحاكمة وبناؤها ومسار التعامل مع المحكومين.

من المعلوم أن ماهية الحكم والحاكم في المجتمع من أهم العوامل المؤثرة في تشكيل النظام السياسي ومن ثم النسيج الاجتماعي، ولعل ما ينفرد به الإمام علي عليه السلام وفكره الكامن في نهج البلاغة الشمولية والتنظيم والتوجيه الاستراتيجي السياسي والاستيعاب الكامل للخصوصيات، ومن هنا كلما أمعنا النظر في هذا

الفكر نجده نسيجاً متلاحماً ومتناسقاً من غير أدنى تناقض أو تضاد آخذاً بنظر الاعتبار الأبعاد الإنسانية بكل نوازعها وحاجاتها المكانية بكل اختلافاتها وتباياتها والزمانية بكل تطوراتها وتغيراتها.

ففي المجال السياسي لم يغفل الإمام علي عليه السلام أهمية القيادة في المجتمع[١] والحكومة العادلة الحافظة لحقوقه بمنحى شامل وتكاملي لتحقيق المصالح ودرء المفاسد، فالمجتمع إذا تمتع بقيادة كفوءة وحكيمة سوف يرتقي إلى مستوى هذه القيادة والعكس صحيح إذا دب الانحراف في القيادة، فإن المرض بلا شك يدب في جسده[٢]، ولذلك نرى كيف أن الإمام عليًّا عليه السلام يركز على بناء الشخصية الحاكمة

(١) ينظر قول الإمام عليه السلام: ((وَإِنَّهُ لاَ بُدَّ لِلنَّاسِ مِنْ أمير بَرٍّ أو فَاجِرٍ، يَعْمَلُ فِي إِمْرَتِهِ الْمُؤْمِنُ، وَ يَسْتَمْتِعُ فِيهَا الْكَافِرُ، وَ يُبَلِّغُ اللهُ فِيهَا الْأَجَلَ، وَ يُجْمَعُ بِهِ الْفَيْءُ، وَ يُقَاتَلُ بِهِ الْعَدُوُّ، وَ تَأْمَنُ بِهِ السُّبُلُ، وَ يُؤْخَذُ بِهِ لِلضَّعِيفِ مِنَ الْقَوِيِّ، حَتَّى يَسْتَرِيحَ بَرٌّ، وَ يُسْتَرَاحَ مِنْ فَاجِر))، نهج البلاغة، ص٩٣.

(٢) هناك شواهد تاريخة لمسألة الظلم والانحراف الذي أصيبت به الأمة الإسلامية نتيجة إبعاد القيادة الشرعية المتمثلة بأهل البيت (عليهم السلام) وتحكم القيادات الفاسدة في الأمور، على الرغم من تأكيد الرسول محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) على أهمية القيادة وخطورة دورها والنتيجة التي ستؤول إليها الأمة في حال إبعاد القيادة الشرعية قال (صلى الله عليه وآله وسلم): (إني تارك فيكم الثقلين، ما أن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي: كتاب الله وعترتي أهل بيتي، فإنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض)، الطبرسي، الاحتجاج، ٢/ ١٤٧؛ وينظر: ابن حنبل، مسند أحمد، ٣/ ٥٩؛ الترمذي، سنن الترمذي، ٥/ ٣٣٩؛ المتقي الهندي، كنز العمال، ١/ ١٧٣، وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: ((إنما مثل أهل بيتي كمثل سفينة نوح، من ركبها نجى، ومن تخلف عنها غرق، ومن تقدمها مرق، ومن لزمها لحق))، الطبرسي، الاحتجاج، ٢/ ١٤٧؛ الهيثمي، مجمع الزوائد، ٩/ ١٦٨، وقد وصلت مسألة الظلم والانحراف أوجها عند تولي يزيد القيادة وقد ترجم الإمام الحسين عليه السلام ذلك في قوله لمروان بن الحكم عندما قال له بايع يزيد قال: (إنا لله وإنا إليه راجعون وعلى الإسلام السلام؛ إذ قد بليت الأمة براع مثل يزيد ثم أقبل الحسين على مروان وقال: ويحك ! أتأمرني ببيعة يزيد وهو رجل فاسق ! لقد قلت شططا من القول يا عظيم الزلل)، الكوفي، الفتوح، ٥/ ١٧.

العادلة لتكون مؤهلة لاتخاذ القرارات الصحيحة لمنع الفساد والانحراف[١]، وتحقق الرشد والاعتدال السياسي، ولعل أهم الأمور التي يجب أن يتحلى بها الحاكم لكي يستمر في رياسته سعة الصدر من دون إفراط أو تفريط لا لين وترك الأمور تفلت من يده ولا شدة وغضب، يقول الإمام علي عليه السلام مصداقاً لذلك: ((**آلَةُ الرِّيَاسَةِ سَعَةُ الصَّدْرِ**))[٢].

وقد اختلفت آراء الشرّاح في اللفظ لكنها تصب في معنى واحد، وهي أن الرياسة تحتاج إلى صبر وحلم وأخلاق عالية، فهي مظنة ورود الأحداث المهمة والخطوب العظيمة، فتتطلب تصريف أمور الناس وحل مشكلاتهم، فلا يدع الحاكم قوة التجلد عند ورود الأحداث المهمة عليه ولا يحار أو يداهن فيها بل يتحملها بسعة الصدر والإخلاص والمبادرة دون ضجر وملل[٣]، ومع ذلك فإن كلام الشّراح هذا يبقى ناقصاً في الفهم الكلي لمقصد الإمام عليه السلام وما يستلزمه معنى سعة الصدر من دون إفراط وتفريط أو شدة ولين، ولكن هناك التفاتة جميلة من الشيرازي في القول إن من وسع صدره في الأخذ والإعطاء والإغضاء يقبلونه الناس سيداً ورئيساً[٤].

فإذا افتقر القيادي إلى روح السماحة والاعتدال وافتقاده صفة اللين واتسامه

(١) يقول الإمام علي عليه السلام في هذا الإطار إلى الاسود بن قطبة صاحب جند حلوان: ((أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ الْوَالِيَ إِذَا اخْتَلَفَ هَوَاهُ، مَنَعَهُ ذَلِكَ كَثِيراً مِنَ الْعَدْلِ، فَلْيَكُنْ أَمْرُ النَّاسِ عِنْدَكَ فِي الْحَقِّ سَوَاءً، فَإِنَّهُ لَيْسَ فِي الْجَوْرِ عِوَضٌ مِنَ الْعَدْلِ))، فالغرائز والميول النفسية تؤثر سلباً وتمنع تحقيق العدالة، ولا يوجد في الجور عوضاً عن العدل. نهج البلاغة، ص٦٨٧.

(٢) نهج البلاغة، ص٧٦٤.

(٣) ينظر: ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج١٨/ ٤٠٧؛ البحراني، شرح نهج البلاغة (الكبير)، ٥/ ٣٣٨؛ الموسوي، شرح نهج البلاغة، ٥/ ٣٥٢؛ الخوئي، منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، ٢١/ ٢٥٣؛ مغنية، في ظلال نهج البلاغة، ٤/ ٣٢٨؛ دخيل، شرح نهج البلاغة، ٣٣-٣٤/ ١٠٧.

(٤) توضيح نهج البلاغة، ج٤/ ٣٤٩.

بالخشونة فإنه من البديهي تصاب مشاريعه وبرامجه بنكسات ويتفرق الناس من أمامه، وهكذا نلاحظ أن قول الإمام علي عليه السلام يحتوي على منهج كلي وأساسي عند تولي القيادة والرئاسة، فالاعتدال يحدد العلاقة بين دوام السلطة و استمرارها، في حين أن الانحراف يتحول إلى عائق يوقعه في الخطأ بل إن انحراف المحيطين بالقيادي تؤثر سلباً في القيادي نفسه ومن ثم علاقته بالمرؤوسين، كما في قول الإمام عليه السلام إلى مالك الأشتر: ((**وَلَا تُدْخِلَنَّ فِي مَشُورَتِكَ بَخِيلًا يَعْدِلُ بِكَ عَنِ الْفَضْلِ، وَ يَعِدُكَ الْفَقْرَ، وَ لَا جَبَاناً يُضْعِفُكَ عَنِ الْأُمُورِ، وَ لَا حَرِيصاً يُزَيِّنُ لَكَ الشَّرَهَ بِالْجَوْرِ، فَإِنَّ الْبُخْلَ وَ الْجُبْنَ وَ الْحِرْصَ غَرَائِزُ شَتَّى يَجْمَعُهَا سُوءُ الظَّنِّ بِالله**))[1]، فالبخل والجبن والحرص تأخذ جانبي الإفراط والتفريط السلبي المؤثر.

فتشخيص الاعتدال خطوة أولى لاستمرار السلطة والثقيف لمسار الوسطية والاعتدال في التعامل مع المحكومين هو الخطوة الثانية، فالوسطية والاعتدال هما سمتان وخاصيتان، بل هما قاعدة أساسية يجب أن تتوافر في القائد كي لا تتسم قيادته بالانحراف وتسود الفوضى وانعدام الأمن في ظل القيادة المنحرفة، يقول الإمام علي عليه السلام في هذا الإطار في كتابه إلى مالك الأشتر: ((**وَ لْيَكُنْ أَحَبَّ الْأُمُورِ إِلَيْكَ أَوْسَطُهَا فِي الْحَقِّ، وَ أَعَمُّهَا فِي الْعَدْلِ، وَ أَجْمَعُهَا لِرِضَى الرَّعِيَّةِ، فَإِنَّ سُخْطَ الْعَامَّةِ يُجْحِفُ بِرِضَى الْخَاصَّةِ، وَ أن سُخْطَ الْخَاصَّةِ يُغْتَفَرُ مَعَ رِضَى الْعَامَّة**))[2].

توظيف الوسطية والاعتدال في السياسة يحقق التوازن من طرفي الإفراط والتفريط، فالقائد له حق الطاعة على الرعية، ولكن في حدود مصالحهم وما يعود عليهم بالنفع، وعلى الرعية أن تستجيب لمطالب القائد، ولكن في نطاق الاحتفاظ

(١) نهج البلاغة، ص٦٥٤.

(٢) نهج البلاغة، ص٦٥٣.

بهيبة الحكم وسيادته، بحيث لا يكون مغلوباً على أمره فيتحقق التوازن والاعتدال بالوسطية[١]، والطاعة هنا كمثال للوسطية في السياسة.

وبالمحصلة فإن الإمام عليه السلام قد وضح بعداً مهمًّا للحاكم في مجال العدل والمسار الوسطي الذي يفتح المجال لرضى الأكثرية من الناس وهم العامة، مقابل سخط الفئة القليلة المتخمة بالفساد والثراء وهم الخاصة، لأن التوسط والاعتدال والمساواة القانونية هي الأسلوب الأجدر لإدارة المجتمع؛ كذلك قد يكون ذا بعدين، وهما رضى الأغلبية التي بهم يحافظ على البلد وبهم تستمر عجلة الاقتصاد، وتنعم الخاصة إذ لم تميز عن العامة؛ لأن في التمييز يؤدي إلى غضب الأغلبية[٢] ومن ثم حرمان الخاصة.

وربما نجد أن الإمام عليه السلام قد دخل في تفاصيل وجزئيات تطبيق الوسطية في القيادة والإدارة بعد أن أشار إليها بصورة عامة من أجل ترسيخ مبدأ العدل والمساواة، ولعل أهم هذه المرتكزات يمكن أن نطلق عليها السلطة الضابطة والجودة الشاملة والتي تدور رحاها على الاعتدال والوسطية، وهي ثقافة ومنهج مهم جداً، وغيابها يمثل المحرك الأساس للفساد والانحراف، يقول عليه السلام في هذا الإطار في كتابه إلى بعض عماله: ((**وَ اخْلِطِ الشِّدَّةَ بِضِغْثٍ مِنَ اللِّينِ، وَ ارْفُقْ مَا كَانَ الرِّفْقُ أَرْفَقَ[اوفق]، وَ اعْتَزِمْ بِالشِّدَّةِ حِينَ لَا تُغْنِي عَنْكَ إِلَّا الشِّدَّةُ،... حَتَّى لَا يَطْمَعَ**

(١) مغنية، في ظلال نهج البلاغة، ٤/ ٥٣-٥٤.

(٢) ولدينا شواهد تاريخية كثيرة على مر الزمان، منها ما حدث في الدولة العباسية من تنعم الخلفاء والوزراء وغرقهم في الملذات وبنائهم القصور الفارهة والملابس الفاخرة التي كانت تتميز بها الطبقة الخاصة، وكانت نتيجتها غضب العامة ومن ثم سقوط الدولة على يد التتار، للتفاصيل عن بذخ وترف الخاصة في الدولة العباسية ينظر: الشمري وآخرون، البذخ والترف عند الخلفاء في العصر العباسي ١٣٢-٦٥٦ه، ص١٣٨ وما بعدها.

الْعُظَمَاءُ فِي حَيْفِكَ، وَ لَا يَيْأَسَ الضُّعَفَاءُ مِنْ عَدْلِكَ وَ السَّلَامُ))[١].

ومن هنا نجد أن الإمام عليه السلام قد أكد على أن القائد أو الحاكم عليه أن يستعمل الشدة والقوة من غير ظلم وأن يستعمل اللين من غير ضعف، فيمزج بين الاثنين فتحصل الحالة الوسطى المعتدلة التي يجب أن تتوافر في الحاكم، فالشدة المحضة توجب اليأس عن الوالي كما أن اللين المحض يوجب تنفير الناس، فبالتوسط والاعتدال تحصل الاستقامة[٢] والطريقة المثلى في الإدارة، فلا شدة دائمة ترهق وتنفر ولا لين مستمر يقود إلى الضعف والتراخي. وكلام الإمام عليه السلام فيه أكثر من نتيجة ومغزى في إطار موضوعنا (تنظيم وبناء الشخصية الحاكمة) يمكن إجمالها بما يأتي:

١. تحقيق مفهوم الجودة والإتقان في العمل عن طريق الأسلوب وطريقة التعامل المتبع مع المحكومين.

٢. منطلق فكري يرمي إلى التثقيف بأسلوب الإدارة السلبي المتمثل بالشدة المحضة أو اللين المحض.

٣. مفهوم الشدة واللين مفهوم شمولي يشمل جميع محاور ومفاصل السياسة ولا يتعلق بجانب دون آخر.

---

(١) نهج البلاغة، ص٦٤٠ - ٦٤١.

(٢) ينظر: الراوندي، منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، ٣/ ١٥٥-١٥٦؛ ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٧/ ٤؛ البحراني، شرح نهج البلاغة (الكبير)، ٥/ ١١٩؛ الموسوي، شرح نهج البلاغة، ٤/ ٤٨٤-٤٨٥؛ الشيرازي، توضيح نهج البلاغة، ٤/ ١٢٣-١٢٤؛ مغنية، في ظلال نهج البلاغة، ٤/ ٢٥؛ دخيل، شرح نهج البلاغة، ٢٩-٣٠/ ٢٥-٢٦؛ الخوئي، منهاج البلاعة في شرح نهج البلاغة، ٢٠/ ١٢٨.

ونجده عليه السلام يجدد المرتكزات والفكرة بكلام مرادف إلى سابقه في كتابه إلى بعض عماله؛ إذ قال عليه السلام: ((**أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ دَهَاقِينَ أهل بَلَدِكَ شَكَوْا مِنْكَ غِلْظَةً وَقَسْوَةً، وَاحْتِقَاراً وَ جَفْوَةً، وَنَظَرْتُ فَلَمْ أَرَهُمْ أَهْلًا لِأَنْ يُدْنَوْا لِشِرْكِهِمْ، وَلَا أن يُقْصَوْا وَيُجْفَوْا لِعَهْدِهِمْ، فَالْبَسْ لَهُمْ جِلْبَاباً مِنَ اللِّينِ تَشُوبُهُ بِطَرَفٍ مِنَ الشِّدَّةِ، وَدَاوِلْ لَهُمْ بَيْنَ الْقَسْوَةِ وَ الرَّأْفَةِ، وَ امْزُجْ لَهُمْ بَيْنَ التَّقْرِيبِ وَالْإِدْنَاءِ، وَالْإِبْعَادِ وَالْإِقْصَاءِ. إن شَاءَ الله**))[1]، أبرز الإمام عليه السلام في هذا النص ثلاثة مرتكزات وقواعد تتضمن تعامل القيادي مع المحكومين بصورة عامة والمشركين بصفة خاصة؛ لأن كلام الإمام عليه السلام موجه إلى عامله وطريقة تعامله مع الدهاقين، وهي:

القاعدة الأولى: أن يلبس لهم جلباباً من اللين يشوبه بطرف من الشدة، فلا شدة خالصة ولا لين، وإنما اتخاذ الحد الوسط والاعتدال في المعاملة كي لا يطمعوا في اللين ويخرجوا عن الحدود ويتمردوا على الحاكم ظناً منهم أن اللين إنما هو ضعف في الحاكم أو القائد[2]، وهذه هي القاعدة الأولى في البناء القيادي بسلوك طريق الوسطية والاعتدال في التعامل مع المحكومين وهي من جنس ما تم ذكره سابقاً.

القاعدة الثانية: المداولة بين القسوة والرأفة، فتارة قسوة وتارة أخرى رأفة فتحدث حالة الاعتدال ولما في ذلك من كسر عاداتهم ودفع شرورهم[3].

القاعدة الثالثة: المزج بين التقريب والإدناء والإبعاد والإقصاء، فلا يدنو كل

---

(١) نهج البلاغة، ص٥٦٧.

(٢) الموسوي، شرح نهج البلاغة، ٤/ ١٩٠.

(٣)ينظر: ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٥/ ١٣٧؛ البحراني، شرح نهج البلاغة (الكبير)، ٤/ ٣٩٨-٣٩٩؛ الموسوي، شرح نهج البلاغة، ٤/ ١٩٠.

الدنو؛ لأنهم مشركون ولا يقصيهم كل الإقصاء؛ لأنهم معاهدون بل سلوك منهج متوسط[١].

ومن ثم فإن هذه القواعد والمبادئ إن دلت على شيء إنما تدل على الأسلوب المثالي للإدارة وسبل الارتقاء به ديمقراطياً عن طريق البناء القيادي ونهج التوسط في إدارة العلاقات مع المحكومين، بيد أن التوسط والاعتدال في فكر الإمام علي عليه السلام لا يقتصران على أسلوب التعامل فحسب وما شخصه من قواعد كي يتسم بالحكم المثالي والديمقراطي، بل هو أشمل من ذلك؛ إذ حتى الحركات الجسدية لها دور في فكر الإمام عليه السلام، وتجلى هذا المفهوم في قوله عليه السلام: ((**وَاخْفِضْ لِلرَّعِيَّةِ جَنَاحَكَ، وَابْسُطْ لَهُمْ وَجْهَكَ، وَأَلِنْ لَهُمْ جَانِبَكَ، وَ آسِ بَيْنَهُمْ فِي اللَّحْظَةِ وَ النَّظْرَةِ، وَالْإِشَارَةِ وَالتَّحِيَّةِ، حَتَّى لَا يَطْمَعَ الْعُظَمَاءُ فِي حَيْفِكَ، وَلَا يَيْأَسَ الضُّعَفَاءُ مِنْ عَدْلِكَ**))[٢].

وقد وضح الإمام علي عليه السلام في النص المتقدم أن دقائق الأمور: الحركات الجسدية، لحظات العيون، والنظرات، وكذلك الإشارة والتحية للقائد أو الحاكم أو الوالي إلى آخره من المسميات الدالة على الرئاسة والزعامة، يجب أن لا تكون في خانة الإفراط والتفريط فلا يشير أو ينظر إلى واحد دون آخر؛ لأنها ذات وقع مهم في القيادة المثلى فيجب أن لا يفرط الحاكم أو يفرط، بل يجب أن يعتدل في لحظاته

(١) ينظر: ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٥/ ١٣٧؛ البحراني، شرح نهج البلاغة (الكبير)، ٤/ ٣٩٨-٣٩٩؛ الخوئي، الدرة النجفية، ص٣٠٧؛ الشيرازي، توضيح نهج البلاغة، ٣/ ٤٦٣-٤٦٤؛ دخيل، شرح نهج البلاغة، ٢٥-٢٦/ ٥١؛ عبدة، شرح نهج البلاغة، ٣/ ٢٢؛ مغنية، في ظلال نهج البلاغة، ٣/ ٤٣٢؛ أنصاريان، شرح نهج البلاغة المقتطف من بحار الأنوار، ٣/ ٥٥؛ الموسوي، شرح نهج البلاغة، ٤/ ١٩٠.

(٢) نهج البلاغة، ص٦٤٠ – ٦٤١.

ونظراته، والفلسفة من ذلك حتى لا يطمع العظماء في حيفه، ولا ييأس الضعفاء من عدله، أي لا يحصل الانحراف في الإدارة، فعندما يرون الاعتدال والتوسط في دقائق الأمور لا يجرؤون على ظلم أحد، وعندما يرى الضعفاء هذا الاعتدال والمساواة لا يدخل إلى قلوبهم اليأس من عدل الحاكم وإنصافه، بل يكون على يقين بأنه في حصن حصين بحاكمه[1]، فلكي يعتدل ويتوسط الحاكم بين طمع العظماء ويأس الضعفاء يجب أن يعدل ويساوي لحظاته ونظراته من دون إفراط أو تفريط. ويمكن ادراك جملة أمور في هذا الطرح:

١. أن نهج الاعتدال والوسطية بوصفه منهجاً سلوكيّاً من أهم سمات المجتمع المدني المتحضر ليس طارئاً أتت به النظم الحديثة بل ثابت أصلاً وله جذوره الضاربة في عمق التاريخ.

٢. تأسيس الإمام عليه السلام لسيادة العدالة وتحجيم مساحة الظلم والانحراف.

٣. العامل المعنوي مؤثر في حلحلة المشكلات.

٤. التوسط والاعتدال لا يقعان على المظاهر الخارجية للإنسان فحسب، بل يشملان الجوارح كذلك كاللسان.

٥. نهج الاعتدال في الإطار السياسي تتحول فيه القيادة إلى قيادة مثلى ومجتمع مثالي أنموذجي غير طبقي، فهي من الأسس والمرتكزات لحب الناس وتعلقهم

(١) ينظر: الراوندي، منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، ٣/ ١٥٥-١٥٦؛ ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٧/ ٤؛ البحراني، شرح نهج البلاغة (الكبير)، ٥/ ١١٩؛ الموسوي، شرح نهج البلاغة، ٤/ ٤٨٤-٤٨٥؛ الشيرازي، توضيح نهج البلاغة، ٤/ ١٢٣-١٢٤؛ مغنية، في ظلال نهج البلاغة، ٤/ ٢٥؛ دخيل، شرح نهج البلاغة، ٢٩-٣٠/ ٢٥-٢٦؛ الخوئي، منهاج البلاعة في شرح نهج البلاغة، ٢٠/ ١٢٨.

بالقائد، وهو ما يضمن أيضاً الطاعة منهم والنجاح في إدارتهم، وكما يقول القرآن واصفاً النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): ﴿**فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ**﴾[1].

والشيء المهم الذي يمكن أن نستخلصه من جملة ما مر أن الإمام عليًّا عليه السلام أسس نظاماً سياسيّاً ديمقراطيّاً دبلوماسيّاً إنسانياً ومدنياً؛ لأن نهجه ومرتكزه الأساس التوسط والاعتدال، ومع كل ذلك فهو نظام متين محكم وقوي، فيه حقوق وواجبات تترتب على الحاكم والمحكوم، وهذا ليس ثرثرة كلام، بل إن ما تقدم مصداق له، كما أنَّ له توثيقاً في نهج البلاغة في قول الإمام عليه السلام: ((**ثُمَّ جَعَلَ- سُبْحَانَهُ- مِنْ حُقُوقِهِ حُقُوقاً افْتَرَضَهَا لِبَعْضِ النَّاسِ عَلَى بَعْضٍ، فَجَعَلَهَا تَتَكَافَأُ فِي وُجُوهِهَا، وَ يُوجِبُ بَعْضُهَا بَعْضاً، وَ لَا يُسْتَوْجَبُ بَعْضُهَا إلا بِبَعْضٍ. وَ أَعْظَمُ مَا افْتَرَضَ- سُبْحَانَهُ- مِنْ تِلْكَ الْحُقُوقِ حَقُّ الْوَالِي عَلَى الرَّعِيَّةِ، وَ حَقُّ الرَّعِيَّةِ عَلَى الْوَالِي، فَرِيضَةٌ فَرَضَهَا اللهُ -سُبْحَانَهُ- لِكُلٍّ عَلَى كُلٍّ، فَجَعَلَهَا نِظَاماً لِأُلْفَتِهِمْ، وَ عِزّاً لِدِينِهِمْ، فَلَيْسَتْ تَصْلُحُ الرَّعِيَّةُ إلا بِصَلَاحِ الْوُلَاةِ، وَ لَا تَصْلُحُ الْوُلَاةُ إلا بِاسْتِقَامَةِ الرَّعِيَّةِ، فَإِذَا أَدَّتْ الرَّعِيَّةُ إلى الْوَالِي حَقَّهُ، وَ أَدَّى الْوَالِي إِلَيْهَا حَقَّهَا عَزَّ الْحَقُّ بَيْنَهُمْ، وَ قَامَتْ مَنَاهِجُ الدِّينِ، وَ اعْتَدَلَتْ مَعَالِمُ الْعَدْلِ، وَ جَرَتْ عَلَى أَذْلَالِهَا السُّنَنُ، فَصَلَحَ بِذَلِكَ الزَّمَانُ، وَ طُمِعَ فِي بَقَاءِ الدَّوْلَةِ، وَ يَئِسَتْ مَطَامِعُ الْأَعْدَاءِ. وَ إِذَا غَلَبَتِ الرَّعِيَّةُ وَالِيَهَا، أو أَجْحَفَ الْوَالِي بِرَعِيَّتِهِ، اخْتَلَفَتْ هُنَالِكَ الْكَلِمَةُ، وَ ظَهَرَتْ مَعَالِمُ الْجَوْرِ، وَ كَثُرَ الْإِدْغَالُ فِي الدِّينِ، وَ تُرِكَتْ مَحَاجُّ السُّنَنِ، فَعُمِلَ بِالْهَوَى، وَ عُطِّلَتِ الْأَحْكَامُ، وَ كَثُرَتْ عِلَلُ النُّفُوسِ...**))[2].

(١) آل عمران / ١٥٩.

(٢) نهج البلاغة، ص٥٠٠-٥٠٢.

فالإفراط أو التفريط له مساوئه السلبية على جميع مفاصل الدولة، ومن ثم فإن ما ذكره الإمام عليه السلام لا يتعدى هذه النتيجة؛ لذلك ركز على أن منهج التوسط والاعتدال يجب أن يشمل دقائق الأمور كالحركات والنظرات وتعابير الوجه، فضلاً عن الأمور الأخرى كالحكم والقضاء، كما في قوله عليه السلام إلى عامله عبد الله بن عباس: ((**سَعِ [مَنع] النَّاسَ بِوَجْهِكَ وَمَجْلِسِكَ وَحُكْمِكَ، وَإِيَّاكَ وَالْغَضَبَ فَإِنَّهُ طَيْرَةٌ مِنَ الشَّيْطَانِ. وَاعْلَمْ أن مَا قَرَّبَكَ مِنَ اللهِ يُبَاعِدُكَ مِنَ النَّارِ، وَمَا بَاعَدَكَ مِنَ اللهِ يُقَرِّبُكَ مِنَ النَّارِ**))[1].

ويرى الشرّاح أن قول الإمام عليه السلام إلى عبد الله بن عباس أن يسع الناس بوجهه كناية عن البشر والطلاقة، وأن تكون دائماً بادية على وجه الوالي فلا يقطب جبينه ولا يلقيهم بالعبوس، ويسعهم في مجلسه كناية عن التواضع فلا كبر عنده ولا كلام فحش، والحكم كنى بها عن العدل لا جور فيه ولا ظلم، بل يكون منصفاً عادلاً، لأن حكم العدل يسع كل أحد، والجور ضيق لا يتحمله أحد، فلا يخص الناس بشيء من ذلك سواء في تعابير الوجه أم في المجلس أم في الحكم، بل يساوي الكل فيها[2]، وهذا الكلام سليم وصحيح، ولكن هناك أيضاً نقطة محورية ومهمة في كلام الإمام عليه السلام وهي أن لا تحصل مغالاة أو تقصير في هذه المحاور الثلاثة من

(١) نهج البلاغة، ص٧١١-٧١٢.

(٢) ينظر: الراوندي، منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، ٣/ ٢٥٨؛ الكندري البيهقي، حدائق الحقائق في شرح نهج البلاغة، ٢/ ٥٩٥؛ البحراني، شرح نهج البلاغة (الكبير)، ٥/ ٢٣٣-٢٣٤؛ شرح نهج البلاغة (الصغير)؛ الموسوي، شرح نهج البلاغة، ٥/ ١٩٣-١٩٤؛ أنصاريان، شرح نهج البلاغة المقتطف من بحار الأنوار، ص٣١٧؛ الخوئي، منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، ٢٠/ ٤٠٦؛ الشيرازي، توضيح نهج البلاغة، ٤/ ٢٥٣؛ مغنية، في ظلال نهج البلاغة، ٤/ ٢٠٠؛ دخيل، شرح نهج البلاغة، ١٣-٣٢/ ٧٤؛ التستري، بهج الصباغة في شرح نهج البلاغة، ٩/ ٣٠.

الحكم، بل أن يكون الحاكم معتدلاً متوسطاً فيها بين الجميع أي أن جميعها يجب أن تتصف بالتوسط والاعتدال، فلا يفرط فيخص فئة تكون مقربة إليه، ولا يفرط ويظلم فئة بعيدة عنه.

توجيه الإطار العسكري وتنظيمه وعلاقته بالقيادة.

أتى الإمام علي عليه السلام بتنظيم إداري جديد يختلف عن الأسلوب الذي كان سائداً قبله، ويعد من أعمق وأدق الأساليب التنظيمية التي أغنت الفكر العسكري بالتجارب القيادية والممارسات الميدانية والتخطيط والتنفيذ التي ربما نجدها اليوم واضحة في العلوم العسكرية المعاصرة، فقد أسهمت المكونات الفكرية للإمام علي عليه السلام من ناحية، والوراثة من ناحية أخرى، وتراكم الخبرة في ميدان القتال من ناحية ثالثة[1] في صياغة قائد فذ لا يمكن أن يكرره التاريخ، بغض النظر عن كونه إماماً، فإن شخصيته العسكرية شخصية مثالية لا بد من أن يحتذى بها وتُدَرّس على نطاق الكرة الأرضية.

وزيادة على ما تقدّم فإن الإمام عليه السلام كان له دور في تنظيم الإطار العسكري وتوجيهه على وفق منهج ومسار الاعتدال والتوسط مما جعل نمط القيادة العسكرية تنفرد بالمثالية؛ لأنها قائمة على نظام وتنظيم محكم لا إفراط فيه ولا تفريط، ولا غضب ولا لين وضعف، فأخذت أبعادها من الشخصية القيادية المنضبطة التي حدد منطلقاتها الإمام عليه السلام على وفق أسس التوازن والتكامل بين البناء الفكري السلوك السليم واستخدام القوة العسكرية من غير أن تطغى أحدهما على الأخرى فتأخذ جانب الانحراف، وخير مصداق على هذا الكلام

(١) للاطلاع على مصادر فكر الإمام عليه السلام العسكرية، ينظر: المياحي، الإمام علي (عليه السلام) دراسة في فكره العسكري، ص ١٥ فما بعدها.

وصفه لمالك الأشتر في كتاب إلى أميرين من أمراء جيوشه[١]: ((**وَ قَدْ أَمَّرْتُ عَلَيْكُمَا وَ عَلَى مَنْ فِي حَيِّزِكُمَا مَالِكَ بْنَ الْحَارِثِ الْأَشْتَرَ، فَاسْمَعَا لَهُ وَ أَطِيعَا، وَ اجْعَلَاهُ دِرْعاً وَ مِجَنّاً فَإِنَّهُ مِمَّنْ لَا يُخَافُ وَهْنُهُ وَ لَا سَقْطَتُهُ وَ لَا بُطْؤُهُ عَمَّا الْإِسْرَاعُ إِلَيْهِ أَحْزَمُ، وَ لَا إِسْرَاعُهُ إِلى مَا الْبُطْءُ عَنْهُ أَمْثَلُ**))[٢]. فالقيادة العسكرية جعلها الإمام عليه السلام لمالك الأشتر؛ لأنه يضع الأمور موضعها، فلا يهين ويضعف ولا يغلظ في المحاربة، بل يكون متوسطاً بينهما واضعاً كل أمر في محله هذا الجانب الأول، والجانب الثاني لا يسرع إلى عمل إذا كان اللازم عدم الإسراع ولا يترك السرعة إذا كانت السرعة هي اللازمة[٣]، فهو يمتلك أهم المؤهلات العسكرية وأهمها العقلانية والاعتدال، وفي هذا الكلام يذكر الإمام عليه السلام صفات ومؤهلات وخبرة مالك الأشتر العسكرية بصورة عامة، ولكن في ذات الوقت هو تنظيم من جانب وقواعد يجب أن تتوافر في كل قيادة عسكرية من جانب آخر، والتي يؤكد فيها صفة التلازم والاقتران بين التوسط والاعتدال ووضع كل شيء محله وبين الشخصية القيادية العسكرية.

ولقد أبرز لنا ما تقدَّم من كلام جملة أمور أهمها: أن استقرار النظام العسكري مرهون ومنوط بعقل مسؤوليه، فإذا لم تكن العقلانية موجودة يتهرأ وينهار الجيش ويأخذ طرفي الإفراط أو التفريط، و أن الكفاءة لا تُحدد بالقتال فحسب، فليست

---

(١) الأميران هما زياد بن النضر، وشريح بن هاني، ينظر، المنقري، وقعة صفين، ص ١٥٢-١٥٤؛ الطبري، تاريخ الطبري، ٣/ ٥٦٥.

(٢) نهج البلاغة، ص٥٦١-٥٦٢.

(٣) ينظر: الراوندي، منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، ٣/ ٣٥؛ ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٥/ ١٠٢؛ البحراني، شرح نهج البلاغة (الكبير)، ٤/ ٣٨٢؛ الشيرازي، توضيح نهج البلاغة، ٣/ ٤٥٢؛ الموسوي، شرح نهج البلاغة، ٤/ ١٦٩؛ دخيل، منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، ٢٥-٢٦/ ٣٦.

الكفاءة قتالية وإنما الكفاءة الفنية والإدارية التي لها أهمية خطيرة، ومن مقتضيات وأمانة اختيار الأدوار القيادية وضع الرجل المناسب في المكان المناسب، إذ إن الاعتدال والتوسط ووضع كل شيء في محله تجعل القيادة العسكرية قيادة مثلى، وتكون القرارات العسكرية من غير حاجة إلى المناقشة وإبداء الرأي.

ونجد أن الإمام عليه السلام قد أعاد التركيز على هذه القواعد المذكور آنفاً؛ لأنها تكون معول هدم في حال الإسراف والشدة أو الضعف، وتفضي بالاستراتيجية العسكرية والتكتيك العسكري والقوى القتالية إلى الهاوية، فيقول عليه السلام إلى مالك الأشتر عندما ولاه مصر: ((**فَوَلِّ مِنْ جُنُودِكَ أَنْصَحَهُمْ فِي نَفْسِكَ لِلَّهِ وَ لِرَسُولِهِ وَ لِإِمَامِكَ، وَ أَنْقَاهُمْ جَيْباً، وَ أَفْضَلَهُمْ حِلْماً مِمَّنْ يُبْطِئُ عَنِ الْغَضَبِ، وَ يَسْتَرِيحُ إِلَى الْعُذْرِ، وَ يَرْأَفُ بِالضُّعَفَاءِ، وَ يَنْبُو عَلَى الْأَقْوِيَاءِ، وَ مِمَّنْ لَا يُثِيرُهُ الْعُنْفُ، وَ لَا يَقْعُدُ بِهِ الضَّعْفُ**))[1].

وهناك اتفاق بين الشرّاح في تفسير كلامه (عليه السلام) إلّا في بعض الجزئيات وهي أن الإمام عليه السلام يأمر مالك أن يولي من جنوده ممن لا يكون له عنف فيثيره ولا يقعد به الضعف عن إقامة حدود الله فيتدبر العواقب فيعمل بموجبها شأن العاقل الحكيم فهو يلين من غير ضعف ويقوي من غير عنف[2]، وهذا هو بيت

(١) نهج البلاغة، ص٦٥٨-٦٥٩.

(٢)ينظر: ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٧/ ٥٢؛ البحراني، شرح نهج البلاغة (الكبير)، ٥/ ١٦٠؛ مغنية، في ظلال نهج البلاغة، ٤/ ٧١؛ التستري، بهج الصباغة في شرح نهج البلاغة، ٨/ ٥٣٣؛ الشيرازي، توضيح نهج البلاغة، ٤/ ١٦١؛ الموسوي، شرح نهج البلاغة، ٥/ ٥٠؛ أنصاريان، شرح نهج البلاغة المقتطف من بحار الأنوار، ٣/ ٢٥٤؛ دخيل، شرح نهج البلاغة، ٢٩-٣٠/ ٧١؛ المحمودي، نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة، ٥/ ٦٩؛ الخوئي، منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، ٢٠/ ٢٠٦؛ عبد الزهراء الخطيب، مصادر نهج البلاغة وأسانيده، ٣/ ٣٩١.

القصيد الذي نحاول الوصول إليه، والذي يمكن استنتاجه من قول الإمام عليه السلام أن يكون متوسطاً معتدلاً لا لين ولا عنف بل يضع الأمور موضعها. ومع هذا فإن كلام الإمام عليه السلام يضعنا أمام جملة من الأمور المهمة في إطار التنظيم العسكري يمكن أن ندرجها بما يأتي:

١. الشخصية العسكرية تتكون من صفات تجعل من تلك الشخصية مثالية ذات نفوذ وهيبة، فلا عنف ولا ضعف، بل الأمر بين الأمرين الذي يجعلها ذات هيبة نافذة.

٢. اقتران الوظيفة العسكرية بمفهوم الأمانة فتتحدد بالأطر التي رسمتها الشريعة، وما يدل على ذلك قوله عليه السلام أن يختار أنقاهم جيباً.

٣. أنه يثقف ويضع قاعدة ومرتكزاً أساسيّاً على ارتباط مفهوم القيادة العسكرية بالأبعاد الإنسانية، وهذا ما نفهمه من قوله عليه السلام: (يرأف بالضعفاء وينبو على الأقوياء).

٤. أن القوة ليست معياراً ليكون جنديّاً فاعلاً يحتل مرتبة الجدار، بل لابد من سلامة العقيدة، وهو ما بينه قوله عليه السلام: (فول من جنودك أنصحهم في نفسك لله ولرسوله ولإمامك).

كذلك ما يلاحظ أن البعد الزمني لم يُفرض على العلاقة بين منهج الإمام التنظيمي والتطبيق الواقعي بحيث يفرض على التطبيق مساراً آخر لا علاقة له بالأفكار، وهذا الجانب المميز الذي ينفرد به منهج التنظيم والتوجيه العلوي، ولإتمام ترقية الإطار العسكري وتنظيمه لم يغفل الإمام عليه السلام أثر الوسطية في التنظيم الميداني؛ إذ أوجزه الإمام عليه السلام في نص واحد لكن يكاد أن يكون متكاملاً

وشاملاً؛ إذ يقول في وصية لمعقل بن قيس الرياحي[١] حين أنفذه إلى الشام: ((**اتَّقِ اللهَ الَّذِي لَا بُدَّ لَكَ مِنْ لِقَائِهِ، وَلَا مُنْتَهَى لَكَ دُونَه، وَلَا تُقَاتِلَنَّ إلا مَنْ قَاتَلَكَ. وَسِرِ الْبَرْدَيْنِ[٢]، وَغَوِّرْ بِالنَّاسِ، وَ رَفِّهْ فِي السَّيْرِ، وَلاَ تَسْرِ أَوَّلَ اللَّيْلِ، فَإِنَّ اللهَ جَعَلَهُ سَكَناً، وَقَدَّرَهُ[جعله] مُقَاماً لَا ظَعْناً، فَأَرِحْ فِيهِ بَدَنَكَ، وَرَوِّحْ ظَهْرَكَ. فَإِذَا وَقَفْتَ حِينَ يَنْبَطِحُ[ينبلج] السَّحَرُ، أو حِينَ يَنْفَجِرُ[يتفجّر] الْفَجْرُ، فَسِرْ عَلَى بَرَكَةِ اللهِ. فَإِذَا لَقِيتَ الْعَدُوَّ فَقِفْ مِنْ أَصْحَابِكَ وَسَطاً، وَلَا تَدْنُ مِنَ الْقَوْمِ دُنُوَّ مَنْ يُرِيدُ أن يُنْشِبَ الْحَرْبَ. وَلَا تَبَاعَدْ عَنْهُمْ تَبَاعُدَ مَنْ يَهَابُ الْبَأْسَ، حَتَّى يَأْتِيَكَ أَمْرِي، وَلَا يَحْمِلَنَّكُمْ شَنَآنُهُمْ[سبابهم] عَلَى قِتَالِهِمْ، قَبْلَ دُعَائِهِمْ وَالْإِعْذَارِ إِلَيْهِمْ**))[٣].

وأولى المبادئ التي أشار إليها الإمام علي عليه السلام في التنظيم العسكري الميداني في النص المتقدم تتجسد في مسلك الوسطية في وقت المسيرة الحربية، المتمثلة بأن يسير البردين ويغور في الناس ولا يسير أول الليل والسير وقت السحر أو حين ينفجر الفجر، ومن ثم فإن سير البردين هو الفجر والعصر، فالفجر أو الغداة وسط بين سكن الليل وبين غور النهار، والعشي الذي هو وقت العصر وسط بين غور النهار أو الظهر وبين سكن أول الليل الذي يشير إليه الإمام علي عليه السلام، والفلسفة من ذلك لأن الأرض والجو يكون بارداً ورطباً في وقت البردين فلا

(١) معقل بن قيس، أو أبو عبد قيس الرياحي، من بني يربوع. أدرك عصر النبوة. وأوفده عمار بن ياسر على عمر، بشيرا بفتح تستر، ووجهه على بني ناجية حين ارتدوا. ثم كان من أمراء الصفوف يوم الجمل. وولي شرطة علي بن أبي طالب (عليه السلام) ثم كان مع المغيرة بن شعبة في الكوفة، فلما خرج المستورد بن علفة جهز المغيرة معقلا في ثلاثة آلاف وسيره لقتاله، فنشبت بينهما معركة على شاطئ دجلة، فتبارزا، فقتلا معا، الزركلي، الأعلام، ٧/ ٢٧١.

(٢)البردين: البردانِ والأَبْرَدانِ وهما الغداةُ والعشي، ابن منظور، لسان العرب، ٣/ ٨٤.

(٣) نهج البلاغة، ص٥٦٠-٥٦١.

يتأذى العسكر من الحر وما معه من دواب، في حين أن وقت الغائرة وأول الليل هما إفراط وتفريط، لأن وقت الغائرة يكون السير فيه شاقاً صعباً وموجباً للإرهاق فهو وقت اشتداد الحر في نصف النهار، وأول الليل وقت منام الناس فإن الله جعله للسكون وقدره مقاماً يستراح فيه من المتاعب لا ظعناً للسفر[١]. وهناك إيحاءات في كلام الإمام عليه السلام يمكن أن نستجليها بما يأتي:

١. أثر مسلك الوسطية في وقتي الغداة والعشي بحيث يكون الجند في أوج قوتهم لم تستهلكهم الحركة نحو العدو من وقتي الإفراط والتفريط ولا سيما نصف النهار وأول الليل.

٢. يشير الإمام عليه السلام إلى أن هناك أوقاتاً بيولوجية للإنسان، وهي أوقات النشاط المناسبة لجسم الإنسان وتأثيرها في القوى البدنية[٢].

٣. تجدر الإشارة إلى أن هذه الأوقات الزمنية التي ذكرها الإمام عليه السلام ليست قطعية بل هو في موضع التثقيف إلى افضل الأوقات التي لا يكون فيها إفراط

(١) ينظر: الكندري البيهقي، حدائق الحقائق في شرح نهج البلاغة، ٢/ ٤٠١؛ ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٥/ ٩٣؛ البحراني، شرح نهج البلاغة (الكبير)؛ ٤/ ٣٨٠-٣٨١؛ السرخسي، أعلام نهج البلاغة، ص٢٣٢؛ الموسوي، شرح نهج البلاغة، ٤/ ١٦٦-١٦٧؛ الشيرازي، توضيح نهج البلاغة، ٣/ ٤٥٠-٤٥١؛ الخوئي، منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، ١٨/ ٨٨-٨٩؛ مغنية، في ظلال نهج البلاغة، ٣/ ٤١٢؛ أنصاريان، شرح نهج البلاغة المقتطف من بحار الأنوار، ٣/ ٤٠؛ عبدة، شرح نهج البلاغة، ٣/ ١٥؛ دخيل، شرح نهج البلاغة، ٢٥-٢٦/ ٣٤؛ المحمودي، نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة، ٢/ ٧٧-٧٨؛ عبد الزهراء الخطيب، مصادر نهج البلاغة وأسانيده، ٣/ ٢١٤.

(٢) ينظر في ذلك: غالاغر – محرر الصحة بي بي سي، ساعة الذروة والتغيرات التي تصاحبها في جسم الإنسان.

.com.bbc.www

أو تفريط والتأثير في قوة الجيش ونشاطه.

أيضاً نجد أن الإمام عليه السلام أشار إلى طريقة السير بالجنود، لا سرعة ويتشتت الجند ولا بطء فيؤدي إلى الملل في قوله المتقدم: (وَ رَفِّهْ فِي السَّيْرِ).

أما فيما يخص آراء الشرّاح فكان هناك تباين في آرائهم؛ إذ أشار **الرأي الأول** إلى أن مقصد الإمام عليه السلام أن يريح الخيل والإبل والناس ويهون ولا يتعب[1]، في حين أشار **الرأي الثاني** إلى أن مقصد الإمام عليه السلام أن الرفق في السائرين ولا يوجفهم كي لا تتعب الركاب والركبان ولا يتفرقوا ولا يتخلف الضعيف ويحلق القوي، ومن ثم لا يظهر التعب على الناس لحاجتهم إلى القوة والاستجمام فيكون السير عادلاً لا سريعاً[2]، وهذا الرأي هو أقرب إلى الواقعية على الرغم من أنهم لم يشيروا إلى النقطة المحورية والقصدية من كلام الإمام عليه السلام، فكيف يكون السير عادلاً بحيث يناسب القوي والضعيف ويرفه بالناس بالتوسط والاعتدال لا سرعة مفرطة ولا بطء.

وبالتأكيد فإن الإمام عليه السلام لم يقتصر على ما تقدم، بل أشار أيضاً إلى مسلك الوسطية على أرض الميدان في بُعدين تنظيمين؛ الأول قوله عليه السلام في النص الذي تقدم: (فَإِذَا لَقِيتَ الْعَدُوَّ فَقِفْ مِنْ أَصْحَابِكَ وَسَطاً) أي أن يكون في وسط الجيش وقلبه لا في الطرفين فيحدث إفراط وتفريط، والفلسفة من ذلك لأن التوسط يكون

(١) ينظر: الراوندي، منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، ٣/ ٣٤؛ الكندري البيهقي، حدائق الحقائق في شرح نهج البلاغة، ٢/ ٤٠١؛ عبدة، شرح نهج البلاغة، ٣/ ١٥؛ أنصاريان، شرح نهج البلاغة المقتطف من بحار الأنوار، ٣/ ٥٢٣؛ دخيل، شرح نهج البلاغة، ٢٥-٢٦/ ٣٤.

(٢) ينظر: البحراني، شرح نهج البلاغة (الكبير)، ٤/ ٣٨٠-٣٨١؛ الخوئي، منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، ١٨/ ٨٧-٨٨؛ الشيرازي، توضيح نهج البلاغة، ٣/ ٤٥٠؛ الموسوي، شرح نهج البلاغة، ٤/ ١٦٧.

أسهل في الأمر والنهي والتسلط عليهم وعلى اتصال مستمر بهم، وتكون نسبته إلى كل الجوانب واحدة، فإذا كان في أحد الطرفين بعد عن الطرف الآخر فربما يختل نظام الجند ويضطرب[١]، ومن ثم فإن النتيجة المستحصلة أن موقع القائد يجب أن يكون في وسط الجيش؛ لأن هناك فلسفة من ذلك، وهي أن وجوده في أحد الأطراف يحُدث خللاً وإفراطاً وتفريطاً في التنظيم والإشراف، ومن ثم يؤثر على نتيجة سير المعركة على أرض الميدان.

البعد التنظيمي الثاني موقعه بالنسبة إلى العدو، فـ ((فَلَا تَدْنُ مِنَ الْقَوْمِ دُنُوَّ مَنْ يُرِيدُ أن يُنْشِبَ الْحَرْبَ. وَ لَا تَبَاعَدْ عَنْهُمْ تَبَاعُدَ مَنْ يَهَابُ الْبَأْسَ))، فيكون وسطاً لا يقترب منهم فيشعروا بأنه يريد إيقاد الحرب وإشعالها، ليكون أعذر عند الله إلى القوم في دعائهم إلى الحق ولا يبتعد عنهم مفرطاً فيكون موهماً لهم أنه لضعف وخوف منهم وفزعه من الحرب فيطمع العدو فيه[٢].

(١) ينظر: ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٥/ ٩٤؛ البحراني، شرح نهج البلاغة، ٤/ ٣٨١؛ الشيرازي، توضيح نهج البلاغة، ٣/ ٤٥٠؛ مغنية، في ظلال نهج البلاغة، ٣/ ٤١٢؛ الخوئي منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، ١٨/ ١٠٩؛ الموسوي، شرح نهج البلاغة، ٤/ ١٦٧.

(٢) ينظر: ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٥/ ٩٤-٩٥؛ البحراني، شرح نهج البلاغة (الكبير)، ٤/ ٣٨١؛ الموسوي، شرح نهج البلاغة، ٤/ ١٦٧؛ الخوئي، منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، ١٨/ ١١٠-١١١؛ مغنية، في ظلال نهج البلاغة، ٣/ ٤١٢؛ الشيرازي، توضيح نهج البلاغة، ٣/ ٤٥١؛ التستري، بهج الصباغة في شرح نهج البلاغة، ٣١/ ٥١٠.

الفصل الثالث

المسارات التثقيفية
وطـابعها الشمـولي

المبحث الأول

مسار القواعد الوقائية

إن فكر الإمام علي عليه السلام الذي نحن بصدده يمثل القواعد الوقائية غير أن اختيار هذه المفردة ليس فيه خصوصية؛ لأن ما تقدم من موضوعات كلها ينطبق عليها النمط الوقائي سواء كانت في الجانب الديني أم السياسي أم الاقتصادي، فجميعها تقع في خانة الوقاية من الانحراف أو الغلو أو الإفراط والتفريط، إلّا أن ما يميز الموضوع قيد الدراسة هو أن الإمام عليه السلام يضع قواعد وقائية بمفهومها المادي التي تعمل بوصفها عوائق ومصدات للاحتراز من الوقوع في الخطأ.

وطبيعي أن تحقق لنا تلك القواعد منهجاً ومساراً يوصلان إلى الاستقامة؛ لأن مرتكزها الأساس هو الوسطية، لكن ينبغي أن نفهم أن تشخيص الإمام عليه السلام لتلك القواعد في بعض الأحيان قد يكون بحسب متطلبات المرحلة أو الحالة التي تستوجب الالتزام والتقيد في هذه القاعدة، بالمعنى ليست قاعدة تنطبق على كل الحالات؛ لأن الظروف المحيطة بها قد تتغير أو بالعكس قد تكون قاعدة تنطبق على كل حالة؛ لأن الظروف والمواقف متشابهة تماماً، وربما خير دليل على ذلك أن الإمام عليه السلام يضع قواعد عامة لمعرفة الحق، مثلاً قاعدة (**أعرف الحق تعرف أهله**) كما في قوله للحارث بن حوط[1] عندما أتاه، وقال له: أتراني أظن أصحاب الجمل كانوا على ضلالة ؟ فقال عليه السلام: ((**يَا حَارِثُ، إِنَّكَ نَظَرْتَ تَحْتَكَ وَلَمْ تَنْظُرْ فَوْقَكَ فَحِرْتَ! إِنَّكَ لَمْ تَعْرِفِ الْحَقَّ فَتَعْرِفَ مَنْ أَتَاهُ، وَلَمْ تَعْرِفِ الْبَاطِلَ فَتَعْرِفَ مَنْ أَتَاهُ[اباه] فَقَالَ الْحَارِثُ: فإني أعتزل مع سعيد بن مالك**[2] **وعبد الله بن عمر، فقال**

(١) لم اعثر له على ترجمته.

(٢) سعيد بن مالك بن بحدل بن أنيف بن دلجة ابن قنافة بن عدي أخو حسان بن مالك، ولي

عليه السلام: (**إن سَعِيداً وَ عَبْدَ اللهِ بْنَ عُمَرَ لَمْ يَنْصُرَا الْحَقَّ، وَ لَمْ يَخْذُلَا الْبَاطِلَ**))[١]، لكن قد تختلط الموازين ولا يمكن فيها معرفة الحق من الباطل، فيضع الإمام عليه السلام هنا القاعدة الوقائية البديلة في قوله عليه السلام: ((**كُنْ فِي الْفِتْنَةِ كَابْنِ اللَّبُونِ، لَا ظَهْرٌ فَيُرْكَبَ، وَلَا ضَرْعٌ فَيُحْلَبَ[فيحتلب]**))[٢]، فالابن اللبون إذ استكمل سنتين ودخل في الثالثة، فليس له قوة فيستعمل للركوب، وليس له ضرع فيحلب[٣].

إن الابن اللبون هنا لا يمكن الاستفادة منه في الحالتين لا يُركبَ ولا يُحلبَ، لكن الإمام عليه السلام هنا أراد المفهوم دون المنطوق، والمعنوي دون المادي، فقرَّب الفكرة بضرب مثال قريب من الأذهان وهو الابن اللبون، وكان الكلام هادفاً لبلورة قاعدة وقائية عند الفتنة واشتباه الأمور وهو التوسط بين الفائدتين فلا يستفاد منه عند الفتن بنفسه وموقفه ولا ماله، ومن ثم يمتلك قاعدة يؤدي التمسك بها إلى الوقاية من الانحراف؛ لأنه عند اشتباه الأمور في الفتن بكل أنواعها سواء

أمرة قنسرين والجزيرة في أيام يزيد بن معاوية حتى أخرجه زفر بن الحارث حين وقعت الفتنة، وإليه ينسب دير ابن بحدل من إقليم بيت الآبار أقطعه إياه يزيد بن معاوية، ابن عساكر، تاريخ دمشق،٢١/ ٢٩١.

(١) نهج البلاغة، ص٧٨٦-٧٨٧.

(٢) نهج البلاغة، ص٧١٧.

(٣) ينظر: بيهقي خراساني، معارج نهج البلاغة، ص٣٩٧؛ الراوندي، منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، ٣/ ٢٦٧-٢٦٨؛ كيذري بيهقي، حدائق الحقائق في شرح نهج البلاغة، ٢/ ٥٩٩؛ ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٨/ ٨٢-٨٣؛ البحراني، شرح نهج البلاغة (الكبير)، ٥/ ٢٣٨؛ شرح نهج البلاغة (الصغير)، ص٢٩١؛ السرخسي، اعلام نهج البلاغة، ص٢٩١؛ الخوئي، الدرة النجفية، ص٣٥٢؛ الشيرازي، توضيح نهج البلاغة، ٤/ ٢٦١؛ الموسوي، شرح نهج البلاغة، ٥/ ٢٠٦؛ دخيل، شرح نهج البلاغة، ٣١-٣٢/ ٨٠؛ الخوئي، منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، ٢١/ ٧-٨؛ المحمودي، نهج السعادة في شرح نهج البلاغة، ٧/ ٣٥.

كانت عقائدية أم فكرية أم سياسية وعدم معرفة جبهة الحق من الباطل، فامتلاك هذه القاعدة والعمل بها أوفق لأنه غالباً ما تؤدي الفتن إلى أن يفقد الإنسان قوامه الباطني ويبدأ الجهاز المشكك في المخ فيعيش في دوامة واضطراب فكري قد يؤدي به إلى الزيغ والميل عن الجادة.

وانطلاقاً مما تقدَّم فإن الوسطية أعطت قاعدة وقائية وعدت الانحراف عنها خطراً وخطأ في التصرف بيد أن انتهاجها يحقق النمط الوقائي، مع العلم أن القواعد الوقاية بمفهوم الوقاية من مكامن الخطر والانحراف والأعداء لا تقتصر على الأعداء الظاهرين فحسب إن صح قول ذلك، بل إن الإمام عليه السلام يضع قاعدة وقائية أيضاً للتخلص من أخطر الأعداء وهو إبليس الذي يعيش حرباً شعواء مع أولياء الله وعبادة، فيقول عليه السلام: ((...**فَأَطْفِئُوا مَا كَمَنَ فِي قُلُوبِكُمْ مِنْ نِيرَانِ الْعَصَبِيَّةِ، وَأَحْقَادِ الْجَاهِلِيَّةِ، فَإِنَّمَا تِلْكَ الْحَمِيَّةُ تَكُونُ فِي الْمُسْلِمِ مِنْ خَطَرَاتِ الشَّيْطَانِ وَنَخَوَاتِهِ، وَنَزَغَاتِهِ وَنَفَثَاتِهِ. وَاعْتَمِدُوا وَضْعَ التَّذَلُّلِ عَلَى رؤُوسِكُمْ، وَإِلْقَاءَ التَّعَزُّزِ تَحْتَ أَقْدَامِكُمْ، وَخَلْعَ التَّكَبُّرِ مِنْ أَعْنَاقِكُمْ؛ وَاتَّخِذُوا التَّوَاضُعَ مَسْلَحَةً بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ عَدُوِّكُمْ إِبْلِيسَ وَجُنُودِهِ؛ فإن لَهُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ جُنُوداً وَأَعْوَاناً، وَرَجِلًا وَفُرْسَانا....**))[1].

وما يهمنا في هذا النص هو قول الإمام عليه السلام باتخاذ التواضع مسلحة[2] بين الإنسان وإبليس، أي أن يكون التواضع وسطاً بين الإنسان وإبليس، كالمسلحة

(١) نهج البلاغة، ص٤٣٢.

(٢) المسلحة: القوم الذين يحفظون الثغور من العدوّ، سمّوا مَسْلَحة؛ لأنهم يكونون ذوي سلاح، أو لأنهم يسكنون المَسْلَحة، وهي كالثغر والمَرْقَب يكون فيه أقوام يَرْقُبون العدوَّ لئلا يَطْرُقَهم على غفلة، فإذا رأَوه أَعلموا أَصحابهم ليتأَهبوا له، ابن منظور، لسان العرب، ٢/ ٤٨٧.

المعدة للحماية والدفاع[١]، وهو القاعدة الوقائية من خطر إبليس، فكما أن في بعض الحالات لابد من الحرب لدرء الخطر والوقاية من الاعتداء كذلك اتخاذ التواضع وسطاً يكون كالدرع الواقي من إبليس وجنوده.

وفي ضوء ما تقدم يمكن أن نسجل بعض النتائج على النحو الآتي:

إن التواضع قاعدة تقي من خطر إبليس.

النتيجة المهمة التي يمكن التوصل إليها هي أن التواضع عادة ما يكون في التعامل الحسن مع طرف آخر، أو هو الحالات الروحية والأخلاقية التي تظهر على الإنسان كالتواضع الفكري والعلمي أو التواضع الاقتصادي كملبس الإنسان إلى غيرها من حالات التواضع التي تظهر نتائجها ومفرداتها في حياة الفرد، ومن ثم فإننا لو نأتي لها فهي ليست محل تعامل مباشر مع إبليس، لكن الإمام عليه السلام يريد أن يوصل لنا نتيجة وهي أن إبليس يمكن أن يسيطر على الإنسان في كل شيء، وعند اتخاذ التواضع وسطاً فإن ذلك الوسط يحقق لنا تلك النتيجة المهمة وهي الوقاية من سيطرة إبليس وتسلطه على الإنسان.

إن القضية لا تعدو عن كونها قضية تربوية، فضلاً عن جانبها التثقيفي الوقائي وهي أن الانحراف عن التواضع الذي هو حالة نفسية وروحية سامية، يؤدي إلى التكبر، وهو من الرذائل الأخلاقية والتصرفات الشيطانية.

قول الإمام عليه السلام: ((**اعتمدوا وضع التذلل على رؤوسكم، وإلقاء التعزز تحت أقدامكم، وخلع التكبر من أعناقكم**)) أشار إلى كون التذلل أو التواضع فضيلة

(١) ينظر: ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٣/ ١٤٤؛ البحراني، شرح نهج البلاغة، ٤/ ٢٥٦؛ الشيرازي، توضيح نهج البلاغة، ٣/ ١٨٦؛ دخيل، شرح نهج البلاغة، ١٩-٢٠/ ٢٦؛ الموسوي، شرح نهج البلاغة، ٣/ ٢٩٦؛ عبد الزهراء الخطيب، مصادر نهج البلاغة وأسانيده، ٣/ ٢٣.

لابد من أن يحتل المكانة الكبرى والمهمة، فشبهة تلك المكانة وذلك التميز بأن يوضع على الرأس كالتاج يزين رأس الإنسان في حين أن التعزز أو الشدة والصلابة رذيلة لا تعطى لها مكانة بل يجب أن يكون تحت الأقدام، و أشار إلى رذيلة ونتائج الكبر بأنه كالطوق حول رقبة الإنسان لذلك استعار له لفظ الخلع من الأعناق.

و يضع الإمام عليه السلام دلالات خاصة لكي يستطيع الإنسان السير على وفقها واتباعها، وهم العارفون أو المتقون، وهم الأئمة عليهم السلام كونهم هم الأدلاء في الفلوات الذين أمر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم باتباعهم، لكن لم يصرح الإمام عليه السلام بأسمائهم، وهؤلاء الأعلام المنصوبة هم الذين يقيمون الطريق المستقيم من اليمين والشمال ويضعون قاعدة وقائية وأن من سار في هذا الطريق طريق القصد والاعتدال والاستقامة يكون نتيجته النجاة؛ أما من انحرف، فتكون نتيجته الهلاك، وهي قاعدة عامة غير قابلة للنقض أو التعديل والتغير، فيقول عليه السلام في هذا الإطار بعد قوله: ﴿**يُسَبِّحُ لَهُ فِيها بِالْغُدُوِّ وَ الْآصالِ رِجالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجارَةٌ وَ لا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ**﴾[1]: ((**إِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ جَعَلَ الذِّكْرَ جِلاءً لِلْقُلُوبِ، تَسْمَعُ بِهِ بَعْدَ الْوَقْرَةِ، وَتُبْصِرُ بِهِ بَعْدَ الْعَشْوَةِ، وَتَنْقَادُ بِهِ بَعْدَ الْمُعَانَدَةِ، وَمَا بَرِحَ للهِ عَزَّتْ آلَاؤُهُ فِي الْبُرْهَةِ بَعْدَ الْبُرْهَةِ، وَفِي أَزْمَانِ الْفَتَرَاتِ، عِبَادٌ نَاجَاهُمْ فِي فِكْرِهِمْ، وَكَلَّمَهُمْ فِي ذَاتِ عُقُولِهِمْ، فَاسْتَصْبَحُوا بِنُورِ يَقَظَةٍ فِي الْأَبْصَارِ وَالْأَسْمَاعِ وَالْأَفْئِدَةِ، يُذَكِّرُونَ بِأَيَّامِ اللهِ، وَيُخَوِّفُونَ مَقَامَهُ، بِمَنْزِلَةِ الْأَدِلَّةِ فِي الْفَلَوَاتِ[القلوب]. مَنْ أخذ الْقَصْدَ حَمِدُوا إليه طَرِيقَهُ، وَبَشَّرُوهُ بِالنَّجَاةِ، وَمَنْ أخذ يَمِيناً وَ شِمَالًا ذَمُّوا إليه الطَّرِيقَ، وَحَذَّرُوهُ مِنَ الْهَلَكَةِ، وَكَانُوا كَذَلِكَ مَصَابِيحَ تِلْكَ الظُّلُمَاتِ، وَ أَدِلَّةَ تِلْكَ الشُّبُهَاتِ**))[2].

(١) النور / ٣٦-٣٧.

(٢) نهج البلاغة، ص٥١٦-٥١٧.

وقد اختلف الشرّاح في تحديد من هم هؤلاء الأدلّاء في الفلوات، فقالوا: عباد الله[١]، وقال آخر: الهداة إلى الله[٢]، وثالث قال: هم العارفون[٣]، ووجه تشبيههم بالأدلاء في الفلوات كونهم هادين إلى سبيل الله كما تهدي الأدلة، فهم كالأعلام المنصوبة تدل على الطريق يستطيع السائر أن يهتدي إلى مراده ويصل إلى غايته ويأمن مضلة الطريق وتحير السبيل، ومن أخذ من سمت الطريق وواسطة الأمور بشروه بالنجاة من المهالك؛ لأن قصد الطريق يوصل إلى الغاية المطلوبة، ومن انحرف عن الجادة إلى طرفي الإفراط والتفريط ذموا إليه الطريق وحذروه من الهلاك الأبدي، فهم يرشدون إلى موانع الخطر ويأخذون بأيديهم إلى الحق[٤]، إذاً في نهاية المطاف يمكن القول: إن هؤلاء عباد الله، أو العارفون، أو غيرها من الأسماء الدالة على الشخصية الإلهية إن صح القول يثقفون لقاعدة وقائية، وهي أنه من اتبع الوسط العدل الطريق المستقيم تكون النتيجة النجاة، ومن أخذ الأطراف تكون النتيجة الهلاك.

---

(١) الموسوي، شرح نهج البلاغة، ٤/ ٢٩-٣٠.

(٢) البحراني، شرح نهج البلاغة، ٤/ ٧٠.

(٣) مغنية، في ظلال نهج البلاغة، ٣/ ٣٠٠.

(٤) ينظر: الكندري البيهقي، حدائق الحقائق في شرح نهج البلاغة، ٢/ ٢٣٣؛ البحراني، شرح نهج البلاغة، ٤/ ٧٠؛ من أعلام القرن السادس، شرح نهج البلاغة، ٢/ ١٣٤-١٣٥ (فارسي)؛ الأردبيلي، شرح نهج البلاغة، ص٢٢٠-٢٢١ (فارسي)؛ الكاشاني، تنبيه الغافلين وتذكرة العرفين، ٢/ ١٣٤-١٣٥ (فارسي)؛ الأنصاري، شرح نهج البلاغة، ص٦٣٠ (فارسي)؛ الموسوي، شرح نهج البلاغة، ٤/ ٢٩-٣٠؛ الشيرازي، توضيح نهج البلاغة، ٣/ ٣٦٧-٣٦٨؛ دخيل، شرح نهج البلاغة، ٢٣-٢٤/ ٢٨؛ الخوئي، منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، ١٤/ ٢٥٧؛ عبدة، شرح نهج البلاغة، ٢/ ٢٣٨، الشرقي، شرح نهج البلاغة، ص١٣٤ (فارسي).

وتبعاً لذلك فإن قول الإمام عليه السلام هو تثقيف للوقاية من التطرف والانحراف، ففي الأرض حجج وعباد عارفون، هم الذين يقيمون طريق الإنسان، وهم الأدلاء والمرشدون إلى طريق النجاة، ويمكن أن نستنتج أن هؤلاء العباد الذين لم يصرح الإمام عليه السلام باسمهم هم الأئمة عليهم السلام بدليل قول الإمام عليه السلام: ((**وَمَا بَرِحَ للهِ- عَزَّتْ آلَاؤُهُ- فِي الْبُرْهَةِ بَعْدَ الْبُرْهَةِ، وَفِي أَزْمَانِ الْفَتَرَاتِ، عِبَادٌ نَاجَاهُمْ فِي فِكْرِهِمْ**))، وأزمان الفترات هي الفترة بين زمانين أو بين رسولين تخلو من وجود نبي[1]، كما ورد في معاجم اللغة، أو هو قول شامل للائمة عليهم السلام والحجج على العباد، لأن الفترة التي سبقت النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم كانت خالية من النبوة والإمامة لكنها لم تخلُ من الحجة القائمة على العباد، وهؤلاء الحجج يتلقون إشارات وتنبيهات من عالم الغيب فتكون أفكارهم وتصرفاتهم غير قابلة للخطأ؛ لأنها مستندة ومستمدة من الذات الإلهية هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أن هؤلاء لهم أسماع وأبصار وأفئدة ليست كالبشر العاديين فهم يرون ويسمعون ما لا نستطيع سمعه، أو أن الإمام عليه السلام يقصد السمع والرؤية المعنوية البعيدة للأمور التي لا يستطيع البشر العاديون إدراكها، وهذا ما نستشفه في قوله عليه السلام السابق: (عباد ناجاهم في فكرهم وكلمهم في ذات عقولهم، فاستصبحوا بنور يقظة في الأسماع والأبصار والأفئدة).

القاعدة الوقائية الأخرى التي يثقف لها أمير المؤمنين عليه السلام لا تختلف عن القاعدة السابقة، بل هي من جنسها ومعناها لكن بألفاظ أخرى وترتيب آخر، وهذا إن عني شيئاً فإنه يعني حرص الإمام عليه السلام على ضمان سلامة عامة الناس من ناحية، وتركيز هذه القاعد في الأذهان من ناحية أخرى، كونها هي السبيل الوحيد للنجاة وتدارك الانحراف إلى اليمين والشمال، لهذا أعاد الإشارة إليه، فيقول عليه السلام

(١) ينظر: لسان العرب ابن منظور، ٥/ ٤٤؛ الرازي، مختار الصحاح، ص٢٥٥.

في هذا السياق واصفاً الغافلين: ((...**إِنِّي أُحَذِّرُكُمْ، وَ نَفْسِي، هَذِهِ الْمَنْزِلَةَ. فَلْيَنْتَفِعِ امْرُؤٌ بِنَفْسِهِ، فَإِنَّمَا الْبَصِيرُ مَنْ سَمِعَ فَتَفَكَّرَ، وَنَظَرَ فَأَبْصَرَ، وَانْتَفَعَ بِالْعِبَرِ، ثُمَّ سَلَكَ جَدَداً وَاضِحاً**[١] **يَتَجَنَّبُ فِيهِ الصَّرَّعَةَ فِي الْمَهَاوِي**[٢]**، وَالضَّلَالَ فِي الْمَغَاوِي**[٣] **وَلَا يُعِينُ عَلَى نَفْسِهِ الْغُوَاةَ بِتَعَسُّفٍ فِي حَقٍّ، أو تَحْرِيفٍ فِي نُطْقٍ، أو تَخَوُّفٍ مِنْ صِدْقٍ**))[٤].

فالجدد الواضح هو الطريق المستقيم، ومن انحرف عنه ولو باليسير انصرع في مهواه وضل في مغواه؛ لأن الطريق الوسطى هي الجادة واليمين والشمال مزلة ومضلة توجبان الصرعة في المهاوي والضلال في المغاوي[٥]، ومن ثم فإن الإمام عليه السلام ذكر أن من يتبع الطريق المستقيم المعتدل يتجنب الانحراف والانزلاق[٦]

---

(١) الجدد: الأرض الصلبة المستوية، ابن منظور، لسان العرب، ٣/ ١٠٩.

(٢) المهواة: موضع في الهواء مشرف ما دونه من جبل ونحوه، ويقال: هوى يهوي هويانا، ورأيتهم يتهاوون في المهواة إذا سقط بعضهم في إثر بعض، والهاوية والهوة كل وهدة عميقة وما لا يدرك قعره، ينظر: الفراهيدي، العين ٤/ ١٠٥.

(٣) أرض مغواة أي مضلة، وواحدتها مغواه، وهي حفرة تحفر للذئب ليتم اصطياده، ولهذا قيل لكل مهلكة مغواة، ابن منظور، لسان العرب، ١٥/ ١٤١؛ الزبيدي، تاج العروس، ٢٠/ ٣٢.

(٤) نهج البلاغة، ص٣١٢.

(٥)ينظر: بيهقي خراساني، معارج نهج البلاغة، ص٢٤٩-٢٥٠؛ البحراني، شرح نهج البلاغة (الكبير)، ٣/ ٢٤٢؛ الموسوي، شرح نهج البلاغة، ٢/ ٤٨٨؛ مغنية، في ظلال نهج البلاغة، ٢/ ٣٨٠؛ الخوئي، منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، ٩/ ٢١٢-٢١٣؛ دخيل، شرح نهج البلاغة، ١٣-١٤/ ٦٥؛ عبد الزهراء الخطيب، مصادر نهج البلاغة وأسانيده، ٢/ ٣٤١؛ عبدة، شرح نهج البلاغة، ٢/ ٥٥؛ المحمودي، نهج السعادة، ٢/ ٢٤٨.

(٦) هناك حديث يُروى عن الرسول محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) في هذا المعنى؛ إذ يقول (صلى الله عليه وآله وسلم): (ضرب الله مثلا صراطا مستقيما وعلى جنبتي الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة، وعلى باب الصراط داع يقول: يا أيها الناس ادخلوا الصراط جميعا ولا تتفرجوا وداع يدعو من جوف الصراط، فإذا أراد يفتح شيئا من تلك الأبواب قال: ويحك لا تفتحه، فإنك إن تفتحه،

وهذا التوظيف لا يعدو عن كونه قاعدة وقائية يضعها الإمام عليه السلام لتجنب الخطر والعدول عن الجادة إلى الطريق المستقيم الذي يأمن معه أن العاقبة تكون له لا عليه.

و إن الإمام عليه السلام لم ينسَ التثقيف لوقاية الإنسان من سيطرة الآخرين الفكرية ومن الانزلاق في دوامة الجهل عن طريق جانبي الإفراط والتفريط في الجهل المتعمد والشهوات وأمّا اتباع القاعدة الوقائية فهو استخدام العلم والعقل وتحكيمه في كل الأمور كونه هو الوسط والاعتدال؛ إذ قال عليه السلام: ((**عِبَادَ الله، لَا تَرْكَنُوا إلى جَهَالَتِكُمْ، وَ لَا تَنْقَادُوا لِأَهْوَائِكُمْ، فإن النَّازِلَ بِهَذَا الْمَنْزِلِ نَازِلٌ بِشَفَا جُرُفٍ هَارٍ، يَنْقُلُ الرَّدَى عَلَى ظَهْرِهِ مِنْ مَوْضِعٍ إلى مَوْضِعٍ، لِرَأْيٍ يُحْدِثُهُ بَعْدَ رَأْيٍ؛ يُرِيدُ أن يُلْصِقَ مَا لَا يَلْتَصِقُ، وَ يُقَرِّبَ مَا لَا يَتَقَارَبُ! فَالله الله أن تَشْكُوا إلى مَنْ لَا يُشْكِي[لا يبكي] شَجْوَكُمْ، وَ لَا يَنْقُضُ بِرَأْيِهِ مَا قَدْ أَبْرَمَ لَكُم**))[1].

أما فيما يخص رأي الشرّاح، فأشاروا إلى أن عدم الحصول على العلم والركون إلى الجهل والتسليم به والانقياد إلى الأهواء فإنه ستكون النتيجة السقوط والانهيار؛ لأنه يكون كالنازل على جانب جرف هار ضل وهلك، وهذه النتيجة لا تقع على ذات الشخص وحده، بل ينقل الجهل إلى الآخرين، فهو هالك وينقل الهلاك إلى غيره، ساع في الضلال، يريد أن يلصق الأشياء ويجمع بين شتاتها، فالجهال لا يعلمون الأسباب والنتائج وإنما يجمعون بين الجهالات والهوى، لهم كل يوم رأي في التوجيه[2].

تلجه والصراط: الإسلام، والسوران حدود الله تعالى، والأبواب المفتحة: محارم الله تعالى، وذلك الداعي على رأس الصراط: كتاب الله عز وجل، والداعي فوق الصراط: واعظ الله في قلب كل مسلم)، ابن حنبل، مسند أحمد، ٤/ ١٨٣-١٨٤؛ الحاكم النيسابوري، المستدرك، ١/ ٧٣؛ المتقي الهندي، كنز العمال، ١/ ١٨٢.

(١) نهج البلاغة، ص٢١٨-٢١٩.

(٢)ينظر: الكندري البيهقي، حدائق الحقائق في شرح نهج البلاغة، ١/ ٥١١؛ ابن أبي الحديد، شرح

ومع إصابة شرّاح النهج وتوفيقهم في ما تقدم من الشرح لمقصد الإمام عليه السلام إلّا أن كلام الإمام عليه السلام يُفهَم منه جانب آخر؛ إذ إن الجهل والأهواء أو الشهوات هنا تمثل جانب الإفراط والتفريط، والنتيجة الحتمية من الإفراط والتفريط يكون كالنازل بمنزل على حافة الجرف، معرض للسقوط والانهيار في أية لحظة؛ لأنه لم يبنَ على أساس صحيح أو في جادة الطريق المستقيم، ومن ثم فإن الإمام عليه السلام أراد إيصال قضية، وهي أن العقل يكون وسطاً بين الجهل والشهوات اللذاين يخلوان منه، ولكي يتجنب الإنسان السقوط يجب أن يحكم عقله ولا يركن إلى الجهل أو ينقاد إلى الشهوات، وهو ما فات قوله من الشرّاح.

إن ما يفهم من هذا السياق أن الجهل والأهواء مصادر سلبية لا تمت إلى العقل، والاعتدال الميزان الثابت الذي لا يتأرجح مع الرضى، والغضب النزوات والأهواء بصفة بل تقع في خانتي الإفراط والتفريط، كما يقول تعالى واصفاً متبع الهوى: **﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾**[1]، و يشير الإمام عليه السلام إلى مكمن الخطر والانهيار والتطرف والانحراف والجهل والشهوات التي تمنع الإنسان من السمو الروحي والفكري والنفسي، فلا يمكن أن تسمو الروح وتتوسع الآفاق الفكرية مالم تتم الوقاية والتخلص من الجهل والأهواء بالعلم والعقل.

نهج البلاغة، ٧/ ١٦٩؛ البحراني، شرح نهج البلاغة، ٣/ ٢٧؛ الأردبيلي، شرح نهج البلاغة، ص ٩٤(فارسي)؛ الكاشاني، تنبيه الغافلين وتذكرة العارفين، ١/ ٤٩٧-٤٩٨ (فارسي)؛ الأنصاري، شرح نهج البلاغة منظوم، ٢/ ٢٧٧ (فارسي)؛ الشيرازي، توضيح نهج البلاغة، ٢/ ١٥٠-١٥١؛ الموسوي، شرح نهج البلاغة، ٢/ ١٩٣-١٩٤؛ مغنية، في ظلال نهج البلاغة، ٢/ ١١٥؛ دخيل، شرح نهج البلاغة، ٩-١٠/ ٥١-٥٢؛ عبدة، شرح نهج البلاغة، ١/ ٢٠١؛ الجعفري، ترجمة وتفسير نهج البلاغة، ١٨/ ٢١٩ (فارسي).

(١) الكهف / ٢٨.

فضلاً عن أن هناك نتيجة مهمة، وهي أن اتباع طريق الوسط والعدل وهو العلم والعقل لا بد من أن يلازم السلوك، فلا يناقض الفكر السلوك، لأنه بذلك يكون إما مِفرطاً أو مفرِّطاً فيكون، العلم شيئاً، والسلوك شيئاً آخر، كان يكون ذا علم ومتبعاً الشهوات كما جاء في الحديث الشريف ((**من ازداد علماً ولم يزد هدى لم يزد من الله إلّا بُعدا**))[1]، وبهذا لا يكون سبباً للنجاح، بل زيادة في المفاسد وسبباً للهلاك، لذلك لا بد من أن يتلازم اتباع طريق الاعتدال الابتعاد الكلي عن جانبي الإفراط والتفريط، فيلازم الفكر سلوك الإنسان، ويكون جزءاً واحداً، هذا إلى جانب النتيجة الأخرى التي يمكن التوصل لها وهي التأثير الإعلامي السلبي لهؤلاء الجهلة ومتبعي الشهوات في الأفراد والجماعات الأخرى؛ إذ ينقلون المعلومات الخاطئة إلى الآخرين، فيكون كالموبوء ينتقل معه وباؤه إلى كل مكان.

(١) الكاشاني، المحجة البيضاء في تهذيب الأحياء، ١/ ١٢٦؛ المجلسي، بحار الأنوار، ٢/ ٣٧، وورد هذا الحديث بلفظ آخر: (من ازداد علما ولم يزدد في الدنيا زهدا لم يزدد من الله إلّا بعدا)، ينظر: السيوطي، الجامع الصغير، ٢/ ٥٦٤؛ المتقي الهندي، كنز العمال، ١٠/ ١٩٣؛ القاري، شرح مسند أبي حنيفة، ص٩٣.

المبحث الثاني

مسار القواعد الإرشادية

يتناول هذا المبحث مسار القواعد الإرشادية التي يضعها الإمام علي عليه السلام، كي يسمو بالنفس الإنسانية، مانعاً للفساد والانحراف عن طريق برسم الطرق العملية في حياة الناس اليومية، مع العلم أن الإرشاد الذي يقدمه الإمام عليه السلام يختلف عن إرشاد الآخرين، لأن إرشاد الإمام عليه السلام مستمد من إرشاد النبوة ناحية ومستكمل له من ناحية أخرى وهو إرشاد قائم على التوسط والاعتدال والطريق المستقيم، كما يقول تعالى عن حضرة المرشد الأعظم الرسول محمد صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿**وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**﴾[1].

وقد اتسعت دائرة الإرشاد عند الإمام علي عليه السلام وتعددت صوره من أجل بقاء الأمة ضمن المسار الصحيح؛ لأن الوظيفة الإرشادية للإمام عليه السلام لا تختص ببيان طريق الهدى للناس وإنما الوصول بهم إلى الكمال، وهناك فرق شاسع بين من أن يدل على الطريق وبين الأخذ باليد وإيصال السائر إلى الغاية، فنجده في بعض الأحيان يثقف ويرشد من أجل معرفة المعايير والالتزام بها أو قواعد إثبات المؤهل والكفاءة عبر الاحتكام للمعايير العلمية واتباع الآلية المعتمدة، كما في قوله عليه السلام: ((**الْفَقِيهُ كُلُّ الْفَقِيهِ مَنْ لَمْ يُقَنِّطِ النَّاسَ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ، وَلَمْ يُؤْيِسْهُمْ مِنْ رَوْحِ اللهِ وَلَمْ يُؤْمِنْهُمْ مِنْ مَكْرِ اللهِ**))[2].

---

(١) الشورى / ٥٢.

(٢) نهج البلاغة، ص٧٣٧.

ثبَّت الإمام عليه السلام أن صفة الكمال والعلم الفقهي يجب أن تخضع لمعيار وقاعدة وهو التوسط في هداية الناس وإرشادهم، بين أن لا يقنط الفقيه الناس من رحمة الله فيعاجلهم بالعقوبة، وبين أن لا يؤسيهم من العفو، بل يكون متوسطاً في ذلك، فلا غضب ولا رحمة بل المتوسط بينهما، ومن فعل ذلك فهو الفقيه الكامل.

وقد انقسم الشراح في قولهم إلى قسمين:

القسم الأول: أشار إلى أن الفقيه الكامل هو الذي يترك الناس بين الخوف والرجاء؛ إذ إن فهم الفقيه الشريعة ووعايتها وإدراك عمقها ومتطلباتها أن لا يقول: الله كريم، فافعلوا ما شئتم من السيئات، ولا يوصد أبواب الرحمة عنهم ويخوفهم في النار، بل يحثهم على سلوك طريق بين الخوف والرجاء[1].

القسم الثاني: يرى أن الفقيه الكامل في افقه غرضه الأول جذب الناس إلى الله بوجه من الترغيب والترهيب والوعد والوعيد، إذ إن من ضرورته أن لا يقنط الناس من رحمة الله بآيات وعيده ونذارته ولا يؤسيهم بذلك من روحه، لما يلزم اليأس من إغراء العصاة بالمعصية واتباع الهوى، بل أن يكون متردداً بين الرغبة والرهبة[2].

وفي الحقيقة أن أقوال الشراح حتى وإن اختلفت لكنها في حقيقتها وأبعادها تحقق نتيجة واحدة في الرأيين، فالتردد بين الخوف والرجاء كما في الرأي الأول أو

(١) ينظر: الشيرازي، توضيح نهج البلاغة، ٤/ ٢٩٩-٣٠٠؛ الموسوي، شرح نهج البلاغة، ٥/ ٢٦٩؛ عبدة، شرح نهج البلاغة، ٣/ ١٧٠؛ مغنية، في ظلال نهج البلاغة، ٤/ ٢٦٩؛ الخوئي، منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، ٢١/ ١٣٦.

(٢) ينظر: ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٨/ ٢٤٣؛ البحراني، شرح نهج البلاغة (الكبير)، ٥/ ٢٨٥-٢٨٦؛ شرح نهج البلاغة (المتوسط)، ص٥٩٨؛ القمي، شرح حكم نهج البلاغة، ص١٥٥؛ الخوئي، الدرة النجفية، ص٣٦١.

بين الترغيب والترهيب كما في الثاني تؤدي إلى هدف واحد وهو الوسط والتوسط، فلا خوف ولا رجاء، وإنما وسط بينهما، ولا رغبة ولا رهبة، لكنهم لم يشيروا إلى الوسطية في كلامهم على الرغم من أن كلامهم يفهم منه الوسطية أيضاً، وهو ما أراد الإمام عليه السلام إيصاله والتثقيف له والإرشاد إليه، وهي أن القاعدة المعيارية لكمال الفقيه أن يكون متوسطاً بين عدم إيصاد أبواب الرحمة عنهم مهما عصوا ولا يدخلهم الجنة مهما أطاعوا، فلا يأمن خير هذه الأمة عذاب الله ولا يقنطهم من رحمة الله.

في حين نجد أن الإمام عليه السلام في مكان آخر يرشد من أجل تثبيت قاعدة كما في قوله: ((**وَلَا تُرَخِّصُوا لِأَنْفُسِكُمْ، فَتَذْهَبَ بِكُمُ الرُّخَصُ مَذَاهِبَ الظَّلَمَةِ، وَلَا تُدَاهِنُوا فَيَهْجُمَ بِكُمُ الْإِدْهَانُ عَلَى الْمَعْصِيَةِ**))[1]، وفي هذا الكلام تجلى تثبيت القاعدة الإرشادية للإمام عليه السلام وهي ترتكز على عدة مرتكزات:

١. أن الاسترسال في الرخص للنفس والإباحة لها بفعل المحرمات والترويج لها أو الخروج بها(النفس) إلى ما ينبغي الإفراط فيه يؤدي إلى قاعدة ونتيجة حتمية وهي الانحراف والسلوك في سلك الظلمة.

٢. أن المداهنة بإظهار خلاف ما يبطن مجاملة للعاصي وهو تفريط يؤدي إلى قاعدة ونتيجة حتمية وهي المعصية، لأن فيها انحراف عن الاستقامة والنزاهة.

٣. أن التوسط بين الإفراط والتفريط هو المطلوب، فلا يطلق العنان للنفس وراء الشهوات في داخل النفس وذاتها، لكنها في الظاهر توافق العصاة أو مرتكبيها بل التوسط بينهما هو الأسلم.

---

(١) نهج البلاغة، ص١٥٦.

ويرى بعض الشراح أن الإمام عليه السلام في كلامه هذا نهى عن الأخذ برخص المذاهب؛ لأنه لا يجوز للواحد من العامة أن يقلد كلاً من أئمة الاجتهاد فيما خف وسهل من الأحكام الشرعية، ثم وضعوا احتمال أن يكون مقصد الكلام عدم الرخص للنفس في ارتكاب الصغائر والمحقرات من الذنوب[١]، فيما رأى آخرون أن الرخص معناه عدم تساهل الإنسان مع نفسه والإباحة على عمل المحرمات، ويخيل أنها جائزة في الشريعة ويروج بها اتباعه، فإن الإنسان يوحي إلى نفسه بالخير والشر، والنفس تعمل بحسب تلك الإيحاءات، فتسير كما يسير الظالمون في ارتكاب المحرمات وطرقهم العادلة عن العدول، فتجر إلى الانحراف وتدخل مع الظالمين في انحرافهم، كما أن المداهنة والرياء محرمة بذاتها، وأيضاً تقود إلى العديد من المعاصي[٢]. وهذا الرأي صحيح لكنهم فهموا مقصد الإمام عليه السلام الظاهري ولم يتعمقوا في الشرح.

وتارة نجد أن الإمام عليه السلام يثبت مفهوماً لا يبتعد موضوعه عن إرشاد الناس إلى أهميته، وهذا ما نلمسه في قوله عليه السلام: ((**إِذَا وَصَلَتْ إِلَيْكُمْ أَطْرَافُ النِّعَمِ فَلَا تُنَفِّرُوا أَقْصَاهَا بِقِلَّةِ الشُّكْرِ**))[٣]، وبالتأكيد أنه عليه السلام أراد تثبيت مفهوم الشكر وكونه هو الوسط الذي يمنع من الانحراف أو الإفراط والتفريط، ومن ثم فقدان

(١) ينظر: ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ٦/ ٣٥٥؛ عبدة، شرح نهج البلاغة، ١/ ١٤٨.

(٢) ينظر: البحراني، شرح نهج البلاغة، ٢/ ٢٨٣-٢٨٤؛ الخوئي، الدرة النجفية، ص١٣٢؛ الشيرازي، توضيح نهج البلاغة، ٢/ ٨-٩؛ الموسوي، شرح نهج البلاغة، ٢/ ١٤؛ مغنية، في ظلال نهج البلاغة، ١/ ٤٢٦-٤٢٧؛ الخوئي، منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، ٦/ ١٣٢-١٣٣؛ دخيل، شرح نهج البلاغة، ٧-٨/ ١١؛ التستري، بهج الصباغة في شرح نهج البلاغة، ١١/ ٣٤٧-٣٤٨؛ الطباطبائي، مصباح البلاغة في مشكاة الصياغة، ٢/ ٥٥٠؛ عبد الزهراء الخطيب، مصادر نهج البلاغة وأسانيده، ٢/ ١٢١.

(٣) نهج البلاغة، ص٧١٩.

ما تم الحصول عليه، فهو الوسط بين بداية النعم وبين أواخرها، فإذا انحرف عنه فقدت النعمة، فدوام الشكر مستلزم لدوام النعم[١].

ومن ذلك يمكن القول إن كلام الإمام عليه السلام بلور وثبت مفهوم الشكر وفلسفته بمنع الانحراف الذي من نتائجه فقدان النعم سواء كانت مالاً أم جاها أم علماً أم صحةً إلى آخره من النعم، في حين أن الشكر يؤدي إلى نتيجة الحصول على أقصى النعم، قال تعالى: ﴿**لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ أن عَذَابِي لَشَدِيدٌ**﴾[٢]، فكأنما الشكر وسط يربط بين البداية والنهاية، ولا يمكن الاستقامة إلّا معه، وخير مصداق على هذا قوله تعالى عن نبي الله إبراهيم عليه السلام: ﴿**شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**﴾[٣].

وقد توجه الإمام عليه السلام إلى مرحلة أخرى من مراحل تثبيت المفاهيم، وهي بيان مفهوم العدل والجود والأفضلية الوظيفية لهما، والذي نستطيع أن نسميه مفهوم المصلحة الكلية في النظام الكوني والمجتمع البشري، فيقول عليه السلام:عندما سئل أيهما أفضل العدل أم الجود؟ فقال عليه السلام: ((**الْعَدْلُ يَضَعُ الأمور مَوَاضِعَهَا، وَالْجُودُ يُخْرِجُهَا مِنْ جِهَتِهَا، وَالْعَدْلُ سَائِسٌ عَامٌّ، وَالْجُودُ عَارِضٌ خَاصٌّ، فَالْعَدْلُ أَشْرَفُهُمَا وَأَفْضَلُهُمَا**))[٤].

---

(١) ينظر: كيذري بيهقي، حدائق الحقائق في شرح نهج البلاغة، ٢/ ٦٠٥؛ البحراني، شرح نهج البلاغة (الكبير)، ٥/ ٢٤٥-٢٤٦؛ شرح نهج البلاغة (الصغير)، ص٥٨٠؛ البحراني؛ شرح مائة كلمة، ٢/ ٦٣؛ القمي، شرح حكم نهج البلاغة، ص٣٣؛ الخوئي، الدرة النجفية، ص٣٥٤؛ الشيرازي، توضيح نهج البلاغة، ٤/ ٢٦٥؛ الموسوي، شرح نهج البلاغة، ٥/ ٢١٦؛ دخيل، شرح نهج البلاغة، ٣١-٣٢/ ٨٧؛ مغنية، في ظلال نهج البلاغة، ٤/ ٢٢٤-٢٢٥.

(٢) إبراهيم / ٧.

(٣) النحل / ١٢١.

(٤) نهج البلاغة، ص٨٣١.

فالمفهوم الإثباتي الذي دعا له الإمام عليه السلام هو أن العدل أهم وأفضل من الجود على الرغم من أن الجود صفة إيجابية ممدوحة إلّا أن العدل أفضل؛ لأنه المرتبة المتوسطة بين طرفي الإفراط والتفريط، ويعمل عمل القانون الذي يحفظ توازن المجتمع بوضع الأمور مواضعها ولو رفع العدل لطغى أحد الطرفين عن الآخر، ولم يترك الإمام عليه السلام الجواب أو الكلام ناقصاً، بل أحاط بالمفهوم ووضحه من كل جوانبه، فلا تقتصر الأفضلية الوظيفية للعدل بكونه يضع الأمور مواضعها دون طغيان أو انحراف، بل إن تلك الأفضلية تتعلق أيضاً بكون العدل سائساً عاماً أي هو قائد يشمل جميع الأمور الدينية والدنيوية ويشمل جميع الناس، فمن عدل سار عدله على الجميع وشمل كل شيء في حين أن الجود عارض خاص قد يخص ببعض الأفراد، فهو أفضل لعموميته وأشرف لشموله وفائدته لكل الناس[1].

وهذا الكلام يوحي أيضاً بجملة مفاهيم، وهي:

١. القوانين التي يمكن أن تنطبق على العدل والجود، فالعدل يتضمن القانون العام، والجود يتضمن القانون الخاص والاستثنائي أو الطارئ.

٢. التكامل والشمول، وهذه من صفة الاعتدال والتوسط؛ إذ يتمحور فيها صفة التكامل والشمول بينما الجود يخلو من تلك الصفة.

---

(١) ينظر: ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ٢٠/ ٨٥؛ البحراني، شرح نهج البلاغة (الكبير)، ٥/ ٤٥٣؛ الأردبيلي، شرح نهج البلاغة، ص٤٠٣ (فارسي)؛ الكاشاني، تنبيه الغافلين وتذكرة العارفين، ٢/ ٨٢٥ (فارسي)؛ الخوئي، الدرة النجفية، ص٣٩١؛ الموسوي، شرح نهج البلاغة، ٥/ ٥٢١؛ دخيل، شرح نهج البلاغة، ٣٧-٣٨/ ٧٧؛ الشيرازي، توضيح نهج البلاغة، ٤/ ٤٧١؛ مغنية، في ظلال نهج البلاغة، ٤/ ٤٦٩؛ الخوئي، منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، ٢١/ ٥١٢؛ المطهري، في رحاب نهج البلاغة، ص٨٢؛ الجعفري، ترجمة وتفسير نهج البلاغة، ١٩/ ٢٠٣ (فارسي)؛ الشرقي، شرح نهج البلاغة، ص٤٠٨ (فارسي).

٣. التمييز والاختيار للأفضلية الاجتماعية للعدل على الأفضلية الأخلاقية للجود.

وتارة أخرى وجدناه عليه السلام قد اتجه في الإرشاد إلى بلورة المفاهيم التصحيحية لكي تحقق استفادة عظمى وبشكل يلائم بعض الطروحات والأفكار التي تنهج التطبيق السلبي للمفهوم، فسلط الضوء عليها لكي لا نكون ضحية الجهل أولاً، أو لكي تكون المفاهيم مواكبة التغيرات الزمانية والمكانية ثانياً، ومن أهم تلك المفاهيم التي بلورها الإمام علي عليه السلام في قوله في صفة المتقين: ((**فَمِنْ عَلَامَةِ أَحَدِهِمْ أَنَّكَ تَرَى لَهُ قُوَّةً فِي دِينٍ، وَحَزْماً فِي لِينٍ، وَإِيمَاناً فِي يَقِينٍ، وَحِرْصاً فِي عِلْمٍ، وَعِلْماً فِي حِلْمٍ، وَقَصْداً فِي غِنًى، وَخُشُوعاً فِي عِبَادَةٍ، وَتَجَمُّلًا فِي فَاقَةٍ**))[1]، فالمتقون امتلكوا صفة الحزم في لين، أي اتقان الأمور لكن بدون عنف، وكان المعنى أن لا يصير الحزم سبباً للخشونة، فهو في حال حزمه يملك اللين ليس بالغلظ القاسي ولا الجلف الجافي[2]، ومن ثم فهي فضيلة العدل والتوسط في المعاملة والقول والفعل، وهذه كلها من مظاهر الحزم في اللين بحيث تألف وتؤلف وتطبيق صفات ومقتضيات إنسانية الإنسان بالعدل من غير أن ينحرف مفهوم الحزم إلى الهمجية والوحشية أو الرفق إلى الذل والمهانة.

الصفة الأخرى التي يمتلكها المتقون هي القَصْد فِي غِنًى وهي المفهوم التصحيحي الثاني الذي بلوره الإمام علي عليه السلام، فلكي لا يحدث قصور في فهم مفهوم الاقتصاد أو القصد بحيث يأخذ جانب الزهد أو غيره من المفاهيم التي

(١) نهج البلاغة، ص٤٥٧.

(٢) ينظر: ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٠/ ١٥٠؛ البحراني، شرح نهج البلاغة (الكبير)، ٣/ ٤١٩-٤٢٠؛ أنصاريان، شرح نهج البلاغة المقتطف من بحار الأنوار، ٢/ ٣٥٦؛ الموسوي، شرح نهج البلاغة، ٣/ ٣٦٢؛ دخيل، شرح نهج البلاغة، ١٩-٢٠ / ٧٩؛ الخوئي، منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، ١٢/ ١٣٥.

هي في حقيقتها انحراف عن مفهوم القصد أو الاقتصاد، فيشير الإمام عليه السلام إلى أنموذج أمثل في تطبيقه ومسار تطبيقه،إذ إن المتقين من علاماتهم امتلاكهم منهج القصد لكن في غنى، بالمعنى أنهم معتدلون من دون زيادة ولا نقصان[١].

ومن ثم يمكن أن نستخلص نتيجة مفادها أن مفهوم القصد في الغنى أي التوسط والاعتدال من دون إفراط وتفريط بما يتلاءم مع تغير الزمان والمكان وتطورهما حتى يأخذ القصد معناه أو مفهومه، وبهذا فإن الإمام عليه السلام قد بلور مفهوم القصد.

النتيجة النهائية أن الإمام عليًّا عليه السلام قد كوَّن ثقافة الوسطية العاقلة للحيلولة دون التخبط والعشوائية في المفاهيم فضلاً عن الحيلولة دون انحراف مسار سالكيها، فصحح الإمام عليه السلام بعض المفاهيم، وكان مفهوم الشح بالنفس جزءاً منها، إذ يقول عليه السلام في ذلك في وصية لمالك الأشتر: ((**فَامْلِكْ هَوَاكَ، وَ شُحَّ بِنَفْسِكَ عَمَّا لَا يَحِلُّ لَكَ، فإن الشُّحَّ بِالنَّفْسِ [الأنفس] الْإِنْصَافُ مِنْهَا فِيمَا أَحَبَّتْ أو كَرِهَت**))[٢].

إن سماع كلمة الشح غالباً ما يبعث الدماغ بإيعاز بأنها مرادفة للبخل والحرص أو هي في حقيقتها هي البخل والحرص، لكن الإمام عليًّا عليه السلام في النص المتقدم صحح هذا المفهوم بأن الشح بالنفس ليس الحرص أو البخل، بل الشح بالنفس الإنصاف أي التوسط في الحب أو الكره من دون الزيادة أو النقصان في أحدهما، وإنما الوقوف على حد العدل في المحبوب، فلا تكون القيادة إلى الشهوات إلى حد المغالاة فيتم الوقوع في رذيلة الفجور ولا يقود المكروه ويدفعه غضبه إلى طرف التقصير في فضيلة العدل فيقع بذلك في رذيلة الظلم والتهور[٣].

---

(١) ينظر: أنصاريان، شرح نهج البلاغة المقتطف من بحار الأنوار، ٢/ ٣٥٦؛ دخيل، شرح نهج البلاغة، ١٩-٢٠/ ٧٩.

(٢) نهج البلاغة، ص٦٥٠.

(٣) البحراني، شرح نهج البلاغة (الكبير)، ٥/ ١٤١.

و نجد الإمام عليه السلام في أحيان أخر يثقف ويرشد إلى أنماط السلوك أو آداب السلوك والمعاشرة، إذ إن الإمام عليه السلام يرشد إلى فن ممارسة الحياة اليومية بأفضل السلوك وأكثرها رقيّاً وجمالاً وتهذيباً، يظهر احترامه لنفسه واحترامه للآخرين، وفي صلب أخلاق الدين الإسلامي المعتدلة بحيث يكون اتباعها قمة التدين، أو كما وصفها الإمام عليه السلام في صفات المتقين، لأنها تصب في طريق ونتيجة السلوك السليم أو المستقيم الذي لا انحراف فيه أو كما قلنا استعمالها تحت مصطلح الإتيكيت في الوقت الحاضر، فمن حيث المظهر الخارجي ارشد الإمام عليه السلام إلى أن ملبس الإنسان يجب أن لا يكون مبتذلاً ولا مبالغاً فيه، بل التوسط بينهما بحيث يراعي التطور الزماني والمكاني، فيقول عليه السلام في هذا الإطار في خطبته في وصف المتقين (...**وَ مَلْبَسُهُمُ الِاقْتِصَادُ**)[1].

وبخصوص رأي الشراح، فقد كان شرحهم غاية الدقة والصواب، وكان هناك اتفاق بينهم على أن مقصد الإمام عليه السلام هو فضيلة العدل في الملبوس، فلا يلبس ما يلحقه بدرجة المترفين بلبس أجود القماش وأفضله، ولا ما يلحقه بأهل الخسة والدناءة فتكون مبتذلة بالية، بل معتدلة متوسطة بين الأمرين بالتجمل من دون إسراف في الأناقة ولا ابتذال بالمستوى الذي لا يليق[2]، وقد شذ عنهم محمد جواد

(١) نهج البلاغة، ص٤٥٤.

(٢) - ينظر: ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٠/ ١٤١؛ البحراني، شرح نهج البلاغة (الكبير)، ٣/ ٤١٤-٤١٥؛ اللاهيجي، شرح نهج البلاغة، ص١٧٦ (فارسي)؛ الأنصاري، شرح نهج البلاغة منظوم، ٥/ ٦٦ (فارسي)؛ الموسوي، شرح نهج البلاغة، ٣/ ٣٥٧؛ الخوئي، منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، ١٢/ ١١٧؛ الشيرازي، توضيح نهج البلاغة، ٣/ ٢٣٢؛ دخيل، شرح نهج البلاغة، ١٩-٢٠، ٧٣؛ أنصاريان، شرح نهج البلاغة المقتطف من بحار الأنوار، ٢/ ٣٤٩؛ عبد الزهراء الخطيب، مصادر نهج البلاغة وأسانيده، ٣/ ٤٨.

مغنية في القول إن مقصد الإمام عليه السلام بملبسهم الاقتصاد أي يلبسون ثوباً واحداً أو ثوبين بلا مضاهاة أو مباهاة[١].

و أشار الإمام عليه السلام إلى فن الحديث وآداب التصرفات في قوله عليه السلام عندما سئل عن صفات المتقين فقال: (...**مَنْطِقُهُمُ الصَّوَاب**)[٢]، لكي يدور الحديث في فلك الرقي والمنفعة، والفائدة انه عليه السلام قد ثقف ورشد إلى فضيلة العدل المتعلقة باللسان لكي يكون الحديث متصفاً بالصفات السابق، فلا ينبغي السكوت عما يجب أن يقال فيكون مُفرطاً، ولا يقول ما ينبغي أن يسكت عنه فيكون مِفرطاً، بل التوسط في ذلك بين الإفراط والتفريط ووضع كل من الكلام في موضعه المناسب بدون زيادة ولا نقصان لغو أو هذيان[٣].

وبذلك توصلنا إلى نتيجة أن الطريقة المثلى لإتقان فن الحديث واللياقة في الكلام والابتعاد عن العشوائية في إيصال الرسالة إلى الآخرين أن يكون الكلام صواباً متوسطاً ومعتدلاً بين الإفراط والتفريط لا سكوت عما يجب أن يقال ولا قول ما يجب السكوت عنه، كما يقول تعالى في صفة المؤمنين: ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾(٤)، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ لاَ يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾[٥].

---

(١) في ظلال نهج البلاغة، ٣/ ١٦٤.

(٢) نهج البلاغة، ص٤٥٤.

(٣) ينظر: البحراني، شرح نهج البلاغة (الكبير)، ٣/ ٤١٤؛ الخوئي، منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، ١٢/ ١١٦؛ التستري، بهج الصباغة في شرح نهج البلاغة، ١٢/ ٤١٩.

(٤) المؤمنون/ ٣.

(٥) الفرقان/ ٧٢.

وفي الإطار نفسه أيضاً م أرشد الإمام عليه السلام إلى فن الحديث؛ إذ قال عليه السلام: ((**إِنْ صَمَتَ لَمْ يَغُمَّهُ صَمْتُهُ وَإِن ضَحِكَ لَمْ يَعْلُ صَوْتُهُ**))[1]، وهذا الكلام هو كذلك جزء من خطبته في صفة المتقين الذين من صفتهم إن سكت أحدهم فإنه لم يحزن لذلك الصمت، لوضعه كلاً من الكلام في موضعه المناسب لما يستلزم الغم الصمت عما ينبغي من القول وهو صمت في غير موضعه، فلم يسكت لعجز وإنما سكت، لأنه يرى حسن السكوت، فهو على معرفة بمواقع الكلام والسكوت، وإن ضحك فلا يفرط فيرتفع صوته أو يقهقه ولا يفرط بالعبوس، بل يتبسم، ومن ثم فلا يحج به الغيظ ولا يغلبه الهوى ويقهره الشح[2].

ومما مر من أبعاد ونتائج الوسطية في آداب الحديث يمكن أن نخرج بما يأتي:

١. تأصيل ثقافة معينة، وهي الفائدة والقيمة في الحديث إن صح القول، والابتعاد عن العشوائية والحديث اللغوي الذي يخلو من الفائدة.

٢. فنية الحديث ورقيه بالتوسط في السكوت وقت السكوت، والكلام وقت الكلام، وهذا يقي من النتائج السلبية كالندم المتعلق بالإفراط أو التفريط في الصمت أو الكلام.

٣. التوسط والاعتدال في نبرة الصوت أو الملائمة الصوتية تدخل في سلك الآداب

---

(١) نهج البلاغة، ص٤٥٨.

(٢) ينظر: ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٠/ ١٦٠؛ البحراني، شرح نهج البلاغة (الكبير)، ٣/ ٤٢٤؛ التستري، بهج الصباغة في شرح نهج البلاغة، ١٢/ ٤٠٩؛ الموسوي، شرح نهج البلاغة، ٣/ ٣٦٧؛ دخيل، شرح نهج البلاغة، ١٩-٢٠/ ٨٤؛ الخوئي، منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، ١٢/ ١٥٤-١٥٥؛ انصاريان، شرح نهج البلاغة المقتطف من بحار الانوار، ٢/ ٣٥٩؛ الشيرازي، توضيح نهج البلاغة، ٣/ ٢٤٢.

من ناحية والرقي من ناحية ثانية وكلاً من الارتفاع أو الانخفاض العبوس المكفهر أو القهقهة العالية تخرج منها.

وفي موضع الإشارة إلى أهل البيت عليهم السلام من الإمام يوضح فيه كيف أنهم امتلكوا تلك الميزة، وهي الفائدة العلمية والقيمة من الكلام والصمت، ووضع كل منهما في موضعه في قوله عليه السلام: ((**فِيهِمْ كَرَائِمُ الْقُرْآنِ[الايمان]، وَ هُمْ كُنُوزُ الرَّحْمَنِ. إن نَطَقُوا صَدَقُوا، وَ أن صَمَتُوا لَمْ يُسْبَقُوا**))[١].

فهم أعلم الناس بمواقع الكلام والصمت لا أطناب ولا إيجاز[٢]، على الرغم من أن بعض الشرّاح قد أشار إلى أن عدم سبق غيرهم لهم في حال صمتهم، لأنهم يهابون سكوتهم، فلم يجرأ أحد على الكلام فيما سكتوا عنه، فالإنسان إذا علم بوجود أحد أعلم منه في المجلس لا يقدر على الكلام خوفاً منه[٣]، وهذا كلام غير مناسب؛ لأن سكوتهم ليس فيه إفراط أو تفريط حتى لا يجرؤ الآخرون على التكلم في حضرتهم خوفاً منهم، أو لأنه يهابهم، بل صمتهم في موضع لا بد فيه من الصمت، و أن كلامهم في موضع لابد فيه من الكلام، وكما قلنا إننا ليس في موضع المقارنة أو التطبيق؛ لأن أهل البيت عليهم السلام لا يمكن الوصول إليهم من ناحية، ولا يفتقدون تلك الصفة حتى يرشدوا لتطبيقها من ناحية أخرى، بل بيان

(١) نهج البلاغة، ص٣١٥.

(٢)ينظر: كيذري بيهقي، حدائق الحقائق في شرح نهج البلاغة، ١/ ٦٧٥؛ ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ٩/ ١٧٧؛ البحراني، شرح نهج البلاغة، ٣/ ٢٤٩؛ الخوئي، الدرة النجفية، ص١٨٧؛ الموسوي، شرح نهج البلاغة، ٢/ ٤٩٦؛ دخيل، شرح نهج البلاغة، ١٣-١٤/ ٧٢؛ الخوئي، منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، ٩/ ٢٤٠.

(٣) ينظر: الشيرازي، توضيح نهج البلاغة، ٢/ ٣٩٠؛ عبدة، شرح نهج البلاغة، ٢/ ٥٨؛ مغنية، في ظلال نهج البلاغة، ٢/ ٣٨٩.

المصداق من أجل الاقتداء بهم والحذو حذوهم.

وأيضا لا نبتعد عن الجانب نفسه وهو أصالة امتلاك الرسول وأهل البيت عليهم السلام صفة الاعتدال في المنطق، أو كما قلنا فنية الحديث بين الإطناب والإيجاز قال عليه السلام في صفة الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم: ((**وَاجْزِهِ مِنِ ابْتِعَاثِكَ لَهُ مَقْبُولَ الشَّهَادَةِ، مَرْضِيَّ الْمَقَالَةِ، ذَا مَنْطِقٍ عَدْلٍ، وَ خُطْبَةٍ فَصْلٍ**))[1]، فهو صلى الله عليه وآله وسلم ذو منطق عدل مستقيم لا ينحرف إلى الباطل[2].

ومن ثم ففي نهاية المطاف نستدل كيف أن تلك الصفة تجذرت في سلوك الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته عليهم السلام وما قول الإمام عليه السلام فيها إلّا لبيان وتوضيح عظمتهم وعصمتهم وأهليتهم لقيادة الأئمة من ناحية، وللإرشاد لا تباعهم وتثقيف أن المنطق الصواب وصواب المنطق وبعده عن الزيادة والنقصان هو أساس السلوك الإسلامي أو منهج الإسلام الأصيل من ناحية أخرى.

و في الوقت نفسه فإن الإمام عليه السلام يثقف إلى الأنموذج المعاكس والمغاير أي الإفراط والتفريط وعدم وضع الكلام في موضعه، فكما عرفنا أن الإكثار في الكلام ثرثرة وضياع للهيبة، والتفريط فيه انعزالية وشعور بالخيبة، وأن الإكثار في النقاش مراء، والتفريط فيه ضياع للحق، مع الالتفات إلى قضية ومسألة مهمة، وهي أن الزمان أو المكان للنقاش يدخل ضمن الانحراف والمبالغة أو التقصير، فهو محكوم بالمتغيرات الزمانية والمكانية، ومن ثم فهي (المتغيرات الزمانية والمكانية) ضابطة عامة تندرج ضمن الاستقامة والاعتدال والتوسط وعدم مراعاتها تعني انحرافاً؛

(١) نهج البلاغة، ص١٢٤.

(٢) ينظر: البحراني، شرح نهج البلاغة، ٢/ ٢٠٢؛ الشيرازي، توضيح نهج البلاغة، ١/ ٢٨٣؛ دخيل، شرح نهج البلاغة، ٥-٦/ ٤٥؛ الموسوي، شرح نهج البلاغة، ١/ ٤٢٦.

إذ يقول سائل إلى الإمام عليه السلام كيف دفعكم قومكم عن هذا المقام وانتم أحق به؟ فقال: ((**يَا أَخَا بَنِي أَسَدٍ، إِنَّكَ لَقَلِقُ الْوَضِينِ تُرْسِلُ فِي غَيْرِ سَدَدٍ، وَلَكَ بَعْدُ ذِمَامَةُ الصِّهْرِ وَحَقُّ الْمَسْأَلَةِ، وَقَدِ اسْتَعْلَمْتَ فَاعْلَمْ**...))[1] وقبل الولوج لابد من معرفة جملة امور:

١. أن هذا السائل سأل الإمام عليه السلام كما تذكر المصادر وهو في أصعب موقف في صفين[2].

٢. أن قلق الوضين كما في معاجم اللغة وصف للخفة، وقلة الثبات كالحزام إذا كان رخواً، لأن الوضين يشد به الرحل على البعير كالحزام على السراج[3].

٣. أن كلمة سدد من السداد، الاستقامة والصواب والقصد في الأمر والعدل فيه، وهو المسدد المُوَفَّقُ الذي لا يعاب فلا يفرط في إرساله أو تشميره[4].

وما دمنا بصدد الأنموذج المعاكس عندما يكون الحديث في غير محله فإن الإمام عليه السلام قد ثقف هنا لذلك؛ إذ إن هذا السائل من بني أسد فقد الاستقامة في الكلام فأتى بغير الصواب، أي تكلم اعتباطاً من دون تروٍ ومن دون مراعاة محل الكلام، فكان سؤاله غير مستقيم أو معتدل؛ لأنه في غير موضعه في وقت صعب أو لأنه يحتاج إلى وقت أطول وتفصيل أكثر، والوقت لا يتسع لذلك، فهم في محل

(١) نهج البلاغة، ص٣٣٨.

(٢) ينظر: الصدوق، الأمالي، ص٧١٦؛ ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب، ٣/ ١٥.

(٣) ينظر: ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، ٥/ ١٩٩؛ ابن منظور، لسان العرب، ١٣/ ٤٥٠؛ الزبيدي، تاج العروس، ١٨/ ٥٧٦.

(٤) ينظر: الجوهري، الصحاح، ٢/ ٤٨٥؛ ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، ٢/ ٣٥٢؛ ابن منظور، لسان العرب، ٣/ ٢١٠.

معركة لا المكان ولا الزمان مناسب لذلك[١]، وبذلك لا بد من أن يكون السؤال في موقعه ووقته المناسب.

ونجد الإمام عليه السلام يثقف ويرشد إلى طرفٍ آخر من آداب السلوك المتعلقة بالطعام من دون إفراط وتفريط، فيقول في ذلك: ((**كَانَ لِي فِيمَا مَضَى أَخٌ فِي اللهِ، وَكَانَ يُعْظِمُهُ فِي عَيْنِي صِغَرُ الدُّنْيَا فِي عَيْنِهِ. وَكَانَ خَارِجاً مِنْ سُلْطَانِ بَطْنِهِ، فَلَا يَشْتَهِي مَا لَا يَجِدُ، وَلَا يُكْثِرُ إِذَا وَجَدَ، وَكَانَ أَكْثَرَ دَهْرِهِ صَامِتاً، فأن قَالَ بَذَّ الْقَائِلِينَ، وَنَقَعَ غَلِيلَ السَّائِلِينَ... فَعَلَيْكُمْ بِهَذِهِ الْخُلَائِقِ[الاخلاق] فَالْزَمُوهَا وَتَنَافَسُوا فِيهَا، فإن لَمْ تَسْتَطِيعُوهَا فَاعْلَمُوا أن أخذ الْقَلِيلِ خَيْرٌ مِنْ تَرْكِ الْكَثِيرِ**))[٢].

وقد أشار الشرّاح إلى أن مقصد الإمام علي عليه السلام أن لا يكون الإنسان أسيراً لشهواته فلا يهتم بأكلة ومشربه فقط، لذا فلا يشتهي من الأطعمة ما لا يجد فينشغل بالبحث عنها ولا يكثر مما يشتهيه[٣]، وقولهم هذا لا غبار فيه إذا نظرنا

(١) ينظر: الراوندي، منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، ٢/ ١٢٢؛ السرخسي، أعلام نهج البلاغة، ص١٥٤؛ ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ٩/ ٢٤٢؛ البحراني، شرح نهج البلاغة (الكبير)، ٣/ ٢٩٣؛ الأردبيلي، شرح نهج البلاغة، ص١٥٨ (فارسي)؛ الأنصاري، شرح نهج البلاغة منظوم، ٤/ ١٠٨ (فارسي)؛ الخوئي، الدرة النجفية، ص١٩٢؛ الغروي، الأمثال والحكم المستخرجة من نهج البلاغة، ص٩١-٩٢؛ الشيرازي، توضيح نهج البلاغة، ٢/ ٤٤٦؛ الموسوي، شرح نهج البلاغة، ٣/ ٥٨؛ عبدة، شرح نهج البلاغة، ٢/ ٧٩؛ مغنية، في ظلال نهج البلاغة، ٢/ ٤٤٦-٤٤٧؛ دخيل، شرح نهج البلاغة، ١٥-١٦/ ٢٦؛ الجعفري، ترجمة وتفسير نهج البلاغة، ٢٦/ ١٨٦ (فارسي) الخوئي، منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، ١٠/ ٥؛ الشرقي، شرح نهج البلاغة، ص٢٢٥ (فارسي).

(٢) نهج البلاغة، ص٧٩٣-٧٩٤.

(٣) ينظر: الراوندي، منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، ٣/ ٣٨٥؛ ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٩/ ١٨٤؛ البحراني، شرح نهج البلاغة (الكبير)، ٥/ ٣٩٠؛ الموسوي، شرح نهج البلاغة، ٥/ ٤٢٧؛

إلى الكلمات بالمعنى العام أو الظاهر لكن بالمعنى الخاص والدقيق فهو لا يتلاءم مع طروحات ورمزية الإمام عليه السلام؛لأنه يريد وضع ثقافة معينة مفادها أن الإنسان لا يحرم من أطايب الطعام أو يتجنبها، ولكن التعامل معها بروح التوسط والاعتدال، بدليل قول الإمام عليه السلام إن وجد ما يشتهي فهو لن يكثر، مع العلم أن هناك التفاتة جميلة من أنصاريان تصب في المعنى، إذ يرى أن مفاد الكلام يراد به إما الاقتصار على ما دون الشبع أو ترك الإفراط في الأكل أو ترك الإسراف في تجويد المأكول والمشروب[1].

لقد خلق الإمام عليه السلام الوعي الأدبي والصحي بالاعتدال والتوسط في الأكل، إذ إن آداب الطعام بهذه الرؤية الوسطية يتزاوج مع الرؤية والأسلوب النبوي ليكون بذلك منهجاً يستقي معالمه منه؛ إذ يقول الرسول محمد صلى الله عليه وآله وسلم مصداقاً لذلك: **((إياكم وفضول المطعم فإنها تصم القلب بالقسوة وتبطئ بالجوارح عن الطاعة وتصمّ الهمم عن سماع الموعظة...))**[2].

وإن الإمام عليه السلام ذكر الأنموذج المعاكس في قبال هذه الشخصية العظيمة، فيقول عليه السلام: **((أَمَّا إِنَّهُ سَيَظْهَرُ عَلَيْكُمْ بَعْدِي رَجُلٌ رَحْبُ الْبُلْعُومِ، مُنْدَحِقُ الْبَطْنِ، يَأْكُلُ مَا يَجِدُ، وَيَطْلُبُ مَا لَا يَجِدُ، فَاقْتُلُوهُ، وَ لَنْ تَقْتُلُوهُ!))**[3].

الشيرازي، توضيح نهج البلاغة، ٤/ ٤٠٤-٤٠٥؛ دخيل، شرح نهج البلاغة، ٣٥-٣٦/ ٧٣؛ مغنية، في ظلال نهج البلاغة، ٤/ ٣٩١.

(١) شرح نهج البلاغة المقتطف من بحار الأنوار، ٣/ ٤٥٣.

(٢) ابن حمدون، التذكرة الحمدونية، ١/ ٤٢؛ ابن عربي، الفتوحات المكية، ٤/ ٥٤٣؛ الحلي، عدة الداعي ونجاح الساعي، ص١٠٤؛ المجلسي، بحار الأنوار، ٦٩/ ١٩٩.

(٣) نهج البلاغة، ص١٠٨-١٠٩.

وربما كان الوضع والتحول الذي عايشه الإمام عليه السلام بالإسراف والتبذير في موائد الطعام هو الذي جعله يشن حملة التثقيف هذه، وعلى نطاق واسع، جاعلاً من نفسه أنموذجاً قائلاً: ((**وَلَا أَخَذْتُ مِنْهُ إلّا كَقُوتِ أَتَانٍ دَبِرَة...وَ لَوْ شِئْتُ لَاهْتَدَيْتُ الطَّرِيقَ، إلى مُصَفَّى هَذَا الْعَسَلِ، وَلُبَابِ هَذَا الْقَمْحِ، وَنَسَائِجِ هَذَا الْقَزِّ. وَ لَكِنْ هَيْهَاتَ أن يَغْلِبَنِي هَوَايَ، وَيَقُودَنِي جَشَعِي إلى تَخَيُّرِ الْأَطْعِمَةِ- وَلَعَلَّ بِالْحِجَازِ أو الْيَمَامَةِ مَنْ لَا طَمَعَ لَهُ فِي الْقُرْصِ، وَلَا عَهْدَ لَهُ بِالشِّبَعِ، أو أَبِيتَ مِبْطَاناً وَحَوْلِي بُطُونٌ غَرْثَى وَأَكْبَادٌ حَرَّى، أو أَكُونَ كَمَا قَالَ الْقَائِلُ:**

وَ حَسْبُكَ دَاءً أن تَبِيتَ بِبِطْنَةٍ وَ حَوْلَكَ أَكْبَادٌ تَحِنُّ إلى الْقِدِّ))[1]

وكلامه هذا كان موجهًا إلى عامله على البصرة عثمان بن حنيف[2] عندما بلغه انه دعي إلى وليمة، ويمكن القول إن كلامه وأسلوبه في التثقيف في غاية الروعة والدقة، إذ إنه قدَّم الأنموذج لأروع، وربما أن الإمام عليه السلام لا يقصد شخصاً بعينه وهو ابن حنيف إنما ذلك جزء من أسلوب الإمام عليه السلام التثقيفي المؤدي إلى بعث إشارات إلى العقل من أجل البحث والتساؤل من ناحية، أو لكي ينطبق على أكثر من شخصية تمتلك الصفات نفسها على مر الزمان من ناحية أخرى.

ولفت الانتباه إلى قضية النزاهة والشفافية في التعامل مع الآخرين لتنعكس

(١) نهج البلاغة، ص٦٣٢-٦٣٤.

(٢) عثمان بن حنيف الأنصاري الأوسي يكنى أبا عمرو، وقيل أبو عبد الله، شهد أحدا والمشاهد بعدها، واستعمله عمر بن الخطاب على مساحة سواد العراق، فمسحه عامره وغامره فمسحه وقسط خراجه، واستعمله على (عليه السلام) على البصرة فبقى عليها إلى أن قدمها طلحة والزبير مع عائشة في نوبة وقعة الجمل، فأخرجوه منها ثم قدم علي إليها فكانت وقعة الجمل، فلما ظفر بهم علي استعمل على البصرة عبد الله بن عباس، وسكن عثمان بن حنيف الكوفة وبقي إلى زمان معاوية، ابن الأثير، أسد الغابة في معرفة الصحابة، ٣/ ٣٧١.

في الاعتدال، مع العلم أن الانحراف عن الاعتدال في أسلوب ومنهج التعامل مع الآخرين تعني التكبر أو النفاق الذي هو في جوهره انحراف وثغرة في السلوك الإنساني وغياب للنزاهة الفكرية، ومن ثم فإن ذلك دال على وجود تصدع وانهيار في الجانب الأخلاقي والإنصاف والاستقامة في التعامل مع الآخرين، فقال عن المتقين: ((**أَتْعَبَ نَفْسَهُ لِآخِرَتِهِ، وَأَرَاحَ النَّاسَ مِنْ نَفْسِهِ. بُعْدُهُ عَمَّنْ تَبَاعَدَ عَنْهُ زُهْدٌ وَنَزَاهَةٌ، وَدُنُوُّهُ مِمَّنْ دَنَا مِنْهُ لِينٌ وَرَحْمَةٌ. لَيْسَ تَبَاعُدُهُ بِكِبْرٍ وَعَظَمَةٍ، وَلَا دُنُوُّهُ بِمَكْرٍ وَخَدِيعَةٍ**))[1].

فالمتقي عندما يبعد عن الناس ليس لتكبر، وعندما يقترب ليس لمكر وخديعة، قضاء حاجة أو تمرير أمر أو من أجل أن يخدعهم في أمر يريد الحصول عليه أو الوصول إليه[2] بالمعنى لا يبالغ ولا يقصر في العلاقات مع الناس بل إن بعده وقربه يقومان على النزاهة والزهد واللين والرحمة بالنتيجة، فهو معتدل متوسط في علاقته مع الآخرين غير منحرف منافق فيها، مع العلم أن الإمام عليه السلام في كلامه المتقدم قد بلور صيغة تميزية ومقياسًا علميًّا وأثراً اجتماعيًّا للمتقي، وهذه الصيغة وذاك المقياس يتعلقان بالنزاهة والشفافية في التعامل، ولكن في الحقيقة ليس أمراً يخص المتقي؛ لأن منهج الوسطية والاعتدال الذي ينهجه المتقي هو في حقيقته منهج إسلامي يخص كل المسلمين سار عليه المتقي وجعله جزءاً أساسياً في تعاملاته وعلاقاته الاجتماعية.

---

(١) نهج البلاغة، ص٤٥٨-٤٥٩.

(٢) ينظر: البحراني، شرح نهج البلاغة، ٣/ ٤٢٥؛ الأردبيلي، شرح نهج البلاغة، ص١٩٣ (فارسي)؛ الكاشاني، تنبيه الغافلين وتذكرة العرفين، ٢/ ٣١ (فارسي)؛ الموسوي، شرح نهج البلاغة، ٣/ ٣٦٧-٣٦٨؛ دخيل، شرح نهج البلاغة، ١٩-٢٠/ ٨٥؛ الخوئي، منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، ١٢/ ١٥٨؛ الشيرازي، توضيح نهج البلاغة، ٣/ ٢٤٣.

ولعل المعطى الإرشادي للإمام عليه السلام واضح المعالم؛ لأنه يقوم على منهج وأسس علمية سليمة للعلاقات الإنسانية السوية المعتدلة وتأسيس قاعدة إرشادية ثابتة لا يمكن أن تتغير بتغير الزمان، فمهما تغير الزمان تبقى سمة المصلحة والنفاق منطبقة على العلاقات في حال انحرافها عن الاستقامة والاعتدال، ومن ثم فهي صالحة للتطبيق لكل زمان ومكان، وأشار أيضا إلى قضية الوهن أو الفساد في الروابط الاجتماعية والقيم الخلقية الذي هو بدوره ناتج عن انحرافات مرضية إما الكبر أو المكر والخديعة.

وما دمنا بصدد إرشاد الإمام عليه السلام إلى الشفافية والنزاهة في العلاقات والروابط الاجتماعية، فإن الإمام عليه السلام قد أرشد إلى ضابطة أخرى تقوم عليها الروابط الاجتماعية من أجل السيطرة على إسراف غريزة الثأر والانتقام أو غريزة الحب وضبط الرغبات اللا مشروعة، فقال عليه السلام في ذلك: ((**فِي الزَّلَازِلِ وَقُورٌ، وَفِي الْمَكَارِهِ صَبُورٌ، وَفِي الرَّخَاءِ شَكُورٌ لَا يَحِيفُ عَلَى مَنْ يُبْغِضُ، وَلَا يَأْثَمُ فِيمَنْ يُحِب**))[1].

يقول الإمام عليه السلام في هذا النص إن من صفات المتقي أنه لا يحيف على من يبغض ولا يأثم فيمن يحب، أي استقامة سلوكه ووسطيته بين التقصير أو التهور، فلا يفرط في الحب فيذهب به مذهب الإثم باتباع الهوى مع قيام الداعي وهو المحبة، ولا يفرط في العدوانية فتذهب به مذهب الحيف على الرغم من قيام الداعي وهو البغض لمن يتمكن من ظلمه، بل يكون عقلانيًّا معتدلاً واضعاً الأمور موضعها ملطفاً المشاعر عن طريق الضابط الأساس وهو الاعتدال[2].

(١) نهج البلاغة، ص٤٥٨.

(٢) ينظر: الراوندي، منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، ٢/ ٢٧٩؛ البحراني، شرح نهج البلاغة، ٣/ ٤٢٣؛ الموسوي، شرح نهج البلاغة، ٣/ ٣٦٦؛ الشيرازي، توضيح نهج البلاغة، ٣/ ٢٤٢؛ دخيل، شرح نهج البلاغة، ١٩-٢٠ / ٨٣؛ الخوئي، منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، ١٢/ ١٥١-

وفي المحصلة النهائية يمكن القول إن الإمام عليه السلام قد ثقف إلى قضية الاعتدال في الميول النفسانية وسلوك المسلك الوسطي فيها من غير انحراف والفلسفة من ذلك؛ لكي لا يؤدي الحب إلى الإثم، ولا يؤدي البغض إلى الظلم، وهذا التثقيف ليس اعتباطياً بل قضية ممنهجة وموثقة في الدستور الإلهي، إذ يقول تعالى في كتابه: ﴿**وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى إلا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى**﴾[1]، كما يقول: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ للهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أو الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ أن يَكُنْ غَنِيًّا أو فَقِيرًا فَاللهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أن تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أو تُعْرِضُوا فأن اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا**﴾[2]، فالاعتدال جزء من الطبائع والأخلاق، والانحراف عدول عنها إلى الهوى.

وفي نهاية المطاف لكي يضع الإمام عليه السلام منهج الوسطية الإرشادية في نصابه الطبيعي بعد أن وضح المعايير وثبت القواعد والمفاهيم وصحح أخرى، بحيث تؤدي إلى النتيجة الحتمية أو النتيجة الإيجابية وهي الاستقامه في كل ما يخص الإنسان من أجل الحد ونفي سلبيته وضمان إيجابيته، فإن الإمام عليّاً عليه السلام قد قدم المصادر أو المناهج التي يمكن أن يستقى منها الاعتدال والاستقامة وتكون بمنزلة المسار المعتدل الذي يسار فيه بعيداً عن الانحراف في قوله عليه السلام: ((**الْعَمَلَ الْعَمَلَ، ثُمَّ النِّهَايَةَ النِّهَايَةَ، وَالِاسْتِقَامَةَ الِاسْتِقَامَة،... قَالَ الله تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ إلا تَخَافُوا وَ لا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾**[3]، وَقَدْ قُلْتُمْ: ﴿**رَبُّنَا اللهُ**﴾، **فَاسْتَقِيمُوا عَلَى كِتَابِهِ، وَعَلَى مِنْهَاجِ أَمْرِهِ،**

١٥٢؛ عبد الزهراء الخطيب، مصادر نهج البلاغة وأسانيده، ٣/ ٥٢.

(١) المائدة / ٨.

(٢) النساء / ١٣٥.

(٣) فصلت / ٣٠.

وَعَلَى الطَّرِيقَةِ الصَّالِحَةِ مِنْ عِبَادَتِهِ[طاعته] ثُمَّ لَا تَمْرُقُوا مِنْهَا، وَلَا تَبْتَدِعُوا فِيهَا، وَلَا تُخَالِفُوا عَنْهَا. فإن أهل المُرُوقِ مُنْقَطَعٌ بِهِمْ عِنْدَ اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ))[1].

فلكي تحدث الاستقامة على الطريق السليم الصحيح من دون انحراف إلى ذات اليمين أو ذات الشمال، فلا بد من العمل بالكتاب الكريم وما جاء به، فهو يهدي للتي هي أقوم، فيحلل حلاله ويحرم حرامه، وعلى منهاج الرسول محمد ﷺ، وعلى الطريق الصالحة من عبادته، وهذه الطريقة المستقيمة ومصادرها لا يجوز للإنسان أن يخرج منها ولا يجوز أن يبتدع فيها بالزيادة أو النقصان، كما لا يجوز أن يخالف هذه الطريقة المستقيمة إلى غيرها من السنن المبتدعة أو الأمور الباطلة، لأن نتيجة من تركها أو ابتدع فيها أو خالفها انقطاع وسائل وصوله إلى الله، فلا يجدون بلاغا يوصلهم إلى المقصد، فمع فوات جزء من الشرط ينتفي المشروط لا محالة[2].
ومما مر يمكن القول:

من كلام الإمام عليه السلام خرجنا بنتيجة مفادها أن السير في طريق الاستقامة والوسطية محكوم بمصادر ثلاثة لا غيرها، وهي: كتاب الله، ومنهاج أمره، والطريق الصالح من عبادته.

إن المصادر التي تؤدي إلى الاستقامة (كتاب الله، والمنهاج، والطريقة الصالحة من عبادته) هي بمنزلة نص إلهي لا يمكن التلاعب فيه بالزيادة أو النقصان ولا يجوز مخالفته واتباع غيره.

---

(١) نهج البلاغة، ص٣٧٤-٣٧٥.

(٢) ينظر: البحراني، شرح نهج البلاغة، ٣/ ٣٥٧-٣٥٩؛ الموسوي، شرح نهج البلاغة، ٣/ ١٤٥-١٤٧؛ الخوئي، منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، ١٠/ ٢٠٦-٢٠٧؛ الشيرازي، توضيح نهج البلاغة، ٣/ ٦٢-٦٥.

إن هناك عملية ترابط بين المصادر الثلاثة بحيث إن الخروج أو مخالفة أحدها يؤدي إلى الانحراف.

إن سياق كلام الإمام عليه السلام يوحي إلى أن الإقرار بالربوبية والوحدانية على مرحلتين واحدة مكملة للأخرى؛ الأولى مرحلة الإقرار القولي، أو يمكن القول الإقرار القلبي، وهو القول: ربنا الله، والمرحلة الثانية الإقرار الفعلي، أو العملي بكتاب الله، وسنة نبيِّه، والطريق الصالحة من عبادته.

إن كلام الإمام عليه السلام في النص هو تفسير للآية القرآنية التي جاءت توضح نتائج ومميزات اتباع الطريق المستقيم من النعم المادية والمعنوية كالفوز بالجنة أو الطمأنينة من الخوف والحزن.

إن الإمام الرضا عليه السلام قد فسر الاستقامة بالولاية[1]، وبذلك قد يقول قائل: إن هناك اختلافاً بين الأئمة عليهم السلام، وحاشاهم من ذلك، بل إن الإمامة وقبول قيادة أئمة أهل البيت (عليهم السلام) هي جزء من الاستقامة وبقاء خط التوحيد والوسطية بين الانحراف والضلال، لكن الإمام عليّاً عليه السلام قد عبر عنها بتعبير غير مباشر، وهي الطريقة الصالحة من عبادته، ودليل ذلك القول أن الطريقة الصالحة من عبادته هي الإمامة، بدليل توثيق الإمام عليه السلام النص ذاته بكونها (كتاب الله، ومنهاج أمره، والطريق الصالحة من عبادته) نص لا يمكن الابتداع فيه أو مخالفته أو المروق عنه.

(١) عن محمد بن فضيل قال: سألت الإمام الرضا عليه السلام عن معنى قوله: (ثم استقاموا) قال: هي والله ما أنتم عليه، الطبرسي، تفسير مجمع البيان، ٩/ ٢١؛ المازندراني، شرح أصول الكافي، ٧/ ٧٤؛ المجلسي، بحار الأنوار، ٦/ ١٤٨.

المبحث الثالث

الغاية الفلسفية وطابعها الشمولي

لا ريب في أن الوسطية أو مشتقاتها كالقصد والكفاف ليست منهجاً أو مساراً فحسب، بل هي فلسفة ولعل الفلسفة التي وراء ذلك تتعلق بغاية حتمت تلك الفلسفة، وعلى هذا الأساس فإن الغايات الفلسفية التي ذكرناها لا تمنع من أن هدف الإمام عليه السلام هو هدف توعوي تثقفي بيد أن طبيعة الكلام هو ذو بعد فلسفي إن صح القول، يتعلق مثلاً ببيان مكانة بعض الأشخاص، أو سبب الدعاء لهم، ومصداق ذلك مثلاً ترحم الإمام علي عليه السلام على خباب بن الأرت[1] في قوله: ((**يَرْحَمُ اللهُ خَبَّابَ بْنَ الْأَرَتِّ، فَلَقَدْ أَسْلَمَ رَاغِباً، وَهَاجَرَ طَائِعاً، وَقَنِعَ بِالْكَفَافِ، وَرَضِيَ عَنِ اللهِّ، وَعَاشَ مُجَاهِداً**))[2].

---

(١) اختلف في نسبه، فقيل خزاعي، وقيل تميمي، وهو الأكثر، وهو خباب بن الأرت بن جندلة بن سعد بن خزيمة بن كعب بن سعد بن زيد مناه بن تميم، يكنى أبا عبد الله، وقيل أبو محمد، وقيل أبو يحيى، وهو عربي لحقه سباء في الجاهلية فبيع بمكة، وقيل هو حليف بني زهرة وقال ابن منده وأبو نعيم قيل هو مولى عتبة بن غزوان وقيل مولى أم أنمار بنت سباع الخزاعية وهي من حلفاء بني زهرة، فهو تميمي النسب خزاعي الولاء زهري الحلف، لأن مولاته أم أنمار كانت من حلفاء عوف بن عبد عوف بن عبد الحارث بن زهرة والد عبد الرحمن بن عوف، وهو من السابقين الأولين إلى الإسلام، وممن يعذب في الله تعالى كان سادس ستة في الإسلام، قال مجاهد: أول من أظهر إسلامه رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وأبو بكر وخباب وصهيب وبلال وعمار وسمية أم عمار فأما رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فمنعه الله بعمه أبي طالب، وأما أبو بكر فمنعه قومه وأما الآخرون فألبسوهم أدراع الحديد ثم صهر وهم في الشمس فبلغ منهم الجهد ما شاء الله أن يبلغ من حر الحديد والشمس، قال الشعبي: إن خبابا صبر ولم يعط الكفار ما سألوا، فجعلوا يلصقون ظهره بالرضف حتى ذهب لحم متنه، مرض ومات ودفن بالكوفة سنه ٣٧هـ، ابن الأثير، أسد الغابة في معرفة الصحابة، ٢/ ٩٨-١٠٠.

(٢) نهج البلاغة، ص٧٢٩.

فالإمام عليه السلام هنا يترحم على خباب مع العلم أن الإمام عليه السلام كان أعلم الناس بالناس، لذلك فإن ترحمه على أحد الأشخاص ليس من باب الترحم الذي يقوله الناس في حق الشخص المتوفى، بل إن هناك غاية فلسفية حتمت ذلك، وهذه الغاية الفلسفية هي جملة الأوصاف والمميزات التي كان يمتلكها خباب بن الأرت، ومن ضمن هذه الأوصاف قناعته بالكفاف، أي بما يكفيه من غير زيادة أو نقصان، وهذه فضيلة من أعظم الفضائل؛ لأنه بهذا قدَّم خباب خدمة كبرى للمعوزين، ولو أخذ الزائد عن حاجته وتمتع به لكان قد حرم المحتاجين قوتهم الضروري[1]، بالمحصلة النهائية أن خباباً كان ممن يطبق منهج الوسطية والاستقامة بالكفاف في كل وسيلة وحاجة من الحاجات الدنيوية.

لذا يمكن القول إن النتائج ذات الأبعاد الفلسفية تهدف في الغالب للإثبات والاستدلال على الغاية والأهمية من الوسطية، وهو الأمر الذي نلاحظه في خطب الإمام علي عليه السلام التي تقع في هذا الإطار، فيقول عليه السلام في صفة الضال: (وَهُوَ فِي مُهْلَةٍ مِنَ اللهِ يَهْوِي مَعَ الْغَافِلِينَ، وَيَغْدُو مَعَ الْمُذْنِبِينَ، بِلَا سَبِيلٍ قَاصِدٍ، وَلَا إِمَامٍ قَائِدٍ.)[2]، فالغاية الفلسفية من السبيل القاصد المتوسط الذي يوصل إلى المطلوب والإمام القائد هو الوقاية من الضلال، فسقوط الضال وانخراطه في سلك الغافلين والمذنبين بسبب جهله وغفلته وفقدانه طريق الاستقامة الذي يوصله إلى الله وسبيل الحق والإمام القائد الذي يأخذ بيده ويهديه، ومن ثم فمن غفل عن

(١) ينظر: مغنية، في ظلال نهج البلاغة، ٤/ ٢٤٣؛ الموسوي، شرح نهج البلاغة، ٥/ ٢٣٩؛ دخيل، شرح نهج البلاغة، ٣٣-٣٤/ ٢١؛ الشيرازي، توضيح نهج البلاغة، ٤/ ٢٨١؛ الشرقي، شرح نهج البلاغة، ص٤٣٥ (فارسي).

(٢) نهج البلاغة، ص٣١٢.

سبيل الهدى وسلك سبيل الضلال باء بغضب من الله[١].

ويبدو أن تفسير هذا الأمر أصبح واضحاً، فمنهج القصد منهج في غاية الأهمية، وترتَّب على تاركه نتائج خطيرة، لذا لا غرابة عندما نجد أن الإمام عليه السلام يدعو على أصحابه عندما حثهم على الجهاد في غارات أهل الشام على أطراف العراق عند انقضاء صفين(٣٧هـ) والنهروان(٣٨هـ)[٢]، فرفضوا الخروج إلاّ أن يخرج معهم، فقال عليه السلام: ((**مَا بَالُكُمْ! لَا سُدِّدْتُمْ لِرُشْدٍ! وَلَا هُدِيتُمْ لِقَصْدٍ! أَفِي مِثْلِ هَذَا يَنْبَغِي لِي أن أَخْرُجَ؟ وَ إِنَّمَا يَخْرُجُ فِي مِثْلِ هَذَا رَجُلٌ مِمَّنْ أَرْضَاهُ مِنْ شُجْعَانِكُمْ وَذَوِي بَأْسِكُم**...))[٣]، إذ يقول الإمام عليه السلام لهم عندما أصروا على خروجه لا سددتم لرشد، ولا اهتديتم لقصد، أي لا يوفقوا للصواب ولا يهتدوا للقصد، الأمر المعتدل الذي لا يميل إلى اليمين أو الشمال[٤]، مع العلم أن الإمام عليه السلام هنا لا يقصد الدعاء بمعنى الدعاء السلبي، بل هو في حقيقته بيان لواقع الحال في صيغة الدعاء والقصد منه اللوم والتوبيخ[٥]، فلم يهتدوا بإصرارهم على الرشاد وطريق الوسط والاستقامة الذي ليس فيه إفراط أو تفريط بل كانوا منحرفين عنه.

وبذلك نخلص إلى نتيجة أن القصد الذي هو الاعتدال والتوسط والاستقامة

(١) ينظر: البحراني، شرح نهج البلاغة، ٣/ ٢٣٩؛ الشيرازي، توضيح نهج البلاغة، ٢/ ٣٨٠؛ مغنية، في ظلال نهج البلاغة، ٢/ ٣٧٩-٣٨٠؛ الموسوي، شرح نهج البلاغة، ٢/ ٤٨٧؛ دخيل، شرح نهج البلاغة، ١٣-١٤/ ٦٤؛ الخوئي، منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، ٩/ ٢١٠-٢١١.

(٢) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ٧/ ٢٨٧؛ وينظر: الثقفي، الغارات، ٢/ ٦٢٥-٦٢٦.

(٣) نهج البلاغة، ص٢٥٥- ٢٥٦.

(٤) ينظر: الخوئي، منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، ٨/ ١٠٥؛ أنصاريان، شرح نهج البلاغة المقتطف من بحار الأنوار، ١/ ٤٠٥؛ الشيرازي، توضيح نهج البلاغة، ٢/ ٢٣٦؛ الموسوي، شرح نهج البلاغة، ٢/ ٣١٨؛ دخيل، شرح نهج البلاغة، ١١-١٢/ ٣٠.

(٥) مغنية، في ظلال نهج البلاغة، ٢/ ٢٠٩-٢١٠.

لـه غايـة فلسـفية تتعلـق بالنتائـج الإيجابيـة المترتبـة عليـه للحيلولـة دون الانحـراف أو الشـطط في كل أمـر مـن الأمـور الدنيويـة والآخرويـة، مـع العلـم أن القصـد هـو أمـر وسـنة نبويـة؛ إذ يقـول الإمـام عليه السلام مصداقـاً لذلـك في وصـف النبـي محمـد صلى الله عليه وآله وسلم: ((**وَأَشْـهَدُ أن لَا إِلَـهَ إلا اللهُ، شَـهَادَةَ إِيمَانٍ وَ إِيقَـانٍ، وَإِخْـلَاصٍ وَإِذْعَـان. وَأَشْـهَدُ أن مُحَمَّـداً عَبْـدُهُ وَرَسُـولُهُ، أَرْسَـلَهُ وَأَعْـلَامُ الْهُـدَى دَارِسَـةٌ، وَمَنَاهِـجُ الدِّيـنِ طَامِسَـةٌ، فَصَـدَعَ بِالْحَـقِّ؛ وَنَصَـحَ لِلْخَلْـق، وَهَـدَى إلى الرُّشْـدِ، وَأَمَـرَ بِالْقَصْـدِ، صَـلَّى اللهُ عَلَيْـهِ وَ آلِـهِ وَ سَـلَّم**))[1].

فيشـير هـذا النـص إلى أن الرشـد والقصـد مـن مرتكـزات السـنة النبويـة، وأول مضامـين هـذا المرتكـز أن الرشـد قـام عـلى الهدايـة، في حـين أن القصـد قـام عـلى الأمـر مـن النبـي صلى الله عليه وآله وسلم أن يسـلك النـاس سـلوكاً وسـطاً في جميـع أمورهـم؛ لأنـه السـبيل الموصـل إلى مرضـاة الله[2].

وعـلى العمـوم فـإن مـا يريـد الإمـام عليه السلام توضيحـه هـو أن القصـد والاقتصـاد ليس منهجـاً وسـطياً فحسـب، وإنـما هـو أمـر صـادر مـن النبـي صلى الله عليه وآله وسلم، ويقـول الرسـول صلى الله عليه وآله وسلم في هـذا الإطـار: ((**لسـمت الحسـن والتـؤدة والاقتصـاد جـزء مـن أربعـة وعشريـن جـزأ مـن النبـوة**))[3]، كـما يلاحـظ تـرادف مفـردتي الرشـد والقصـد في كلام الإمـام عليه السلام؛ إذ نلاحـظ في النـص المذكـور آنفـاً عنـد دعائـه عـلى أصحابـه: ((**لَا سُـدِّدْتُمْ لِرُشْـدٍ! وَ لَا هُدِيتُـمْ لِقَصْـدٍ**)) وفي ذكـره للنبـي صلى الله عليه وآله وسلم :((**وَهَـدَى إلى الرُّشْـدِ، وَأَمَـرَ بِالْقَصْـدِ**))، وربـما هـذا الـترادف؛ لأنهـا متكافئـة في المعنـى، لكـن الرشـد اكثـر فضاضـاً بحيـث ينطبـق عـلى

(١) نهج البلاغة، ص٤٦٣.

(٢) ينظـر: الشـيرازي، توضيـح نهـج البلاغـة، ٣/ ٢٥١؛ الموسـوي، شرح نهـج البلاغـة، ٣/ ٣٨٢؛ الخوئـي، منهـاج البراعـة في شرح نهـج البلاغـة، ١٢/ ١٨٩؛ دخيـل، شرح نهـج البلاغـة، ١٩-٢٠/ ٩٥.

(٣) الترمذي، سنن الترمذي، ٣/ ٢٤٧؛ المتقي الهندي، كنز العمال، ٣/ ٢٤٧.

السداد والهدى والبر والتقوى والقصد في حين أن القصد ينطبق على الاعتدال والتوسط فقط.

أيضاً من جملة ما يمكن الخروج به أن كلام الإمام عليه السلام قد جاء لتشخيص مظاهر الفساد التي كانت سائدة قبل البعثة المحمدية وامتيازات البعثة التي تمثلت بالنصيحة والهداية والأمر، فضلاً عن ذلك يقول الإمام علي عليه السلام للإمام الحسن عليه السلام: ((**وَأن أَبْتَدِئَكَ بِتَعْلِيمِ كِتَابِ اللهَّ عَزَّ وَجَلّ وَتَأْوِيلِهِ، وَ شَرَائِعِ الْإِسْلَامِ وَأَحْكَامِهِ، وَحَلَالِهِ وَحَرَامِهِ، لَا أُجَاوِزُ ذَلِكَ بِكَ إلى غَيْرِهِ. ثُمَّ أَشْفَقْتُ أن يَلْتَبِسَ عَلَيْكَ مَا اخْتَلَفَ النَّاسُ فِيهِ مِنْ أَهْوَائِهِمْ وَآرَائِهِمْ مِثْلَ الَّذِي الْتَبَسَ عَلَيْهِمْ، فَكَانَ إِحْكَامُ ذَلِكَ عَلَى مَا كَرِهْتُ مِنْ تَنْبِيهِكَ لَهُ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ إِسْلَامِكَ إلى أَمْرٍ لَا آمَنُ عَلَيْكَ بِهِ الْهُلْكَةَ، وَرَجَوْتُ أن يُوَفِّقَكَ اللهُ فِيهِ لِرُشْدِكَ، وَأن يَهْدِيَكَ لِقَصْدِكَ، فَعَهِدْتُ إِلَيْكَ وَصِيَّتِي هَذِه**))[1].

وكما قلنا في مرات عديدة أن الكلام موجه إلى الإمام الحسن عليه السلام، (ولكن المقصود به غيره، وفي هذا النص المتقدم يقول فيه الإمام علي عليه السلام للإمام الحسن عليه السلام أن يوفقك الله لرشدك وأن يهديك لقصدك، أي وسط الطريق لا يمينه ولا شماله المائلان عن الحق[2]، والفلسفة من هذا الكلام أن الرشد والقصد جزآن ومرتكزان أساسيان من مرتكزات النبوة والإمامة، فهما منهجان في غاية الأهمية، لما يترتب عليهما من نتائج خطيرة على المستويات كافة.

(١) نهج البلاغة، ص٥٩٥.

(٢) الشيرازي، توضيح نهج البلاغة، ٤/ ٥١.

الخاتمة

وفي نهاية الدراسة يمكن الخروج بجملة من النتائج:

١. لقد أظهر الإمام علي عليه السلام الجانب المميز من الوسطية الذي يتمثل بكونها منهجاً عملياً وعلمياً متكاملاً وليس موقفاً أو كلمات هذا من ناحية وأظهر جانب الموازنة في الأمور كلها من ناحية أخرى.

٢. أن الوسطية ليست مصطلحاً حديثاً طارئاً على المجتمع الإسلامي، بل هي سمة الأمة المسلمة، ومن المصطلحات الواردة في القرآن الكريم والسنة النبوية استعمل بكثرة في الخطابات المعاصرة.

٣. المحافظة على المفهوم الاعتدالي المتوازن للحيلولة دون تحوله إلى مفهوم تطرف وتكفير وما ينتج من آثار كارثية على المستويات كافة.

٤. تشخيص الإمام عليه السلام للعديد من المظاهر التي تعد انحرافا عن الوسطية وانطباعها بطابع الغلو والتطرف.

٥. المسارات الوسطية التي ذكرها الإمام عليه السلام فيها الدعائم الأساسية لثبات كيان المجتمع ووضع أسس الدولة المتحضرة.

٦. أن المسارات الوسطية التي ذكرها الإمام عليه السلام قابلة للثبات والاستمرار، ومواكبة لحياة الإنسان في كل زمان ومكان.

٧. يتنوع المفهوم الوسطي بتنوع الأطر والجوانب الحياتية كافة، فهو ليس مفهوماً عبادياً بل هو منهج حياة.

٨. أن المفهوم الوسطي هو مفهوم تكاملي ليس فيه ميل مطرد نحو اليمين أو

الشمال، وإنما هو حالة الموازنة التي تتناغم مع الآثار البناءة.

٩. تشخيص المفهوم الوسطي في فكر الإمام علي عليه السلام وسلوكه عكس ذلك التطابق بين الجانب النظري والعملي، وعدَّ هذا المفهوم كمنهج للأئمة عليهم السلام.

١٠. ربط الإمام عليه السلام بين الإيمان والوسطية بشكل يفضي إلى نوع من العلاقة الطردية بين الأمرين، فكلما كان الإنسان متوازناً ومتوسطاً في عبادته ومعاملاته كان قريباً من الإيمان والعكس صحيح في حال التطرف لأحد الجانبين.

المصادر والمراجع

***القرآن الكريم**

*** ابن الأثير، أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري ت(٦٠٦هـ / ١٢٠٩م).**

- النهاية في غريب الحديث، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي، محمود محمد الطناحي، ط٤، قم – إيران، ١٣٦٤ -١٩٦٣م.

***ابن الأثير، عز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم ت (٦٣٠هـ- ١٢٣٢م).**

أسد الغابة في معرفة الصحابة، د.ط، بيروت – لبنان، د.ت.

*** أحمد بن حنبل، الإمام أبو عبد الله أحمد بن محمد الشيباني الوائلي ت (٢٤١هـ/ ٨٥٥م).**

- المسند، دار صادر، بيروت، د.ت.

*** الأزدي، الفضل بن شاذان ت (٢٦٠هـ / ٨٧٤م).**

- الإيضاح، تحقيق: السيد جلال الدين الحسيني الأرموي، مؤسسة انتشارات وچاب دانشگاه تهران، ١٣٦٣ش.

***الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد ت (٥٠٢هـ/ ١١٠٨م).**

المفردات في غريب القرآن، ط٢، د.م، ١٤٠٤هـ.

*** البحراني، كمال الدين ميثم بن علي ت(٦٩٩هـ/ ١٢٩٩م).**

- اختيار مصباح السالكين شرح نهج البلاغة (المتوسط)، المصحح محمد الهادي الأميني، ط١، مجمع البحوث الإسلامية، مشهد، ١٤٠٨هـ.

- شرح نهج البلاغة (الكبير)، ط٢، د.م،١٤٠٤هـ.

شرح مائة كلمة، تحقيق: مير جلال الدين الحسيني، قم،١٣٩٠هـ.

*** البخاري، إسماعيل بن إبراهيم ت (٢٥٦هـ / ٨٧٠م).**

صحيح البخاري، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، طبع بالأوفست عن طبعة دار الطباعة العامرة بإستنبول، ١٤٠١هـ – ١٩٨١م.

***البرسي، رجب بن محمد بن رجب ت(بعد ٨١٣هـ / ١٤١٠م).**

مشارق أنوار اليقين في أسرار أمير المؤمنين (عليه السلام)، تحقيق: علي عاشور، ط١، بيروت، ١٤١٩هـ–١٩٩٩م.

* البرقي: أحمد بن محمد بن خالد ت(٢٧٤هـ/ ٨٨٧م).

–المحاسن، تحقيق: جلال الدين الحسيني، طهران،١٣٧٠هـ ٠

***البغدادي، عبد القاهر بن طاهر بن محمد ت (٤٢٩ هـ / ١٠٤٠م).**

الفَرق بين الفِرق، اعتنى بها وعلق عليها: الشيخ إبراهيم رمضان، الأولى، بيروت – لبنان، ١٤١٥ - ١٩٩٤ م.

***البغوي،الحسين بن مسعود بن محمد ت (٥١٦ هـ/ ١١٢٢م).**

معالم التنزيل في تفسير القرآن(تفسير البغوي)، تحقيق خالد بن عبد الرحمن العك، دار المعرفة –بيروت، د.ت.

*** البيهقي، أحمد بن الحسين ت(٤٥٨هـ / ١٠٦٦م).**

– السنن الكبرى، دار الفكر، د.ت.

*** بيهقي خراساني، ظهير الدين أبو الحسن علي ت(٥٥٢هـ / ١١٥٧م).**

معارج نهج البلاغة، المصحح محمد تقي دانش، ط١، قم، ١٤٠٩هـ.

*** الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى السلمي ت(٢٧٩هـ / ٨٩٢م).**

السنن، تحقيق: عبد الوهاب عبد اللطيف، ط٢، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٤٠٣هـ – ١٩٨٣م.

*** ابن تيمية، تقي الدين أحمد ت(٧٢٨هـ / ١٣٢٨م).**

مجموعة الفتاوى، طبعة الشيخ عبد الرحمن بن قاسم، د.ت.

*** الثقفي، أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الثقفي الكوفي ت(٢٨٣هـ / ٨٩٦م).**

الغارات، تحقيق: السيد جلال الدين الحسيني الأرموي المحدث، طبع على طريقة أوفست في مطابع بهمن، د.ت.

*** ابن الجوزي، أبو الفتح عبد الرحمن بن علي ت (٥٩٧ هـ / ١٢٠٠م).**

الموضوعات، تحقيق: عبد الرحمن محمد عثمان، ط١، المكتبة السلفية – المدينة المنورة، ١٣٨٦هـ.

*** الجوهري، أبو نصر إسماعيل بن حمّاد ت (٣٩٣هـ / ١٠٠٣ م).**

الصحاح، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطا، ط٤، دار العلم للملاين، بيروت، ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م.

*** الحاكم النيسابوري، أبو عبد الله ت (٤٠٥هـ / ١٠١٤م).**

المستدرك على الصحيحين، بإشراف يوسف عبد الرحمن المرعشلي، دار المعرفة، بيروت، د.ت.

***ابن حجر العسقلاني، أبو الفضل أحمد بن علي العسقلاني الشافعي ت (٨٥٢هـ / ١٤٤٨م).**

فتح الباري في شرح صحيح البخاري، ط٢، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، د.ت.

*** ابن أبي الحديد، عز الدين عبد الحميد بن هبة الله المعتزلي ت(٦٥٦هـ / ١٢٥٨م).**

شرح نهج البلاغة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط١، قم، ١٣٧٨هـ.

الروضة المختارة (شرح القصائد العلويات السبع)، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات – بيروت، د.ت.

***الحلي، أحمد بن فهد ت(٨٤١هـ- ١٤٣٧م).**

عدة الداعي ونجاح الساعي، تحقيق: أحمد الموسوي القمي، مكتبة وجداني –قم، د.ت.

***الحلي، جمال الدين أبو منصور الحسين بن يوسف ت(٧٣٦هـ-١٣٣٥م).**

نهاية الإحكام في معرفة الأحكام، تحقيق: مهدي الرجائي، ط٢، قم، ١٤١٠ه.

***الحلي، حسن بن سليمان ت(ق)٩.**

مختصر بصائر الدرجات، ط١، قم، ١٣٧٠هـ- ١٩٥٠م.

*** ابن حمدون، أبو المعالي محمد بن الحسن بن محمد بن علي البغدادي ت(٥٦٢هـ –١١٦٧م.**

التذكرة الحمدونية، تحقيق: إحسان عباس، ط١، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٩٦م.

***ابن خزيمة، أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة السلمي ت(٣١١هـ/ ٩٢٤م).**

صحيح بن خزيمة، تحقيق: محمد مصطفى الأعظمي، ط٢، المكتب الإسلامي، ١٤١٢هـ-١٩٩٢م.

*** الدارمي، أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل ت(٢٥٥هـ / ٨٦٩م).**

سنن الدارمي، مطبعة الاعتدال، دمشق، طبع بعناية محمد أحمد دهمان، ١٣٤٩هـ.

*** أبو داود، سليمان بن الأشعث السجستاني ت(٢٧٥هـ / ٨٨٩م).**

سنن أبو داود، تحقيق: سعيد محمد اللحام، ط١، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٠ هـ-١٩٩٠م.

*** الذهبي، أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز ت(٧٤٨هـ/ ١٣٧٤م).**

سير أعلام النبلاء، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة بيروت – لبنان،

١٤١٣هـ – ١٩٩٣م.

*** الرازي، فخر الدين ت(٦٠٦هـ / ١٢١٠م).**

تفسير الرازي، ط٣، د.ت، د.م.

*** الرازي، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر ت(٧٢١هـ/ ١٣٦٩م).**

مختار الصحاح، تحقيق أحمد شمس الدين، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م.

*** الراوندي، ضياء الدين أبو الرضا فضل الله بن علي الحسني ت (٥٧١ هـ/ ١١٧٤م).**

النوادر، تحقيق: سعيد رضا علي عسكري، ط١، دار الحديث، قم، د.ت.

*** الراوندي، قطب الدين أبو الحسين بن هبة الله قطب الدين ت (٥٧٣هـ/ ١١٧٧م).**

الخرائج والجرائح، تحقيق: مؤسسة الإمام المهدي(عليه السلام)،الطبعة الأولى،قم، ١٤٠٩هـ.

منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، تحقيق: السيد عبد اللطيف الكوهكمري، قم ١٤٠٦هـ.

*** الزبيدي، أبو الفيض محمد مرتضى بن محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني ت (١٢٠٥هـ/ ١٧٩١م).**

تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: علي شيري، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٤١٤هـ – ١٩٩٤م.

*** الزمخشري، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر ت(٥٣٨هـ / ١١٤٣م).**

الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، شركة مكتبة مصطفى ألبابي الحلبي وأولاده، مصر، ١٣٨٥ – ١٩٦٦م.

***الزيعلي، الحافظ أبو محمد عبد الله بن يوسف ت(٧٦٢هـ/ ١٣٨٨م)**

تخريج الأحاديث والآثار، تحقيق: عبد الله بن عبد الرحمن السعد، ط١، لرياض - دار ابن خزيمة، ١٤١٤هـ.

*** السرخسي، المحقق علي بن ناصر ت (القرن السادس الهجري – القرن الثالث عشر الميلادي).**

أعلام نهج البلاغة، تحقيق: عزيز الله عطارد، ط١، مؤسسة الطبع والنشر، طهران، ١٤١٥هـ.

*** ابن سعد، أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع الزهري ت(٢٣٠هـ/ ٨٤٤م).**

الطبقات الكبرى، دار صادر، بيروت، د.ت.

***السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر ت(٩١١هـ/ ١٥٠٥م).**

الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير، ط١، دار الفكر – بيروت، ١٤٠١هـ- ١٩٨١م.

*** ابن شهر آشوب: محمد بن علي ت(٥٨٨هـ/ ١١٩٢م).**

مناقب آل أبي طالب، تحقيق: لجنة من أساتذة النجف الأشرف، النجف، ١٣٧٦هـ.

***الشهرستاني، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبو بكر أحمد ت (٥٤٨هـ).**

الملل والنحل، تحقيق محمد سيد كيلاني، دار المعرفة - بيروت – لبنان، د.ت.

*** الصدوق، أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن موسى بن بابويه القمي ت (٣٨١هـ/ ٩٩١م).**

الأمالي، تحقيق: قسم الدراسات الإسلامية مؤسسة البعثة، قم، ط١، مركز الطباعة والنشر في مؤسسة البعثة، ١٤١٧هـ.

التوحيد، تحقيق: السيد هاشم الحسيني الطهراني، بدون طبعة، قم، د.ت.

الخصال، تحقيق: علي أكبر غفاري، بدون طبعة، قم، ١٤٠٣هـ.

عيون أخبار الرضا(عليه السلام)، تحقيق: الشيخ حسين الأعلمي، ط١، بيروت، ١٤٠٤هـ- ١٩٨٤م.

الهداية في الأصول والفروع، تحقيق: لجنة التحقيق التابعة لمؤسسة الإمام الهادي (عليه السلام)، ط١، قم، ١٤١٨هـ.

*** الصفار: أبو جعفر محمد بن الحسن بن فروخ ت(٢٩٠هـ/ ٩٠٢م).**

بصائر الدرجات الكبرى في فضائل آل محمد،تحقيق: الحاج ميرزا محسن،طهران، ١٤٠٤هـ.

***الصنعاني، عبد الرزاق بن همام ت(٢١١هـ/ ٨٢٦هـ).**

تفسير القرآن، تحقيق: مصطفى مسلم محمد، ط١، الرياض، ١٤١٠هـ-١٩٨٩م.

*** ابن طاوس: رضي الدين علي(٦٦٤هـ/ ١٢٦٥م).**

إقبال الأعمال، تحقيق: جواد القيومي، ط١، قم، ١٤١٤هـ ٠

*** الطبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد اللخمي ت(٣٦٠هـ / ٩٧١م).**

المعجم الكبير، تحقيق: حمدي عبد المجيد السلفي، ط٢، دار إحياء التراث، د.ت.

***الطبرسي، أحمد بن علي ت (٥٦٠هـ / ١١٦٤م).**

الاحتجاج، تحقيق: محمد باقر الخراسان، دار النعمان، النجف الأشرف، ١٣٨٦هـ – ١٩٦٦م.

*** الطبرسي، أبو علي الفضل بن الحسن بن الفضل ت(٥٤٨ هـ / ١١٥٣م).**

تفسير مجمع البيان، تحقيق وتعليق: لجنة من العلماء والأخصائيين، ط١، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، هـ ١٤١٥ – ١٩٩٥م.

مكارم الأخلاق، ط٦، منشورات الشريف الرضي، ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢.

*** الطبري، عماد الدين أبو جعفر ت(ق٦هـ/ ق١٢م).**

بشارة المصطفى لشيعة المرتضى، تحقيق: جواد القيومي، ط١، قم،١٤٢٠هـ.

*** الطبري، محمد بن جرير بن يزيد ت(٣١٠هـ / ٩٢٣م).**

تاريخ الطبري، تصحيح: لجنة من العلماء الأجلاء، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، د.ت.

جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تقديم: الشيخ خليل الميس ضبط وتوثيق وتخريج صدقي جميل العطار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٥هـ – ١٩٩٥م.

*** الطريحي، فخر الدين بن محمد بن علي بن أحمد بن طريح الرماحي النجفي ت(١٠٨٥هـ / ١٦٧٤م).**

مجمع البحرين، تحقيق: السيد أحمد الحسيني، ط٢، ناشر مرتضوي، طهران، ١٣٦٢ش.

*** الطوسي: محمد بن الحسن بن علي بن الحسين(٤٦٠هـ/ ١٠٦٧م)**

الأمالي، تحقيق: قسم الدراسات الإسلامية – مؤسسة البعثة، ط١، قم،١٤١٤هـ.

تهذيب الأحكام، تحقيق: حسن الموسوي الخرسان، ط٣، طهران،١٣٦٤ش ـ .

مصباح المتهجد، ط١، بيروت، ١٤١١هـ – ١٩٩١م.

*** ابن عربي، محمد بن علي ت(٦٣٨ هـ/ ١٢٤٠م).**

الفتوحات المكية، دار صادر – بيروت، د.ت.

*** ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله الدمشقي الشافعي ت(٥٧١هـ / ١١٧٦م).**

تاريخ مدينة دمشق، تحقيق: علي شيري، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، ١٤١٥هـ – ١٩٩٥م.

***علي بن أبي طالب (عليه السلام)، الإمام ت(٤٠هـ / ٦٦٠م).**

نهج البلاغة، ضبط صبحي الصالح، ط٣، دار الحديث للطباعة والنشر، ١٤٢٦ق – ١٣٨٤ش.

*** علي بن الحسين (عليه السلام)، الإمام ت(٩٤هـ / ٧١٢م٠)**

- الصحيفة السجادية، تحقيق، ط١، قم، ١٤١٨هـ.

***العياشي، أبو النظر محمد بن مسعود بن عياش السلمي ت ٣٢٠ه.**

تفسير العياشي، تحقيق: هاشم الرسولي، المكتبة العلمية الإسلامية – طهران، د.ت.

*** الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد (ت٥٠٥هـ / ١١١١م).**

إحياء علوم الدين، بيروت، د:ت

*** ابن فارس، أبو الحسين أحمد ت(٣٩٥هـ / ١٠٠٤م).**

معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الإعلام الإسلامي، ١٤٠٤هـ.

*** الفتال النيسابوري: أبو جعفر محمد بن الحسن(ت٥٠٨هـ/ ١١١٤م)**

روضة الواعظين، تحقيق: محمد الخراسان، قم، د.ت.

*** الفراهيدي، الخليل بن أحمد ت(١٧٥هـ / ٧٩١م).**

العين، تحقيق: مهدي المخزومي، إبراهيم السامرائي، ط٢، مؤسسة دار الهجرة، قم، ١٤٠٩هـ.

***القاري، علي ت(١٠١٤/ ١٦٠٥م).**

شرح مسند أبي حنيفة، دار الكتب العلمية – بيروت، د.ت.

***القاضي عياض،أبو الفضل عياض اليحصبي ت(٥٤٤هـ -١١٤٩م).**

الشفا بتعريف حقوق المصطفى، د.ط، بيروت –لبنان، ١٤٠٩هـ-١٩٨٨م.

*** القاضي النعمان، أبو حنيفة محمد بن منصور ت(٣٦٣هـ/ ٩٧٣م).**

دعائم الإسلام، تحقيق: آصف بن علي، القاهرة، ١٣٨٣هـ - ١٩٦٣ م.

***القالي، إسماعيل بن القاسم ت(٣٥٦هـ/ ٩٦٧م).**

الأمالي، منشورات المكتب الإسلامي، د.ت.

*** القرطبي: أبو عبدالله محمد الأنصاري ت(٦٧١هـ / ١٢٧٢م).**

الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد عبد العليم، بيروت،١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

*** القمي، أبو الحسن علي بن إبراهيم ت نحو(٣٢٩هـ / ٩٤٠م).**

تفسير القمي، تحقيق: طيب الموسوي الجزائري، ط٣، قم، ١٤٠٤هـ.

*** الكاشاني، محمد محسن ت (١٠٩١ هـ / ١٦٨٠م).**

التفسير الصافي، تحقيق: حسين الأعلمي، ط٢، قم، ١٤١٦هـ.

المحجة البيضاء في تهذيب الأحياء، تحقيق: علي أكبر الغفاري، ط٢، قم، د.ت.

الوافي، تحقيق: مركز التحقيقات الدينية والعلمية في مكتبة الإمام أمير المؤمنين علي (عليه السلام)، ط١،اصفهان، ١٤١٢هـ.

*** ابن كثير،عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر القريشي الدمشقي ت(٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م).**

تفسير القرآن العظيم، تحقيق وتقديم: يوسف عبد الرحمن المرعشلي، مكتبة دار التراث، القاهرة، ١٤١٢ - ١٩٩٢ م.

*** الكفوي، أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني ت(١٠٩٤هـ-١٦٨٣م).**

الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، إعداد الطبع ووضع الفهارس: د. عدنان درويش-محمد المصري، ط٢، بيروت، ١٤١٩هـ -١٩٩٨م.

*** الكليني، أبو جعفر محمد بن يعقوب بن إسحاق الرازي ت(٣٢٩هـ / ٩٤٠م).**

الكافي، تحقيق: علي أكبر الغفاري،ط٣، دار الكتب الإسلامية، طهران، ١٣٨٨هـ.

*** الكندري البيهقي، الشيخ أبو محمد بن الحسين ت (القرن السادس الهجري / القرن الثاني عشر الميلادي).**

حدائق الحقائق في شرح نهج البلاغة، المصحح: عزيز الله العطاردي، ط١، مؤسسة نهج البلاغة نشر عطارد، قم، ١٤١٦هـ.

*** ابن ماجة، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني ت(٢٧٣هـ / ٨٨٧م).**

سنن بن ماجة، تحقيق وتعليق وترقيم: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، د.ت.

*** المازندراني، محمد صالح ت(١٠٨١هـ/ ١٦٧٠م).**

شرح أصول الكافي، تحقيق: الميرزا أبو الحسن الشعراني، تصيح السيد علي عاشور، ط١، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٢١هـ- ٢٠٠٠م.

*** المتقي الهندي، علاء الدين علي المتقي بن حسام الدين ت(٩٧٥هـ / ١٥٦٧م).**

كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، ضبط وتفسير الشيخ بكري حياني، تصحيح وفهرسه: الشيخ صفوة السقا، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٩هـ – ١٩٨٩م.

* المجلسي،، محمد باقر بن محمد تقي بن مقصود علي الأصفهاني ت(١١١١هـ / ١٦٩٨م).

بحار الأنوار، ط٢، دار إحياء التراث العربي، مؤسسة الوفاء، بيروت، ١٤٠٣هـ – ١٩٨٣م.

مرآة العقول في شرح أخبار آل الرسول، تحقيق: مرتضى العسكري – هاشم الرسولي، ط٢، طهران ١٤٠٤هـ.

*** مسلم بن الحجاج بن مسلم النيسابوري ت(٢٦١هـ / ٨٧٥م).**

صحيح مسلم، دار الفكر، بيروت، د.ت.

*** المشغري، جمال الدين يوسف حاتم بن فوز ت(٦٦٤هـ/ ١٢٦٥م).**

الدر النظيم، مؤسسة النشر التابعة لجماعة المدرسين – قم، د.ت.

*** ابن المغازلي، أبو الحسن علي بن محمد ت(٤٨٣ هـ/ ١٠٩٠م).**

مناقب علي بن أبي طالب (عليه السلام)، ط١، مطبعة سيمان إشارات سبط النبي، ١٤٢٦-١٣٨٤ش.

*** المفيد، أبو عبد الله محمد بن محمد بن النعمان بن عبد السلام العكبري ت(٤١٣هـ / ١٠٢٢م).**

الأمالي، تحقيق: حسين أستاد ولي، وعلي أكبر الغفاري، ط٢، دار المفيد للطباعة والنشر، بيروت، ١٤١٤هـ – ١٩٩٣م.

*** المناوي، محمد عبد الرؤوف ت(١٠٣١هـ/ ١٦٢١م).**

فيض القدير شرح الجامع الصغير من أحاديث البشير النذير، تحقيق: أحمد عبد السلام، ط١، بيروت، ١٤١٥هـ-١٩٩٤م.

*** ابن منظور، أبو الفضل محمد بن مكرم بن علي الأنصاري الرويفعي ت(٧١١هـ / ١٣١١م).**

لسان العرب، نشر أدب الحوزة، قم، ١٤٠٥هـ.

***النباطي، علي بن يونس العاملي ت(٨٧٧هـ/ ١٤٧٢م).**

الصراط المستقيم إلى مستحقي التقديم، تحقيق: محمد الباقر البهبودي، ط١، المكتبة المرتضوية لإحياء الآثار الجعفرية، ١٣٨٤هـ.

*** النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن علي بن شعيب بن علي بن سنان بن بحر بن دينار ت(٣٠٣هـ / ٩١٥م).**

السنن الكبرى، تحقيق: عبد الغفار سليمان البنداري وسيد كسروي حسن، ط١، بيروت – لبنان، ١٤١١ - ١٩٩١ م.

سنن النسائي، ط١، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٣٤٨هـ – ١٩٣٠م.

*** نصر بن مزاحم المنقري ت(٢١٢هـ / ٨٢٧م).**

وقعة صفين، تحقيق: عبد السلام هارون، ط٢، المؤسسة العربية الحديثة للطبع، مطبعة المدني، مصر، ١٣٨٢هـ.

*** الهيثمي، أبو الحسن نور الدين علي بن أبو بكر بن سليمان المصري ت(٨٠٧هـ / ١٤٠٤م).**

مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، دار الكتب العلمية، بيروت، طبع بإذن حسام الدين مؤسس مكتبة القدسي، ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م.

*** أنصاريان، علي ت١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م.**

شرح نهج البلاغة المقتطف من بحار الأنوار، المصحح: مرتضى حاج علي فرد، ط١، مؤسسة الطباعة والنشر وزارة الثقافة، طهران، ١٤٠٨.

*** الأمين، محسن.**

أعيان الشيعة، تحقيق: تحقيق وتخريج: حسن الأمين، د.ط، بيروت – لبنان، د.ت.

*** بازمول، محمد بن عمر بن سالم.**

أدلة الوسطية من القرآن العظيم والسنة النبوية، جامعة أم القرى، د.ت.

*** البحراني: السيد هاشم ت ١١٠٧هـ-١٦٩٥م.**

مدينة المعاجز، تحقيق: عزة الله المولائي، ط١، قم،١٤١٣هـ ٠

*** البروجردي:آقا حسين الطباطبائي ت١٣٨٣هـ- ١٩٦٣م.**

جامع أحاديث الشيعة، قم، ١٣٩٩هـ٠

***بيضون، لبيب.**

تصنيف نهج البلاغة، ط٣، مركز النشر التابع لمكتب الإعلام الإسلامي، قم، ١٤١٧.

*** التستري، الشيخ محمد تقي ت١٣٦٧هـ/ ١٩٤٧م.**

بهج الصباغة في شرح نهج البلاغة، ط١، دار أمير كبير للنشر، طهران، ١٤١٨.

*** جابر، حميد سراج.**

الفكر الاختباري في نهج البلاغة، ط١، دار البصائر للطباعة والنشر، بيروت – لبنان، ١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م.

*جرداق، جورج.

روائع نهج البلاغة، ط٢، مركز الغدير للدراسات الإسلامية، ١٤١٧.

***حسيني الشيرازي، السيد محمد١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م.**

توضيح نهج البلاغة، دار تراث الشيعة، طهران، د.ت.

*** الحكيم، محمد باقر ت١٤٢٥هـ.**

دور أهل البيت (عليه السلام) في بناء الجماعة الصالحة، ط٢، مركز الطباعة والنشر للمجمع العالمي لأهل البيت (عليه السلام)، ١٤٢٥هـ.

*** الحكيم، محمد تقي.**

الأصول العامة للفقه المقارن، ط٢، مؤسسة آل البيت (عليهم السلام) للطباعة والنشر، ١٩٧٩م.

*** حنون، د.مفيد.**

أساسيات علم وظائف الأعضاء، ط١،عمان، ١٩٩٩.

*** الخراساني، السيد محمد تقي النقوي القايني.**

مفتاح السعادة في شرح نهج البلاغة، مكتبة المصطفوي، طهران، د.ت.

*** الخطيب، عبد الزهراء الحسيني.**

مصادر نهج البلاغة وأسانيده، ط٤، دار الزهراء، بيروت، ١٤٠٩.

*** الخوئي، إبراهيم بن حسين.**

الدرة النجفية، تم التأليف ١٢٩١ق، د.ت.

*** الخوئي، حبيب الله الهاشمي.**

منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، المصحح: السيد إبراهيم الميانجي، ط٤، المكتبة الإسلامية، طهران، ١٤٠٠.

*** دخيل، علي محمد علي.**

شرح نهج البلاغة، دار المرتضى، بيروت، ١٤٠٦هـ.

*** رزاق، خليل.**

العرفان الشيعي رؤى في مرتكزاته النظرية ومسالكه العملية، تقرير بحث للسيد كمال الحيدري، التنضيد: محمد البدري، المراجعة اللغوية: عبد الرضا عبد الحسين، ط١، قم، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.

*** الريشهري، محمد.**

موسوعة الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) في الكتاب والسنة والتاريخ، تحقيق: مركز بحوث دار الحديث وبمساعدة السيد محمد كاظم الطباطبائي، السيد محمود الطباطبائي، ط٢، دار الحديث للطباعة والنشر، قم، ١٤٢٥هـ.

* الزركلي، خير الدين ت١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.

الأعلام، ط٥، دار العلم للملاين، بيروت، ١٩٨٠م.

*** السبحاني، جعفر.**

لب الأثر في الجبر والقدر تقريرا لمحاضرات آية الله العظمى السيد الإمام الخميني، ط١، قم، ١٤١٨هـ.

*** شمس الدين، محمد جعفر.**

دراسات في العقيدة الإسلامية، د.م، د.ت.

* **شمس الدين، محمد مهدي.**

دراسات في نهج البلاغة، ط٢، دار الزهراء للطباعة والنشر، بيروت، ١٣٩٢هـ – ١٩٧٢م.

* **الصلابي، علي محمد.**

الوسطية في القرآن الكريم، ط١، القاهرة، ١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م.

* **الطباطبائي، حسن الميرجهاني.**

مصباح البلاغة في مشكاة الصياغة، د.م، ١٣٨٨هـ.

* **الطباطبائي، محمد حسين.**

الميزان في تفسير القرآن، مؤسسة النشر الإسلامي لجماعة المدرسين، قم، د.ت.

* **الطبرسي، حسين النوري ت ١٣٢٠هـ.**

مستدرك الوسائل ومستنبط المسائل، تحقيق: مؤسسة آل البيت (عليهم السلام) لإحياء التراث، ط١،بيروت، ١٤٠٨هـ-١٩٨٧م.

* **عبده، الشيخ محمد.**

نهج البلاغة، المصحح: محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة الاستقامة، القاهرة، د.ت.

* **العجلوني، إسماعيل بن محمد ت ١١٦٢م.**

كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس، ط٣، بيروت، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.

* **ابن عجيبة، أحمد بن محمد بن المهدي ت ١٢٢٤هـ-١٨٠٩م.**

البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، تحقيق: أحمد عبدالله القرشي، د.ط، القاهرة، ١٤١٩هـ-١٩٩٩م.

* الغروي، محمد.

الأمثال والحكم المستخرجة من نهج البلاغة، مؤسسة النشر الإسلامي، قم، ١٤٠٧هـ.

* **القرضاوي، يوسف.**

كلمات في الوسطية الإسلامية ومعالمها، ط٢، مصر، ٢٠١١م.

* **القزويني، محمد كاظم.**

شرح نهج البلاغة، مطبعة النعمان، النجف الأشرف، ١٣٧٨ هـ – ١٩٥٩م.

* **قطب، محمد.**

في ظلال القرآن، ط٣٢، مصر، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٣م.

* **القمي، عباس بن محمد رضا ت١٣٥٩هـ / ١٩٤٠م.**

شرح حكم نهج البلاغة، مؤسسة علوم نهج البلاغة، ط١، طهران، ١٤١٧هـ.

* **مجيلس، عادل عبد الله.**

الله والإمام بحوث فكرية في الأسلوب الإلهي لإقامة الدين في الأرض، ط١، بغداد، ٢٠٠٦.

* **محمد، حامد حفني داود.**

نهج الحياة، ط١، طهران، د.ت.

* **المحمودي، محمد باقر.**

نهج السعادة في مستدرك البلاغة، تصحيح: عزيز آل طالب، ط١، مؤسسة الطباعة والنشر وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي، ١٤١٨هـ.

* **المطهري، مرتضى.**

في رحاب نهج البلاغة، ط١، بيروت، ١٤١٣هـ.

* **مغنية، محمد جواد.**

في ظلال نهج البلاغة، ط٣، دار العلم للملايين، بيروت، ١٤٠٠هـ.

التفسير المبين، مؤسسة دار الكتاب الإسلامي، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.

*** مكارم الشيرازي، ناصر.**

الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، د.م، د.ت.

*** الموسوي، السيد عباس علي.**

شرح نهج البلاغة، ط١، دار الرسول الأكرم، دار المحجة البيضاء، بيروت، ١٤١٨هـ.

*** المياحي، شكري ناصر.**

الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) دراسة في فكره العسكري، ط١، بيروت، ١٤٣٤هـ-٢٠١٢م.

*** النوري الطبرسي، ميرزا حسين ت ١٣٢٠ه.**

مستدرك الوسائل ومستنبط المسائل، تحقيق: مؤسسة آل البيت (عليهم السلام) لإحياء التراث، ط١، بيروت، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م.

* هاربر، هارولد، الكيمياء الفسلجية، ترجمة أعضاء هيأة مدرسي كلية الطب، ط١، بغداد، ١٩٨٦ هـ.

*** الآملي، عز الدين جعفر بن شمس الدين ت بعد ٩٤٤ه.**

ترجمة وشرح نهج البلاغة، د.م، ١٣٩٧ هـ.

*** الاردبيلي، حسين بن شرف الدين.**

شرح نهج البلاغة، د. م، د.ت.

*** الأنصاري، محمد علي ت ق١٤**

ترجمة غرر الحكم ودرر الكلم، ط٨، طهران، د.ت.

شرح نهج البلاغة، طهران، د.ت.

شرح نهج البلاغة منظوم، طهران، د.ت.

*** التبريزي، المولى عبد الباقي ت ١٠٣٩هـ –**

منهاج الولاية في شرح نهج البلاغة، تحقيق: حبيب الله العظيمي، ط١، طهران، ١٤٢٠هـ.

*** الجعفري، محمد تقي.**

ترجمة وتفسير نهج البلاغة، ط٧، طهران، ١٤١٨هـ.

*** الخوانساري، جمال الدين محمد ت ق١٢.**

ترجمة غرر الحكم ودرر الكلم، تحقيق: مير جلال الدين الحسيني، ط٤، طهران، ١٤٠٨هـ.

*** الدامغاني، محمود المهدوي.**

جلوه تاريخ در شرح نهج البلاغة ابن أبي الحديد، ط٢، طهران، ١٤١٧هـ.

*** الدشتي، محمد.**

فرهنگ معارف نهج البلاغة، ط١، د.م، ١٤١٨هـ.

*** زادة القمي، أصغر ناظم.**

جلوه هاى حكمت، ط٢،قم، ١٤١٧هـ.

*** الشرقي، محمد علي.**

شرح نهج البلاغة، ط١، طهران، ١٤٠٥ هـ.

*** الكاشاني، فتح الله بن شكر الله ت ٩٨٨هـ – ١٥٨٠م.**

تفسير كبير منهج الصادقين في إلزام المخالفين، طهران، ١٣٣٣ش.

تنبيه الغافلين وتذكرة العارفين، تحقيق: محمد جواد الذهني، ط١، طهران، ١٤٢٠ هـ.

*** المحلاتي، هاشم الرسولي.**

ترجمة غرر الحكم ودرر الكلم، ط٢، طهران، ١٤٢٠هـ.

*** نواب اللاهيجي، محمد باقر ق ١٣ .**

شرح نهج البلاغة، طهران، د.ت.

*** الوحيد، أحمد المدرس.**

شرح نهج البلاغة، ط١، قم، د.ت.

المصادر الأجنبية

Davidson. principls and practice of medicine. London. 1999.

البحوث والدراسات

***أحمد، حسين علي.**

الوسطية من منظور إسلامي، مجلة أبحاث كلية التربية الإساسية، مجلة علمية محكمة تصدر عن جامعة الموصل، العدد ١، لسنة ٢٠٠٧م.

***الحسيناوي، عبد الرضا حسن جياد.**

البعد التاريخي لحركة الزهد الاسلامي، مجلة الكلية الاسلامية الجامعة، مجلة علمية فصلية محكمة تصدر عن الكلية الاسلامية الجامعة في النجف الاشرف، العدد ٢، لسنة ٢٠٠٧م.

***حلومي، وضاح كافي.**

مفهوم الوسطية ومضمونها في القرآن الكريم (دراسة موضوعية)، مجلة كلية العلوم الاسلامية، مجلة علمية محكمة تصدر عن كلية العلوم الاسلامية جامعة بغداد،

العـدد٢٣، لسـنة ٢٠١٠م.

*** الشمري، يوسف كاظم جغيل، وآخرون.**

البذخ والترف عند الخلفاء في العصر العباسي ١٣٢-٦٥٦هـ، مجلة جامعة بابل للعلوم الإنسانية، مجلة علمية فصلية محكمة تصدرها جامعة بابل، العدد٤، لسنة ٢٠١٠م.

***الشوبكي، إيمان سامي محمد.**

ألفـاظ الفلـك والهيئـة في نهـج البلاغـة (دراسـة معجميـة)، رسـالة ماجسـتير، كليـة الدراسـات العليـا، جامعـة النجـاح في نابلـس، فلسـطين، ٢٠٠٨م.

***عبد الحسن، شكري ناصر.**

دلالات إمامة أهل البيت (عليهم السلام) في روايات الزهري، مجلة أبحاث البصرة، مجلة علمية فصلية محكمة تصدرها كلية التربية جامعة البصرة، العدد ٢، لسنة ٢٠١٤م.

***العيساوي، محمود خلف جراد.**

الوسطية في ضوء السنة الشريفة، مجلة الجامعة العراقية، مجلة محكمة يصدرها مركز الدراسات والبحوث الإسلامية في الجامعة العراقية، العدد١/ ٢١، لسنة ٢٠٠٨.

***فندي، احتراس شاكر.**

تفسير آية الوسطية دراسة موضوعية – تحليلية، مجلة كلية الإمام الأعظم الجامعة، مجلة علمية إنسانية محكمة نصف سنوية متخصصة بنشر العلوم العربية والإسلامية وبالتخصصات العامة والدقيقة، العدد ١٦، لسنة ٢٠١٣م.

***الفهداوي، محمد عزيز مخلف الفهداوي، خلف أحمد خلف الفهداوي.**

الإعجاز الإلهي في العبادات البدنية (الصلاة أنموذجاً)، مجلة الأستاذ، مجلة علمية محكمة تصدر عن كلية التربية ابن رشد، العدد ٢١٥، لسنة ٢٠١٥م-١٤٣٧هـ

***القيسي، علاء صالح.**

الوسطية القرآنية بين الإفراط والتفريط، مجلة الجامعة العراقية،، مجلة محكمة يصدرها مركز الدراسات والبحوث الإسلامية في الجامعة العراقية، العدد ١/ ٢٤، لسنة ٢٠١٠م.

***نعمة إبراهيم.**

الوسطية في التصور الإسلامي، مجلة كلية الإمام الأعظم الجامعة، مجلة علمية إنسانية محكمة نصف سنوية متخصصة بنشر العلوم العربية والإسلامية وبالتخصصات العامة والدقيقة، العدد ٢، لسنة ٢٠٠٦م.

شبكة المعلومات العالمية (الأنترنت)

*** أضرار السمنة على الصحة والرجولة**

https://www.webteb.com

***غالاغر – محرر الصحة بي بي سي، ساعة الذروة والتغيرات التي تصاحبها في جسم الإنسان، ٢٨اكتوبر-تشرين الاول ٢٠١٤**

.com.bbc.www

*** معجم المعاني الجامع،**

.ar-ar/dict/ar/com.almaany.www//:https

* محمد جبرون، نحو فقه جديد لمفهوم الوسطية.

http://tawary.com/article_ar_impr.php?id_article=2095.

(المحتويات)

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٧-١٢
التمهيد: مفهوم الوسطية ومدلولاتها الفكرية	١٣-٣٧
أولاً: معنى الوسطية ودلالاتها اللغوية والاصطلاحية	١٥-٢٠
ثانياً: التوظيف والتكييف الفكري لمفهوم الوسطية	٢٠-٢٨
ثالثاً: المفهوم النامي للوسطية في المنظور الإسلامي	٢٨-٣٧
الفصل الأول: المسارات التكاملية في الاعتقاد والفكر	٣٩-١١٣
المبحث الأول: الفكر العقائدي ومساراته الوسطية	٤٣-٧٥
الاعتقاد المعرفي في سياقه التكاملي	٤٤-٥٤
الوسطية التشريعية في التوظيف العقائدي	٥٤-٦٢
بناء قواعد تثقيفية في المسارات العبادية	٦٢-٧٥
المبحث الثاني: المسارات الوسطية في الاعتقاد بمقام الإمامة وأبعادها الولائية	٧٧-١٠١
المبحث الثالث: مسارات الفكر الحضاري والعلوم التطبيقية	١٠٣- ١١٢
الفصل الثاني: المسارات التنظيمية والتوجيه الاستراتيجي	١١٣-١٧٢
المبحث الأول: المسار التنظيمي للإطار الاجتماعي وفلسفته النوعية	١١٧-١٢٨
المبحث الثاني: مسار الاستراتيجية الاقتصادية والتنظيم التنموي الكسبي	١٢٩-١٥٢
- الاستراتيجية السياسية وأبعادها الاقتصادية	١٣٠-١٣٦
- معيار التنمية الاقتصادية وفلسفتها الواقعية	١٣٦-١٥٢

المبحث الثالث: مسار تنظيم وتوجيه الإطار السياسي وأبعاده العملية	١٥٣-١٧٢
-تنظيم الشخصية الحاكمة وبناؤها ومسار التعامل مع المحكومين	١٥٤-١٦٥
-توجيه وتنظيمه الإطار العسكري وعلاقته بالقيادة	١٦٥-١٧٢
الفصل الثالث: المسارات التثقيفية وطابعها الشمولي	**١٧٣-٢١٣**
المبحث الأول: مسار القواعد الوقائية	١٧٥-١٨٥
المبحث الثاني: مسار القواعد الإرشادية	١٨٧-٢٠٨
المبحث الثالث: الغاية الفلسفية وطابعها الشمولي	٢٠٩-٣١٢
الخاتمة	٢١٥-٢١٦
قائمة المصادر والمراجع	٢١٧-٢٣٨